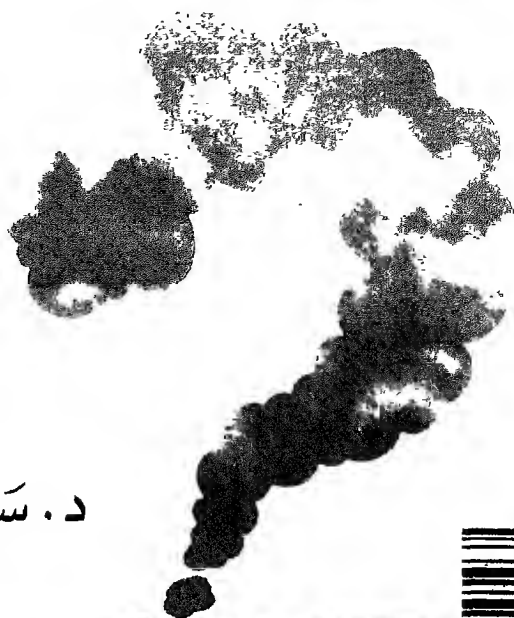


# إشكاليّة النّيارات والتّأثيرات الأدبيّة في الوطن العربي (دراسة مقارنة)

د. سعيد علوش



المركز  
الثقافي  
العربي  
البحراني



Bibliotheca Alexandrina

8008379





# إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

# إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية

## في الوطن العربي

(دراسة مقارنة)

د. سعيد علوش





# I - إشكالية التيارات الأدبية في العالم العربي

- 1 - مكونات تاريخ الأفكار كقناة أساسية لفهم التيار
- 2 - مكونات تاريخ الأفكار الأدبية الحديثة
- 3 - مكونات تاريخ الأدب العربي الحديث
- 4 - مكونات التيارات الأدبية عند العرب

« يرتبط مشكل التيارات الأدبية ، كظاهرة عالمية ، قبل كل شيء بالتطور العالمي . وحركة تبادل الآداب . أي بجوهر الدراسة المقارنة للآداب نفسها وهدفها » .

« فيكتور جرمونسكي »

التيارات الأدبية كظاهرة عالمية  
المؤتمر الخامس للآداب المقارن بلغراد 1967 .





## 1 - مكونات تاريخ الأفكار كقناة أساسية لفهم التيار

كان من الممكن الخوض مباشرة في معالجة التيارات الأدبية عند العرب لو لم ننتبه إلى غياب مدخل أساسي ، يكاد يكون مجهولاً ، لدى المؤرخ والناقد الأدبي ، وربما رجع ذلك إلى كون تاريخ الأفكار في تمييز له عن تاريخ الفكر L'histoire des idées ، لا يمس مباشرة الدرس الأدبي ، وربما يعود ذلك إلى جهل تام بهذا الدرس ، الذي ظهر في أمريكا مع لوفجوا ، بصدور نشرته ، له بنيويورك خلال الخمسينات من هذا القرن .

كما ظهر في نفس الفترة ، لامييل كاييت ، بفيلا ديلفي ، منشوراً حول تاريخ الأفكار ، سنة (1943) ، وكانت نفس المادة تدرس بالجامعات السويدية ، تحت عنوان ( تاريخ العقائد ) ، ووجد بالمانيا ، كرسي دراسة ، يطلق عليه تارة ( تاريخ الأفكار ) وتارة أخرى ( تاريخ الفكر ) . هذا دون الحديث عن تدريس الأيديولوجيا ، في الاتحاد السوفياتي .

ويعود الاهتمام الأدبي ، بتاريخ الأفكار - كباقي العلوم الإنسانية الأخرى ، وخاصة الفلسفة - إلى نزوع النقاد والمؤرخين ، إلى تجاوز اعتبارات الفرديات والعصور والوطنيات لبلوغ دراسة التيارات الكلاسيكية والرومانسية والرمزية . . . إلخ ، في إطار ما يطلق عليه « الأدب العام » .

وكيفما كان التوجه للنقاد الجمالي ، أو الفلسفي ، والمؤرخ الأدبي ، فإنه لا يتفق مع ما يترصده مؤرخ الأفكار ، من إستهواء تجريدي ، يقوم على إيجاد روح إنسانية لعصره في كل فكرة ، أو إستهواء تاريخي ، يقوم على البحث في

كل الظواهر الثقافية لعصر ما ، عن روح هذا العصر .

من ثم ، يتوجب على تاريخ الأفكار ، أن يوجد مكانة هامة للأدب ، داخله ، ذلك أن الأدب أقل تجريدية من الفلسفة ، وأكثر علمية كذلك . ومن الطبيعي إذن أن نجد انعكاساً دينياً في الأدب ، أكثر مما نجد هذا الانعكاس الأدبي في الدين ، الذي يمثل مجالاً خصباً لتاريخ الأفكار .

ونميز في كل معالجة للأفكار ، المستوى النظري ، وهو ( علم الأفكار ) ، والمستوى الملموس الذي يمثل ( تاريخ الأفكار ) .

وتؤكد الأيديولوجيا ، خضوع تاريخ الأفكار ، إلى قوانين بالمعنى الواسع للكلمة ، - حين نريد تطبيقها على الظواهر الأدبية - ، إذ توجد إلى جانب القوانين الفيزيائية الثابتة ، قوانين تطبع الكائن الأدبي .

من هنا تؤكد الأيديولوجيا ، بدورها ، وجود قوانين الفكرة ، التي على كل مثقف وأديب أن يعمقها ، إذا كان وجود قوانين الفكرة ، يرغب في أن يكون سيد أفكاره الأدبية .

ودراسة الأسلوبية ، تفترض أن قدرة معرفية واسعة . هي ما يبرر ظهور مبادئ لاحقة بالأدب ، كإحصاء الأدبي والتحليل النفسي للأدب وسوسيولوجية الأدب . . . إلخ . حيث تتأكد التوجهات التقنية ، على حساب التوجهات الأدبية ، وتحتد الصراعات بين التوجهات التعليمية ، وتوجهات البحث العلمي ، اللذين عليهما أن ينتهيا إلى هدف واحد ، يخدم الأدب .

وتدعو الفكرة ، على المستوى الأيديولوجي ، إلى تأمل تعقد الرحلات واللقاءات العالمية وتوزيع الكتب وإنتقاء المذيع والصحافة والسينما ، وكل عناصر ترويج الأفكار في العالم . وتقوم ظاهرة « الفكرة » على قوانين :

أ - التوزيع .

ب - الفضاء .

ج - التطور .

أ ( وتدرس قوانين التوزيع ، حاملي الأفكار ، وناشريها ، ومتلقيها ،

وهي شبه دراسة سوسولوجية للصدى الأدبي ، بما في ذلك طبيعة المسارات الأيديولوجية وأجواءها ومحركاتها الرمزية ، من كلام وكتابة وصورة ، ومحركاتها الجمعية من لغات حضارية وأجواء لسانية ومناخات ثقافية وأنماط الحداثة .

ب ( وتدرس قوانين الفضاء :

- (1) الفضاءات الفردية ، من فكرة ومزاج وفكرة وحدث وفكرة ونضج عقلي .
- (2) الفضاءات الأسرية ، من فكرة ، وتسلسل الأجيال والعلاقة بين التطور والفكرة .

- (3) الفضاء الجماعي ، من فكرة المهنة والطبقة والإنهاء إلى فكرة الوعي بالفطرة
- (4) نمو الفكرة وظاهرة التداعي والتجذر واكتشاف المكان وظاهرة القطيعة .
- (5) وتضم الفكرة ، نمو البناء ، والإقتناء العقلاني ، على أسس نظرية .
- (6) شيخوخة الفكرة ، من استنزاف للفضاء ، واستنزاف لمجهود الوضوح .

ج ( وتدعونا الفكرة على مستوى تاريخ الأفكار إلى :

- (1) دراسة المحاور الأيديولوجية الكبرى ، من فكرة المقدس والطبيعي وفكرة القدر والإرادة وفكرة العلم والفن ، التي تتطلب تصنيف المضامين الأساسية للأفكار الإنسانية الكبرى ، التي تمكن من معالجة أشكالها الأساسية . التي تجسدها الكلمة . حيث يصبح التجريد الإيديولوجي عملاً لتنمية لسانية .

وتقتضي دراسة الأفكار

دراسة الأفكار الأمرة . وهي آفاق ومحاور الأسبقية وتحديد المعيار الداخلي للأنظمة .

دراسة الأفكار الخاصة . من خلال بعض الإطارات والمفاهيم كالعقلية الماضوية ومفهوم العلة في الدين والفن والعلم .

وتمثل المعطيات السابقة ، دروساً متداخلة - الاختصاصات ، لن يدعي مؤرخ الأدب في يوم من الأيام ، الإلمام الشامل بها ، كما لن يفيد ذلك ، بل عليه أن يوظف نتائجها ، في فهم مجموعة من الظواهر الأدبية ، التي تحيل باستمرار على الأصول الاجتماعية ، وعلى مكونات ثقافية ذات جذور ، مخالفة لها خارج حدودها .

ويمثل تاريخ الأفكار الرثة ، التي يتنافس بها الأدب العربي الحديث إذ تستحيل معالجة هذا الأدب دون التعرض لتيارات السلفية والليبرالية والعقلانية والمثاقفة والهجرات والاستعمار والحروب والوطنيات . . إلخ . شريطة أن لا يتحول الدرس الأدبي إلى مجرد درس تاريخي وصفي ، أو جغرافي ، حبيس النظرة الأحادية إلى الأشياء .

ولا يمكن للأدب المقارن الذي يدرس التأثيرات والتداخلات الأدبية . أكثر مما يدرس سياقاتها العامة . أن يتخلّى عن أو يتجاهل تاريخ العقليات وانتشار الأفكار ، وسرعة تطورها وتغيرها ، بحسب شروط الحياة الخاصة ، للشعوب العربية ، ولأفرادها وتغيرها في معاناتهم للحياة وانقلابات العناصر المختلفة ، التي تتجسد في الصور واللحظات التاريخية .

فتاريخ الأفكار إذن ينجس الأرضية ، التي ينمو بها الأدب ، ويسمح بتوضيح نص ، من خلال علاقة فكرة مشتركة ، دون اللجوء بالضرورة إلى مصادر معينة ، تكون في الغالب إفتراضية أو غير موجودة ، أذ يمكن لكلمة واحدة في إرتباطها بفكرة ما أن تحرك الإهتمامات ، كما تكشف الكلمات المستعملة ، باستمرار ، عن المناخ الروحي للحظة .

ويمكن القول إن الأعمال الأدبية الكبرى ، تستطيع تحويل مجال أفكارنا المشتركة وتعديلها لأن الإحساسات الكامنة فينا . والوجه الجديد الذي تتقمصه الأفكار ، والقيمات والميثاق تلاحق عصر ووطنية الكاتب ، وتكتسي كل هذه العناصر ، أهمية خاصة ، بالنسبة للمقارن . من ثم ، يكون على التاريخ الأدبي العالمي ، أن يعمل على التوضيح الدلالي ، للنصوص الكبرى ، بموضعيتها في مناخ عصرها ، وتبيان حولتها ، على الرغم مما يشوب مهمته هذه من أدوار ، تظهر ثانوية ، وتخدم عادة ما يطلق عليه « ما قبل النص » ، وهو مدخل قد يكون أساسياً بالنسبة للناقد الهرمنوتيكي ، وقد يكون مجرد إسقاطات خارجية ، لا تفيد الناقد البنيوي في شيء ، إلا أن الأشياء ليست بهذه البساطة . فدخول جزئيات وكمالات النص الأدبي الحديث ، لا يمكن معها تجاوز مكون من المكونات ، حتى وإن كان هذا المكون هو مكون لـ « ما قبل النص » الأدبي .

وكثيراً ما ينظر إلى العمل الأدبي « في ذاته » وفي حضوره المباشر وفي كينونته ووحدته . إلا أن دراسة التحولات الأسلوبية عامة ، تكشف عن جماليات متعددة ، على ضوء تاريخ الأفكار ، الذي يحاول الغوص في الأعماق الوجودية . من عقل وانفعال وإحساس وتحليل وتذوق وعبقرية واجتماعية وتفاؤل وتشاؤم . . إلخ ، التي يكشف فيها عن وعي ولا وعي الأفراد والجماعات . إذ على مؤرخ وناقد الأدب أن يبحث عن الأفكار الأساسية ، والبنى والقوانين .

كما ينزع تاريخ الأفكار ، إلى إقتحام أعماق الظواهر الروحية ، محاولاً الانفصال عن التاريخ الأدبي ليخوض في فلسفة التاريخ .

فعلى تاريخ الأفكار ، أن يصبح حجر الأساس في التفكير الأدبي والأدب العام ، دون أن ننسى أن الأدب فن ، وعلى التوجه الجمالي أن يحتل الأهمية القصوى . لأن تاريخ الأفكار ، لا ينفصل عن حقل الأدب ودراساته ، فكثير من الشعراء والنثرين ، كانوا يمثلون الطليعة الأدبية ، في الدعوة إلى الأفكار الجديدة ، إذ نجد في الأعمال الأدبية الكبرى ، تظاهراً للأفكار الكبرى ، التي تلتجئ إلى هذه الأعمال ، عقب كل رقابة سياسية أو دينية ، أو بدونها . ويمكن القول بنوع من الإلتقاء بين الأدب العام وتاريخ الأفكار ، بحكم أن الأدب العام ، يحاول تنظيم وتنسيق مجموعة ظواهر أدبية ، تغطي آفاقاً واسعة تكاد تخلط بينها وبين عالمية الأدب . إلا أنها تميز نفسها عنها بالبحث عن التشابهات الناتجة عن العلل المشتركة . من لقاءات وتقاطعات وتداخلات ومصادفات وتطابقات وأحاسيس إنسانية ، إلخ .

فدراسة الأنواع الأدبية ، في تطوراتها عبر الأزمنة والفضاءات ، تدخل في سياق التاريخ الأدبي ، في مرحلة أولى وفي سياق الأدب العام ، في مرحلة ثانية ، حيث تتكامل مع عناصر أخرى تنتمي إلى تيارات أدبية عالمية .

ويظهر من ثم ، الأدب العام ، مهيناً لاستقبال وتنسيق أكبر عدد من الأحداث والعلائق القادرة على أن تعود إلى نتائج واسعة ، الشيء الذي يجعل الأدب العام ، يحتل مرتبة ، تعادل تلك التي تحتلها كافة العلوم

الإنسانية . بما تلعبه داخله عناصر التوزيع والانتقال والحساسية والأحداث والكتب والرحل والإزدواجية والكوسموبوليتية وكل حاملي الأفكار ، والأدوار . ويكاد يظهر الأدب العام من هنا ، كطموح ميتافيزيقي ، وفج ، يقوم بتعويم خصوصيات الدرس الأدبي ، في عموميات وكرليات إنسانية ، وعالمية ، هي في النهاية محاولة لاستدراج الآداب الصغرى للحاق بالآداب الكبرى .

وتتعدد الأطروحات . الخاصة بتأويل التاريخ الأدبي العام ، وعلاقته بتاريخ الأفكار ، إلا أن إمكانية إعتبارها منارات اهتداء ، وتموضع للنشاط الأدبي الوطني ، يعفينا من كثير من الأحكام الخارجة عن نطاق حقلنا .

فالآداب في كل وطنية من الوطنيات ، هو موضوعات وقيمات وميثاق ، وهي كليات إنسانية غير قابلة للتحويلات ، فهي ثوابت يمكن اعتمادها لتحديد العوامل المشتركة . تحت عنف سلطة التأثير ، أو التقابل الصدفوي ، دون حضور هذا التأثير .

كما يمكن إستثمار تاريخ الأفكار ، وتاريخ الأدب العام ، في تحديد الحوافز والحاجات ، التي تكوّن الخلفية الفكرية ، للظاهرة الأدبية العربية الحديثة .

وتكشف الأفكار عن النزوع العميق ، لفترة إلى التعدد ، وربما يزدهر نزوع فكري واحد ، تحت إسمين مختلفين ، كما تبرز الأفكار المختلفة ، عند نفس الكاتب ، وربما في نفس العمل الأدبي ، إذ تنقص نفس الكلمة معاني إستثنائية متنوعة ، حسب السياق الذي تظهر فيه ، فهل يصنع التاريخ الأدبي العام من مجرد ربط كلمة بتيار فكري ، غالباً ما يكون عالمياً .

إن تاريخ الأفكار ، هو وحده ، الذي يملك الجواب ، بدراسته لمكونات كلمة : الكلاسيكية والرومانسية والرمزية . إلخ . وبتسليطه الأضواء على مصادرها ، وصداءها بمختلف الفضاءات ، معطياً بذلك الإطار الضروري ، لكل معالجة أدبية عامة .

كما نسمح الأضواء المسطرة على النصوص ، بتحديد دقيق وجديد لمعنى

الكلمات الأساسية ، في كل فترة . وتنوع تطبيقاتها ، والتحويلات التي مرت بها ، في كل فضاء ، قبل إستنزافها واقتقاد أهميتها ، من ثم ، تصبح هذه الطريقة ، منهجاً لإعادة تكوين المناخ الثقافي العصري بتغير يتم بسرعة لا تحظر على البال .

ويمكن القول ، إن تطور الأفكار ، لا يخضع فقط للتطور الإجتماعي والاقتصادي والتقني . ولكنه يخضع كذلك لأحداث تاريخية متعددة ، هي نفسها ، التي تخضع النتاج الأدبي لفترة ما ، ويستمد منها لونه ، وهكذا تتكون مركبات أفكار ، داخل العصر ، وتصبح معرفة هذه المركبات ضرورية ، لدراسة الإبداع في تقمصها للأشكال الأدبية ، التي تعبر عنها ، والقيمات التي تجعلها شعبية ، وجمالية ، في خلق عوامل من التخيل ، تتدرج بين السهولة والامتناع ، والألفة والغربة . لقد فتح التاريخ الأدبي الوضعي الباب أمام سلسلة من أنماط البحث بين أدبيين أو جماعتين أدبيتين ، عن طريق التأثيرات ومسارات القيمات عبر القرون ، وقد كونت كميات الأحداث موضوع تأمل ، لا عند مؤرخي الأدب وحدهم . بل عند فلاسفة التاريخ ، أي أولئك الذين يصل التفسير التاريخي عندهم إلى اعتبار المجموعات الدالة التي تمثلها التيارات ، الفكرية والتيارات الفنية ، في جوهرهما وديناميتهما ، في مختلف الحضارات .

من ثمة ، يزاوج المقارن الوضعي ، بين تاريخ الأدب ومفهوم الفلسفة التجريبية ، وقد أبانت أبحاث هذا النوع من المقاربات سلسلة ظواهر ، لا يقترح تفسيرها عند المؤرخ البسيط وحده ، أو يقوم بذلك بطريقة خفية . مقتنعاً بأن على غيره أن يقوم بالباقي .

كما توجد فترات وأوساط مهياة لاستقبال أدب أديب ما ، بينما توجد حقب وأوساط ترفض هذا الأدب حتى وإن كانت التبادلات مستمرة ، بين الفضاءين الجغرافيين ، إذ يسجل المقارن الوضعي هذا الحدث ، كما يعلق عليه أحياناً . إلا أن عليه أن يتوجه إلى مؤرخ تاريخ الأفكار والحضارات المهتم بالفضاءين ، أي إلى مجموع العلوم الإنسانية ، التي تتخذ موضوعاً لها في الدراسة التاريخية للحضارات ، على ضوء تاريخ الأفكار ، لأن رفض أدب

ما ، خلال فترة ما ، هو تسجيل لحالة روحية ، ولرأي جماهيري ، باختياره الروحي ، الذي يمثل مرحلة حضارية ، مسعفة أولاً ، للتأثيرات المتبادلة .

من ثم ، تظهر أهمية الدراسة التاريخية المتعددة والمتداخلة - الاختصاصات ، والتي تأخذ في إعتبارها التاريخ الديني والفكر الفلسفي ، وتاريخ الإنتاجات الفنية ، دون إغفال للتاريخ الروحي للجماعات المثقفة ، التي تعد عبر التاريخ ، الشاهد النشط والصحة الإنسانية .

وهكذا تتدرج بنا دراسة الأدب ، عبر قنوات تاريخ الأفكار/ فلسفة التاريخ ، التبادلات الحضارية ، الأدب العام ، لتنتهي إلى نظرية الأدب ، لتمتلك منطقاً وكيونونة ، تقف بالأدب خارج الصدفوية والشاعرية العمياء . . . .

ولا يمكن للمقاربة في التاريخ الأدبي المقارن ، أن تنجح إلا إذا إعتبرت البنيات الأسلوبية كدلالات معادلة للبنات الاجتماعية والدينية والفلسفية ، والتي تحيل جميعها على الثقافة والأدب الذي نريد دراستها .

ونفترض المقاربة الأسلوبية ، مقارنة تاريخ الفكر أولاً ، وتاريخ المنطق ، وهما يرتبطان بتاريخ الروح الإنسانية ، في أنماط معارفها : الدينية والعلمية والصوفية والعقلانية . وعلى المقاربة الأسلوبية ، لكي تكون فعالة ، أن تندمج في مقارنة شاملة ، أو متعددة الاختصاصات .

لذلك يعمل تاريخ الأفكار ، على تحديد الهوية الدقيقة ، لمعجم المصطلحات الأدبية - بجميع الوسائل وعلى رأسها الإحصاء الأسلوبية - الشيء الذي يسمح بالتعرف على الحقل ، الذي تنتمي إليه والحمولة الأدبية للاصطلاح ، وتردده السيميائي ، في العمل الأدبي ، وكذا في مجموع إنتاج الجيل أو الفترة أو العصر .

وتقوم المعطيات السابقة ، ككليات إنسانية ، تتقابل في كل الآداب ، لتخضع الظواهر ، إلى نفس مقاييس التحولات والثوابت ، في المذهب والاصطلاح والأسلوب ، في تاريخ الأدب والنقد ونظرية الأدب . ومساهمة تاريخ الأفكار ، في هذا النوع من التعرف على إنتهاءات كتابة أدبية ما ،



وتقاليد أسلوبية ، واردة في جميع المقاربات التي يستدعي فيها المؤرخ الأدبي ، أو المقارن الشعري ، وسائل تعرف تاريخ الأفكار ، على إشكال أدبي ما .

وما حصول التمايزات بين الاتجاهات والأنواع والأساليب ، سوى علامة على الإنتهاءات الثقافية ، لكل نمط شعري أو نثري إبداعي أو نقدي ، قد يظل حبيس نقاشات فترة ، وقد يتعدها إلى مستويات ، من الممارسات الفردية والجماعية .

ويوضح هاري ليفن ، في كتاب « إنكسارات » : الظاهرة ، إذ : « يبدو تاريخ النقد أحياناً ، على أنه نوع من النزاع حول الألفاظ . إلا أنه يواجه مشكلة معالجة مجموعة من الظواهر المعقدة والمتبدلة ، باستمرار ، بعدد ثابت محدود ، من المصطلحات ، فعندما تصبح المدارس القديمة ، موضعاً للشك ، وتقوم حركات جديدة ، فإنها تنخرط بشكل حتمي في جدل حول الكلمات ، فتلغي صيغاً ، وتهاجم صيغاً ، وتنشر التعابير الجديدة ، من خلال الحيوية الفعالة للغة نفسها ، وهكذا فالكلمة الواحدة ، تعني أشياء مختلفة ، بالنسبة لنقاد مختلفين ، « فالرومانتيكية » ، مثلاً ، التي كانت بمثابة السم لدى ( ايرفينغ بايت ) ، كانت الترياق بالنسبة إلى ( جاك بارزون ) ، والنتيجة ليس أن المفهوم عديم المعنى ، وإنما هو أشمل وأسمى من محاولات شارحيه ، لتثبيت معنى له . . . فلا يمكن لصيغة واحدة ، أو عينة بسيطة ، أن تحيط إلا بشكل تقريبي ، بسلسلة من العمليات العضوية . المتواصلة ، بشكل دائم »<sup>(1)</sup> وتصبح اللغة إذن وسيطاً ضرورياً ، في تحقيق التعرف على المذهب ، فكل قارئ متميز يفصل بالحدس بين إتجاه وآخر ، بمجرد قراءة عادية ، لنص أدبي ما ، دون لجوء إلى مراجعة منتج النص وعنوان العمل الأدبي والإشارات الزمنية ، والمكانية ، لظهوره . . . إلخ . فلا غرابة إن التحقت الكلاسيكية ، والرومانسية ، والواقعية ، والرمزية ، والطبيعية ، بفترات زمنية . تحيل باستمرار على كل تاريخ أدب من الآداب الوطنية .

( 1 ) هاري ليفن ، انكسارات ( مقالات في الأدب المقارن ) ت : عبد الكريم محفوظ . ط :

وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق 1970 ص 56

بل أصبحت المذاهب طوابع وعلامات على عقليات وممارسات وتقاليدها ،  
يكفي كل استدعاء لها لإيقاظ التاريخ الطويل لتقاليد المذاهب وأعلامها .

فالرومانسي والكلاسيكي ، يدلان في ذهن كل قارئ ، على عناصر  
التحول وعناصر الثبات والأصالة والتجديد والتحلل من القواعد ، والخضوع  
للتام لها .

ويلاحظ هاري ليفن :

.. إن كلتا الصفتين ( رومانسي وكلاسيكي ) : اللتين تقومون مقام  
عنوانين . لا تفعلان أكثر من تمييز الواحدة منهما عن الأخرى . ورغم ذلك ،  
فإن كلا منهما ترتبط بسلسلة من الكلمات المميزة ، التي يمكن تتبع تطورها  
تاريخياً وتحليل مغزاها نقدياً أيضاً . ويحظى البحث الأدبي بالدقة البالغة ،  
والمنظور الصحيح ، بمقدار ما يتحكم بأمثال هذه الكلمات ، كما أنه يتسم  
بمثل هذه العلامات المميزة ، كالوفود المفاجيء ، لكلمة « التخيل » ، ولقد  
كانت مفرداتنا النقدية ، عرضة لتغيرات مماثلة ، طيلة القرن ، الذي يفصل  
بيننا وبين عصر الرومانتيكية ، ولذلك فإن فشلنا في تدوينها بوضوح ، وفي  
اختبارها والبرهان عليها ، وفي بحث الظروف التي استدعتها ، والمقاصد التي  
تعنيها . قد يكون أحد مصادرها ، التشويش الراهن <sup>(2)</sup> .

لذلك كان عمر معاجم المصطلحات الأدبية ، هو عمر الاتجاهات التي يفرزها  
عصر وتقاليده أدبية ، تتحدد عبر الأجيال والمناهج ، إذ لا يمكن أن تكون  
نهائية ، فهي تخضع باستمرار للزيادة والنقص والتعديل المشروع ، طبقاً  
للمفهوم الذي يفرزه الحقل الثقافي والأدبي والفلسفي للإبداع والنقد . يقول  
فان تيجم : « إنكم لتعلمون مدى ماهنالك من صعوبة في رسم حدود  
فاصلة دقيقة ، بين التاريخ الأدبي ، وتاريخ الأفكار ، فلئن كان لكل من  
هذين التاريخين مناطق واسعة ، يختص بها ، فإن حدودهما مؤلفة من سياج  
عريض ، لكل منهما فيه حقوق ، فأنت تجد في التاريخ الفكري ، للأمة

---

( 2 ) هاري ليفن ، السابق ، ص 57 .

الواحدة ، كتباً ومسائل لا ترجع إلى تاريخ الفلسفة وحده ، ولا إلى تاريخ الأديان وحده ، ولا إلى تاريخ الأفكار الأخلاقية وحده ، ولا إلى تاريخ المذاهب الاجتماعية أو السياسية وحده ، وتتصل بأكثر من واحد من هذه الفروع ، ثم هي تتصل كذلك بالتاريخ الأدبي ، لأن نجاح الأفكار يرجع معظمه إلى الأسلوب الفني ، الذي عرضت به ، كما هو الشأن في مؤلفات مونتسكيو وفولتر وروسو . . .

ففي هذا النوع من الدراسات يكون التاريخ الأدبي مرتبطاً ارتباطاً لا انفصام له ، بتاريخ الأفكار»<sup>(3)</sup> .

---

( 3 ) فان تيجم ، الأدب المقارن ت : سامي الدروبي ، ط : الفكر العربي 1948 ص 113



## 2 - مكونات تاريخ الأفكار الأدبية الحديثة

سندخل في حسابنا الإحالة على أبحاث سابقة، حول الإستشراق والنهضة والترجمة . والتي عالجناها خارج هذا الموضوع .

لذلك سنقتصر على تحليل بعض المعطيات ، التي تبرز كيفية تقلص النشاط الأدبي والحضارة ، داخل أنواع صغرى ، وممارسات شفهية ودينية . جعلت نيقولا زيادة يمحصر مراكز العلم في العالم العربي ، ضمن مؤسسات تاريخية تقليدية ، لا تخرج عن القرويين والزيتونة والأزهر ، التي كانت : « تحتفظ بجذوة تحت الرماد ، لكن لا لهب لها يحرق ، ولا وهج يلفح وأكتفى المشتغلون بالعلم بأن يقرأوا علوم الدين واللغة . . . ولكنهم عزفوا عن الأصول إلى الملخصات . . . فلا قضايا أساسية تبحث ، ولا مشاكل دينية تطرح ، ولا مسائل أدبية تدرس . وكأني بالعالم العربي إهتدى إلى نوع من التوازن ، بين حاجاته القليلة والمصادر الضئيلة التي تمدّه بهذه الحاجات وحلّوها وكأني بالمشتغلين بالأدب والعلم الديني والتاريخ وغيرها ، شعروا بقلة البضاعة ، فحاولوا تجويد الصناعة »<sup>(4)</sup> .

والحق أن معالجة فترة ما يطلق عليه « عصر الإنحطاط » ، هي معالجة تحقق إجماعاً حولها ، لدى مؤرخي الأدب الذين تعودوا على البحث عن الأدب في الخوض الأدبي المباشر ، وحين تقلص الأدب ، وإنزوى في الزوايا المظلمة لفنون صغرى ، كتابية وشفوية ، وفي ممارسات موسيقية ،

---

( 4 ) نقولا زيادة ، الفكر العربي في النصف الأول من القرن 19 ، / بالفكر العربي في مائة سنة /

ط : الجامعة الأمريكية / بيروت / 1967 / ص 1 .

وفولكلورية ، واحتفالية ، إستعصى عليهم تأويل الظاهرة ، واكتفوا بملاحقة وصفية لتكرارية النصوص والأغراض والمعارضات والإجازات ، التي تعتبر وسيلة فعالة لحفظ الثقافة ، حتى لو افتقدت مواصفاتها وحوافرها .

وتستمد أطروحة نقولا زيادة ، مقوماتها من نوع من الغيرة ، والأسف على تغافل العرب عن مصادر تحولهم . متغافلاً بدوره ، عن وجود حتمية تاريخية وجدلية ، يتم داخلها كل تحول ، ومع أن البعد الزمني ، بين المؤرخ والظاهرة ، كان كافياً لتحقيق بعد معرفي بالظاهرة ، إلا أنه يستمر في التدليل بدل التحليل ، ويستمر نقولا زيادة ، في بحث ما يعزز أطروحته من أمثلة :

« وما نحن أولاً نقبل صفحات الكتب التي أرخت للرجال ، كالاستقصاء للسلاوي ، والنبوغ المغربي ، في الأدب العربي ، لعبدالله كنون ، وإتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف ، والمنهل العذب للأنصاري ، وعجائب الآثار للجبرتي ، وخلاصة الأثر للمحيبي ، وتاريخ الأدب العربي في العراق ، للعزاوي ، وغيرها . فنجد أن الأمر لا يعدو أن فلاناً أثنى كذا وكذا ، من علوم الدين ، ولخص كذا وكذا ، من كتب الفقه أو الحديث أو التفسير أو شرحها ، أو علق على متونها . ثم جلس للتدريس في واحد من معاهد العلم التقليدية ، وكأني بالعالم العربي . وخاصة الأجواء التي تبعت الدولة العثمانية منه ، قد أدار ظهره إلى الغرب ، الذي كان يسير تماماً في نهضته وإصلاحه الديني ، وكشوفه الجغرافية وأحيائه الآداب القديمة ، وتعبيره عن مشاكله الجديدة ، وكشفه بعض نواميس العلوم الطبيعية ، فكان العرب بمنأى عن هذا كله »<sup>(5)</sup> والحق أن تأخير إهتمام العرب بالخارج ، من الأشياء الأكثر طبيعة ، لأن إهتمام الغرب بالخارج ، لم يأت عفوية ، بل استجابة لفترة رأسمالية وإمبرالية ، كانا شراً لا بد منه ، للفت الإلتباه نحو الخارج . فالأطروحة التي يروج لها نقولا زيادة ، لا تعني إنها خاطئة أو واقعية ، ولكنها تتجاهل الحاجات والخوافز الداخلية للعالم العربي ، معقدة في الحلول السحرية ، لخارج كان الإنفتاح عليه ، فُصِّرنا مفتوحين له ، دون أن تتحقق

( 5 ) نقولا زيادة ، السابق ، ص 2 .

الفعالية . ويظهر أن التطور والتغير والتبدل ، هي المفاتيح الأساسية لأطروحة نقولا زيادة ، التي لا تراعي البنيات المكونة لهذا المجتمع المعقد ، في رفضه وقبوله وإقباله ونبذ ، لتعقد التحول ذاته ، على مستوى البنيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، لأن الأمر لا يتوقف على المفعول الثقافي وحده ، من ثمة ، يلاحظ نقولا زيادة :

« على أن المؤرخ المعني بالتطور الفكري ، في العالم العربي يلاحظ أنه ابتداء من العقود الأولى من القرن 19 أخذ العالم العربي بالتغير والتبدل والتطور ، وقد كانت الخطوة الأولى بطبيعة الحال ، بطيئة لكنها لم تلبث أن أخذت بالتسارع»<sup>(6)</sup> . وبطبيعة الحال ، فظواهر التطور والتغير والتبدل ، تكاد تكون جماعية عند المؤرخين الأدبيين . الذين يحيلون باستمرار على إصلاحات عثمانية ، مع أن المغرب مثلاً ، لم يخضع لنظام العثمانيين ، وعلى حملة نابليون ، التي أصبحت من بديهيّات النهضة العربية ، أما المدارس والبعثات في لبنان ومصر ، فيجري تأثيرها على باقي الدول ، لأن عصر محمد علي باشا ، في مصر ، مثلاً ، قد حقق للعالم العربي عبر هذه الدولة الانفتاح الضروري .

ويغيب عن المؤرخ الأدبي ، كيف يقع ضحية مجموعة من الاسقاطات ، إذ لم تكن نفس الخلفيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، متماثلة في العالم العربي ، حتى يمكن أن نجريها على فضاء شاسع ، ودول ذات خصوصيات متعددة ، وإلى تاريخ قريب ، كان تاريخ الأدب العربي هو التاريخ الأدبي لمصر أو للبنان . تبعاً للإلحاق القسري ، ولا يمكن للأدب الجزائري مثلاً ، أن يصنف داخله بسهولة ، وقد كان الأولى ، قبل خوض تاريخ الأدب العام ، الاعتماد على تاريخ الأدب الخاص بكل دولة عربية ، حتى تكتسب شرعية مقابلاتها ، ودمج عناصر نموها ، ضمن ما يقوم نقولا زيادة ، بإقرار صلاحيته ، لمجموع العالم العربي ، فهناك من العناصر ، ما يعمل في دولة عربية أكثر من غيرها ، كما أن منها ما لا ينطبق تماماً على

( 6 ) نقولا زيادة ، السابق ، ص 4 .

خصوصيتها ، وهكذا يمحصر نقولا زيادة ، مظاهر وقنوات التحول ، في ثماذ عناصر ، إذ : « يتوجب علينا أن نذكر أنفسنا بأن المدرسة والجمعية والصحيفة والمطبعة والرحالة وشباب البعثات والترجمة والتأليف كانت الوسائط التي أدت إلى الأخذ بالجديد والاهتمام بالتقدم بالغرب فمحاكاة أهد تلك الديار فيما كانوا أخذوا به من أسباب التقدم والرقى »<sup>(7)</sup> .

ولم يحدد نقولا زيادة ، على غرار جان ماري كاري ، دور الجيوش والتمثيلات الدبلوماسية ، والتنظيمات السياسية ، وكذا بنوعية هذا الغرب لأن هذا الأخير ليس وحدة منسجمة ، كما أن مجرد محاكاة التقدم والرقى بدون توفر حوافز عضوية ، يطيل مدة المحاكاة ، ويفرغها من محتواها .

وإذا كان نقولا زيادة ، قد جعل المدرسة عنصراً أولاً ، فإن هش شراي ، يقاسمه الاهتمام ، إلا أنه يحدد توجهات التدريس في لبنان ، ه خلال تقاسم الكليتين : الإنجيلية واليسوعية ، المهمة التدريس والتدرج به ه المدرسة الأولية إلى التعليم الجامعي :

« وربما كانت النظرة العقلانية ، التي ولدتها الثقافة الجديدة أكثر أهمية من التدريب اللغوي ، فالأفكار الجديدة طرحت أطر تفكير جديد حتماً ففي المدارس الناطقة بالإنكليزية ، كالكلية السورية الإنكليزية ، كان الم نحو نظرة علمية محددة ، وفي المدارس الناطقة بالفرنسية ، كالكلية اليسوء في بيروت ومعظم المدارس المذهبية الأخرى في لبنان كان النمط السائد ه التوجه الإنساني الأدبي »<sup>(8)</sup> .

أما البرت حوراني فيرى أنه : « كان في مصر طبقتان مختلفتان المثقفين ، ولكل منهما عقليتها الخاصة ، العقلية الإسلامية المتزمتة المقاو لكل تغيير ، وعقلية الأجيال الطالعة القابلة لكل تغيير ، ولكل أفكار أور الحديثة ، وكانت أفكار عصر ( التنوير ) الفرنسي ، قد أصبحت في ذ

( 7 ) نقولا زيادة ، السابق ، ص 8 .

( 8 ) هشام شراي ، المثقفون العرب والغرب ، 1970 - ص 66 .



الوقت لدى الأجيال الطالعة ، فانتشرت معرفة اللغة الفرنسية كما انتشرت مبادئ ( الفلسفة الوضعية ) ، في شكلها الأصلي أو المحور حتى أن بعض المصريين كانوا قد شربوا من رأس المنبع نفسه ، فهناك ( 20 ) نسخة من كتاب لأوجست كونت ، بعنوان خطاب في مجمل الفلسفة الوضعية « تحمل إهداء المؤلف : « إلى تلميذه القديم مصطفى محرجي » وهو مهندس مصري ، كان محمد علي قد أرسله إلى باريز عضواً في بعثة تعليمية ، ولم يكن هذا الإنقسام يعني الإنثناء الأساسي المشترك بين الفريقين فحسب ، بل كان يعني أيضاً التهديد لأخلاق المجتمع »<sup>(9)</sup> ولم يكن لفتور القرن 19 ، في أوروبا ، أن يمر دون أن يخلّف أثاره على العالم العربي ، الذي كان يتلقف صدى الغرب ، بواسطة سفرائه ورّحله وبعض البعثات ، إذ لم تحل فتاوي العلماء ، دون الاتصال وملاحقة التطور ، وراء حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهذا ما يدفع نقولاً زيادة ، إلى اعتبار : « أن النصف الأول من القرن 19 يمثل في العالم العربي ، فترة صدم فيها القوم بهذا الزخم الدافق عليهم ، من الخارج ، فحاولوا قبل كل شيء أن يتقوه خوفاً منه وخشية من عواقب القبول به .

ولكن أصحاب العقول النيرة في ديار العرب ، وقد كانوا قلة ولا شك ، أبصروا بعض ما يكمن في بعض مظاهر الحضارة الغربية من خير ، فحاولوا نقله إلى جماعتهم بوسائل مختلفة متنوعة ، بعضها كان رسمياً حكومياً ، والبعض كان فردياً خاصاً بعيداً عن السلطان »<sup>(10)</sup> .

والحق أن فرض الدخول في علاقة مع الخارج ، كان مطروحاً ، على المستوى الرسمي أولاً ، لأهداف ترتبط بالأمن وعصرنة الدولة العربية ، وهي عصرنة إقتضت الدخول في علاقة دولية وديبلوماسية وعسكرية وتجارية .

وبعد هذه المرحلة ، تسرب التأثير إلى أفرادها وعبر التسلسل الهرمي

( 9 ) البرت حوراني ، الفكر العربي ، ص 171 / 172 .

( 10 ) نقولاً زيادة ، السابق ، ص 9 .

للأسرة والعائلة والعشيرة ، أخذ التوجه نحو الغرب يتخذ مسارات متعددة لعب فيها التعليم دوراً أساسياً في تقريب الهوة الفاصلة بين عالمين ، ولم تكن الثقافة هي حبل الوريد في ربط الصلات التي لم تكن تمتلك الأبعاد اللازمة ، بل تقتصر على سد الحاجيات الآنية ، التي تتطلبها وضعيات الدولة المتردية بين الأزمات الداخلية والحلول الاضطرارية . اللجئة إلى الخارج ، وظهرت حالات متعددة لم يرجع فيها بعض أفراد البعثات كتقنيين ، كما كان يراد لهم ذلك من خلال إرسالهم إلى الخارج ، بل عادوا مترجمين وأدباء ، يسجلون مذكراتهم ، فاتحين بذلك ثغرة لتسجيل مشاهداتهم وانطباعاتهم عن هذا الإيهام بالآخر ، في فترة حرجة ، من حياة العالم العربي . فكان أن تعددت ردود فعل المصلحين ، والليبراليين على السواء ، ولم تقف هذه الملاحظة دون نقولا زيادة ، الذي وجد : « على أن المعرفة ما كانت لتقبل التجزئة . فالرجل الذي كان يتاح له ان يقضي وقتاً صالحاً للدراسة التقنية في بلد أوروبي لم يقتصر على ذلك . بل كان في غالب الحالات ، يضيف إلى جعبة اختبراته ما يشاهده في تلك البلاد من صور الحياة في المجتمع الذي عرفه . وما يطالعه من أدبها القديم - الحديث . وما يقتبسه من حياته السياسية . ولا شك أنه كان يقابل بين ما عرفه في بلده وما يشاهده في ديار الغرب وقد يقبل هذا الجديد . وقد يرفضه كله . ولكنه على كل حال يتأثر بذلك وهذا التأثير هو الذي كان يحفز به بعد عودته . إلى القيام بالعمل<sup>(11)</sup> .

ويصادف كل هذا ، ظهور صحافة خصصت حيزاً كبيراً للإنجازات الغربية ، على غرار صحيفة « المغرب » التي ظهرت بطنجة سنة 1889 . والتي توضح في افتتاحية عددها الأول عديداً من حوافزها النهوضية :

« وإذا كانت هذه البلاد مفتقرة إلى جريدة عربية اللغة والمشرّب ، لنشر الأنباء الحقيقية ، والحقائق العلمية ، والاستنباطات الصناعية ، التي من شأنها ترقية منزلة البلاد بأن تثير في رؤوسها نار الحمية العربية ، وتدبّ فيهم النخوة الوطنية ، وتهض همم الرجال ، من حضيض الإهمال ، إلى التدرج

( 11 ) نقولا زيادة ، السابق ، ص 10 .

في مراقبي الكمال ، لكي يسعوا إلى إصلاح حالة بلادهم»<sup>(12)</sup> .

ويكاد يكون مدراء جرائد ومجلات العصر من ذوي الإطلاع على التجربة الغربية بشكل من الأشكال ، أو من الذين إكتسبوا خبرة ما ، عبر هذه المسالك الثقافية ، جامعين بين الحس الوطني والنزوع نحو التقدم الغربي .

إستدعى تكامل قنوات المعرفة الجديدة ، تواجد العديد من المستويات : الإعلامية والفكرية . من ثمّ ، لم يكن من اليسير الإقبال على معارف جديدة بأعلام وفكر ولغة كلاسيكية : « فهذه المعرفة الجديدة . على اختلاف مناحيها وتشعب أهدافها كان يعبر عنها باللغة العربية . ومعنى ذلك أن اللغة العربية كانت يجب ان تتسع للجديد من الآراء والأفكار»<sup>(12)</sup> . ويعد التكيف مع المعرفة الجديدة جدلية مادية ، ما كانت العربية لتستثني من ولوجها بخطى خجولة . ولكن متفائلة يكفي استقرار مراحل التطور التي قطعتها منذ القرن 19 إلى الآن عبر لغات أدبية وسياسية واجتماعية<sup>(13)</sup> .

« في النصف الأول من القرن 19 زحفت أفكار جديدة إلى العالم العربي جاءت بشكل خاص من أولئك الذين تأثروا بالثورة الفرنسية ، من هذه الأفكار « الحرية » كانت الكلمة تستعمل في الأدب الديني الإسلامي من حيث علاقتها بقضية الجبر والاختيار وحرية الإنسان . ولكن الذي وصل إلى بلادنا في هذه الفترة هو المعنى المدني للكلمة : الحرية من حيث دلالتها الاجتماعية والسياسية»<sup>(14)</sup> .

وكان رفاعه رافع الطهطاوي<sup>(15)</sup> في « تلخيص الأبريز » المروج لكثير من الأفكار المرتبطة بالحرية « ومن الأشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنسيين أن كل إنسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة . . . وكل

( 12 ) نفولا زيادة ، السابق ، ص 11 .

( 13 ) محمد المنوني ، مظاهر يقظة العرب الحديث . ط : الأمانة ، الرباط ، 1973 ، ص 282 .

( 14 ) نفولا زيادة ، السابق ، ص 12 .

( 15 ) نفولا زيادة ، السابق ، ص 14 .

فرنساوي له أن يبدي رأيه في مادة السياسيات أو في مادة الأديان بشرط ألا يتخل بالانظام المذكور. في كتاب الأحكام كل الاملاك على الإطلاق حرم لا تهتك . فلا يكره إنسان أبداً على إعطاء ملكه إلا لمصلحة عامة» (16) .

ومما يمت إلى الحرية بصلة فكرة « المواطنة » و« الدستور » و« التعليم » ، وعديد من المقولات القومية والإصلاحية ، كما كانت الثورة الفرنسية ماثلة بثقلها وتناجها الاجتماعية ، والسياسية ، وأتاحت ثورة الفرنسيين لـ 1830 ، أن يعيش الطهطاوي أحداث فرنسا وأن يتمثل روح الثورة الفرنسية ، وكانت ثقافة الطهطاوي ، من ناحية النظرية السياسية خير زاد له على فهم الأحداث والتعليق عليها .

« إن العصر الذي إحتك به العرب بالغرب أول ما إحتكوا ، كان بالنسبة إلى أوروبا الثورة الفرنسية ، عن طريق الخبراء والمعلمين » (17) .

يجعلنا نقولاً زيادة ، وعمود فهمي حجازي (18) نعايش لحظتين تاريخيتين ، عبر مراحليتها ، إذ يتحدث الواحد عن النواة ، بينما يركز الثاني على تولد النواة وانتقالاتها ، عبر فضاءات وعقليات كانت على كامل الاستعداد لاستقبال . ما كانت في حاجة إليه ، لإعادة ترميم مفاهيمها عن « الخلافة الإسلامية » و« الشورى » ، و« الولاية » ، وهي مفاهيم حققت « العدالة » ، التي كانت مفتقدة في عصرها .

وأصبحت الثورة الفرنسية ، من ثم ، حصان طروادة ، الذي ركبه رثيف خوري ، في « الفكر العربي وأثر الثورة الفرنسية في توجيهها السياسي والاجتماعي » ( 1943 ) ، والكاتب جورج انطونيوس في « يقظة العرب » ( 1962 ) ، وغيرهما ، وبمستويات مختلفة ظهرت فيها أفكار فولتير ، ومونتسكيو ، وروسو ، بارزة ، في كتابات الأفغاني ، والكواكبي ، وعبد ، ورضا .

( 16 ) دفاع الطهطاوي ، « تلخيص الأبريز » ملحق بكتاب « أصول الفكر العربي » لمحمود فهمي

حجازي . ط : الهيئة المصرية العامة / 1974 / ص 241 .

( 17 ) محمود فهمي حجازي ، أصول الفكر العربي ، ص 34 .

( 18 ) نقولاً زيادة ، السابق ص 18 .

ويلتقي محمد يوسف نجم ، مع نقولا زيادة ، في تحديد العوامل الفعالة ، في تكوين الفكر العربي الحديث لينفرد في إرتكاب الخطأ ، بتقرير توقف العالم العربي ، عن العطاء ، منذ ما يقرب من سبعة قرون ، إلا أنه بسهولة وتبسيطه ، يقرر مرة أخرى استيقاظها ، منذ عصر النهضة ، وهي ارتسامات يتقاسمها ، مع كثير من المؤرخين والمستشرقين .

وقد أعفت الصيغة التقريرية هذه ، الكثير من المؤرخين من إعادة - قراءة النهضة العربية ، من منظور المستجدات في تاريخ الفكر والأفكار العربية .

ويظهر أن ما طغى على هذه الأفكار ، هو تميرها ، عبر كبار المصلحين العرب ، لتطهيرها مما يمكن أن يسيء إلى العقيدة الدينية ، وكذا إلى التقاليد السائدة آنذاك ، مما أطلق العنان لظاهرة المقارنة الساذجة ، بين عاملين إلتبه إليها أديب نصور ملاحظاً ، وواجداً أن : « المسألة الكبرى التي وجدها الكواكبي موضع اهتمام في مطلع القرن العشرين شغلت الفكر العربي في القرن ١٩ كله نتيجة للإحتكاك المتعدد الصور ، بين الشرق والغرب فالمثقفون في البلاد العربية عندما أخذوا علماً بوجود أوروبا الحديثة ، واطلعوا على الأفكار الجديدة والمؤسسات الحديثة وشعروا بوطأة أوروبا وحضارتها وقوتها وجعلوا ينظرون إلى بلادهم ومجتمعاتهم ، ويقارنون بين تخلف الشرق وجهله وجهوده وبين التقدم الغربي وعلمه وتحركه السريع وراحوا يطرحون على أنفسهم أسئلة خطيرة »<sup>(١٩)</sup> .

والأسئلة الخطيرة التي واجهت العرب ودفعتهم إلى المقارنة بين نظامين مختلفين ، لم تتوقف عند حدود أوصاف المصلحين لوضعية أوروبا والعالم العربي ، على المستوى التخطيطي والكلامي والتدبيري ، والعمارة والأكل والملابس والمنتزهات والسياسة والعلوم والدين والتقدم والتأخر ، بل كانت كاسحة شملت كل المظاهر ، ولم تعداها إلى مكوناتها وخلفياتها وحوافزها .

وهذه الظاهرة ، أصبحت حجر الأساس في أغلب دراساتها للفكر العربي

---

( ١٩ ) أديب نصور ، مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام ( ١٨٥٠ / ١٩٤٨ ) بالفكر العربي في مائة سنة / ط ٠ الجامعة الأمريكية / بيروت / ١٩٦٧ / ص ٨٥ .

والسياسي العربيين ، فلا يمكن معالجة قضية من قضايا السوسيولوجية والسياسية ، دون الإحالة على الغرب ، لحد أن هذا الغرب أصبح حاضراً باستمرار ، في تفكير الدارسين والقراء ، وهي ظاهرة تتطلب موضعها في الإطار التاريخي الذي أنتجها .

فأديب منصور ، يرى أنه :

« لا يمكن دراسة الفكر السياسي العربي ، على أنه نظام مغلق قائم بذاته ، مستقل عن الفكر السائد ، في الغرب ، كما أنه لا يمكن دراسة الفكر السياسي ، بمنأى ومعزل عن الفكر السياسي العالمي . . . وقد رأينا أن المفاهيم الكبيرة والأفكار الرئيسية التي سادت القرن 19 في أوروبا ( مثل الحرية والتقدم والحضارة والوطنية والقومية ) قد دخلت في نطاق الفكر العربي وأصبحت جزء من تراثه »<sup>(20)</sup> .

إلا أن أديب منصور ، يقف عند تقرير المفاهيم ، ولا يتعداها إلى الكيفيات التي إستقبلت بها ، وتحولاتها ، في التقاليد العربية ، إذ من الأكيد أن الحرية والتقدم والحضارة والوطنية ، والقومية ، قد اتخذت ألواناً مغايرة تماماً لما هي عليه تأويلاتها ، وتطويعاتها للوضعيات الجديدة ، وهي قضايا لاقت تفسيرات كثيرة ، عند غرونيباوم . جاك بيرك ، وذهبت عند الأخير إلى حد التعرية من الخوافز الداخلية : « إن الغرب الامبريالي ، كان هو نفسه الغرب المعلم الذي ينسج على منواله إلى حد بعيد ، فهو الذي كان يُستقى في إمكانية الإعتناق منه أو الإغتناء عنه ، إيفالاً في أبحاث جذرية ، إلا منذ عهد جديد حديث وفي الفترة التي أكتب فيها بالذات ، إذ لم تعد المسألة إعتقاداً مناهج مجاوبة ، بمقدار ما غدت مسألة إعادة إستنباط لتلك المناهج ، أو قل لمسألة إبتكارات أصيلة »<sup>(21)</sup> .

ويمكن اعتبار وجهة نظر ( جاك بيرك ) وجهة غربية استشراقية ، ذهب

( 20 ) أديب منصور ، السابق ، ص 140 .

( 21 ) جاك بيرك ، العرب والعلوم الاجتماعية في مائة عام / بالفكر العربي في مائة سنة / ط .

الجامعة الأمريكية / بيروت / 1967 / ص 153 .

فيها (غرونباوم)، مذاهب أبعد من (ج. بيرك) مما أثار عليهما ردوداً إيديولوجية، لعرب أمثال (ع. العروي) و(ع. الخطيبي) ولعل تجربة (ج. بيرك) الطويلة، في معرفة العالم العربي جعلته يدرك قيمة الوسطاء الثقافيين، في قراءة التراث العربي، على ضوء الثقافة الغربية، وهو تحديث لاقى الكثير من الإقبال، لبيداغوجية، حققت مردودها على مستويات متعددة، إذا استطاعت تحقيق زواج بين الأدبي والفكري، عند (جاك بيرك)، الذي يعتبر المبادرة إنتصاراً للعقلانية الغربية، عند هؤلاء: «لما قام في العقد الرابع أدباء أمثال طه حسين وأحمد أمين وحسين هيكل وتوفيق الحكيم وكتبوا عن النبي وأصحابه وحاولوا أن يقرنوا الثقافة بتعاليم العصر الجديدة، لكن هؤلاء كانوا ينتمون إلى عصرية هي أشد إحاطة بمناهج الغرب وأوفى تزوداً بوسائل التحليل وأبعد من عصرية المصلحين الدينيين إيفالاً في منحى التاريخ والعقلانية»<sup>(22)</sup> ونفس (ج. بيرك) هو الذي يعتبر أثر الثقافة الفرنسية، على العرب المحدثين بمثابة الهلينة عند الكلاسيكيين.

والخلاصة هي أن الحداثة العربية، ما كان لها أن تحقق أثرها، لولا مرورها بقناة القدرة الغربية، وهي قناة سحرية تمنح جواز العصرية للمتوردين عليها، دون مراعاة لقدرة الذات، في تحقيق نهضة متأخرة، كما لو كان إدراك فعلهم بمثابة إستجابة طبيعية لجدلية التطور التي لا يلعب فيها الغرب سوى دور الحافز والإشارات الضوئية، التي هي بمثابة قانون الكليات الإنسانية. وكان من الممكن لو كانت الظروف السوسيو-ثقافية - التاريخية، غيرها، في الاتصال القسري بفرنسا، وإنجلترا، لتحقق مع علائق أخرى بشعوب آسيوية أو غيرها. لأن الحداثة، ليست وقفاً على الغرب في كل تطور اجتماعي ثقافي.

ويذكرنا (ج. بيرك) بالنواة الأولى للأفكار الغربية، والتي كانت عبارة عن بذرة جامعية استطاعت تكوين هذه النخبة الثقافية، التي تدبّن بحمولتها الثقافية - حتى لا نقول بذكائها - إلى غرب منحها جواز عبور، نحو جنة

(22) حاك بيرك، السابق، ص 155.

الشوق . هذه الجمهورية الثقافية ، التي تمتلك اليوم سلطة رمزية ، تعادل سلطة السياسي ، إن لم تتفوق عليها . ويذكرنا ( جاك بيرك ) ، بهذه المؤسسات التي تقوم وراء تاريخ الأفكار العربية الحديثة : « إن جامعتي بيروت الأمريكية واليسوعية ، والمدرسة الفرنسية للحقوق في القاهرة ، وجامعة مدينة الجزائر ، ومعهد الدراسات المغربية العليا ، قد عملت على إختلاف أساليبها ، عملاً مقبولاً في هذا السبيل . لكن المسؤولية الرئيسية تقع أكثر فأكثر على كاهل الجامعات الأهلية »<sup>(23)</sup> .

فقبل ظهور الجامعات الأهلية أو القومية ، كانت الريادة للفرنسيين والأمريكيين ، في زرع هذه القلوب ، التي تكاد تكون إصطناعية ، وهي هدايا مشروطة بثاقفة قسرية ، كانت فيها ما يطلق عليها : اللغات الحية ، الوسيلة الوحيدة ، للتواصل ، بينما كان على اللغة القومية ، أن تنتظر زمناً طويلاً حتى تهب رياح الترجمة والصحافة والتعريب ، بشيء من هذه الفاكهة المحرمة ، التي وصف طه حسين ، وتوفيق الحكيم ، في « الأيام » و« عصافير من الشرق » ، على التوالي ، بعضاً من أشواطها ، للحد الذي جعل من أطروحة الشرق والغرب أسطورة أنوثة وذكورة ، يستحيل بدون أحدهما تحقيق إنجاب طبيعي وشرعي ، يستجيب لهواجس قارئ يقيس جدة وحدانية الأعمال بمدى إرتباط أعلامها بجنة الشوق الغربية .

من ثم ، أصبحت الدعوى السائدة ، هي أن الكلام عن الأدب لا بد أن يبدأ من حيث ينتهي فيه مع التاريخ ، وأي تاريخ ؟ هل هو تاريخ الفكر ؟ الأفكار ؟ العلاقات ؟ أم هو تاريخ الغرب في الشرق ؟ ورغم صياغة المعادلات التبسيطية لتاريخ الأدب الحديث ، إلا أن هذا التاريخ يظل من أعسر المعادلات التي صيغت في غياب عمل جماعي يضمن منطق الحدود ، والمعطيات والنتائج ، التي إنتهت إليها ، لأن إختزال الأدب الحديث إلى « أخذ من الغرب » و« إقتباس مشوه » ، هو إختزال يخدم أطروحات مسبقة ، وأحكام لم تستطع التخلص من مظاهر هذا الأدب إلى البحث في ديناميته ،

( 23 ) جاك بيرك ، السابق ، ص 161



وهكذا يبدأ الكلام عن الأدب حيث ينتهي الكلام عن التاريخ ، عد أغلب مؤرخي الأدب الحديث ، فأنطوان غطاس كرم ، يلاحظ أن : « ثمة فئة . . . لم تتخرج من الأخذ من آداب الغرب ، على أعراقها الديني ، وإكبارها للتراث العربي واحتشادها المتقد للشرق وحفاظها على جدول قيمه ، غير أن آداب الغرب ، لم تبلغ هذه الفئة إلا مداورة عن طريق الصحافة المتعجلة فالأقتباس المشوه ، وعزلها عن كنوز الغرب وجهلها للغات .

فتلقت منه لمعاً جانبية عارضة ، وتوقفت عند سطوحه ، وإمتنع عليها السبر والاستفادة ، فجنت منه ما أصابها إتفاقاً وماجاور مسائل أحوالها الشرقية وأحلامها ، ومثلها وبعض المبادئ العامة من قضايا الإنسان الاجتماعية والقومية والأخلاقية ، ولأن قديمها المتصلب بعض اللين فأعرضت عن النائق البديعي المفرط وطوعت العبارة ، تسوقها على إرسال مشرق قريب المثال ووقع لها من مقتبساتها عدد من اللمع المجتلية المستفادة ، وانتهاك فنون أدبية لم تعرف لها نظيراً في موروئها المحافظ »<sup>(24)</sup> .

والوضعية التي يتعرض إليها أنطوان غطاس كرم ، هذا ، هي وضعية تكاد تكون غير طبيعية ، بالنسبة لولادة ، كان يفترض فيها ، إمتلاك حس ذاتي ، يتجاوب واللحظة التاريخية ، إلا أن إقتصار أنطوان غطاس كرم ، على تعميم النموذج اللبناني ، على مجموع العالم العربي ، أسقطه في نفس ما سفظ فيه محمد يوسف نجم ، حين كان يعمم النموذج المصري ، على هذا المجموع ، لإفتقاد الرؤية العضوية وغياب المناهج ونوعية النصوص والأحداث والظواهر ، التي يقوم عليها إعادة إنتاجهم للتاريخ الأدبي الحديث ، بطريقة يغيب فيها الـ « كيف » والـ « لماذا » والـ « هدف » ، أي غياب الأسئلة الجوهرية ، التي تكون صلب هذا الأدب ، الذي أصبح مقولاً في الأذهان ، بشكل يستدعي فيه الغرب حتماً ، في كل إنتاج ، من إنتاجاته مهما كانت إبداعيته وهويته ، وهو فوق كل هذا ، لا يعتبر غريباً بمعنى

---

( 24 ) أنطوان غطاس كرم ، في الأدب العربي الحديث ، / بالفكر العربي في مائة سنة / ط : الجامعة الأمريكية / بيروت / 1967 / ص 187 .

الكلمة ، كما أنه مزاجية بين نوع من الكلاسيكية ، ونوع من التقليد العربي ، وهذا المزيج هو ما يطلق عليه الأدب الحديث . ويجد بذلك أنطوان غطاس كرم :

« إن الأدب الحديث لم يتباعد تباعداً بيناً عن أنماطه الكلاسيكية ، في نتاج هذه الطبقة العريضة الملحة بتسرع ببعض مظاهر الآداب الغربية الدخيلة ، ولكنها قامت إلى جانبها نخبة مثقفة أول ، حملت أساليبها أيضاً من خارج التراث العربي ، وتستمد من المبادئ الفكرية الغربية أصولاً لمجابهة قضايا الشرق واقعية ، فيسري إلى الأدب الحديث عدد من التيارات الفكرية التي شاعت في أوروبا في النصف الثاني من القرن 19 ، وينداح اللقاح في جميع المرافق وجميع وسائل التعبير حتى أصبحت الأفكار المجتلبة والأساليب قدراً مشتركاً بين الأدباء على مختلف نزعاتهم »<sup>(25)</sup> .

إقرن إذن الأدب الحديث بمرجعية قارة ، في ذهن القراء والمؤرخين والنقاد ، على السواء فهل هذا يعني أن مجموعة من الأجيال ظلت تخوض في ماء عكر ، لا هو شرقي ولا هو غربي ، وهل المشكلة مجرد مشكل هوية وتسمية .

لماذا لم يرق المؤرخ الأدبي بإخضاع الموضوعات والأشكال والأساليب للدراسة وفحص المعجم اللغوي وتحديد حقل الاقتباسات وحالات الإبداع الاستثنائية ؟ .

فهل هي إذن مجرد إساءة نية في أدب خرج عن قواعد الثوابت ، وأعلن العصيان ، بتحولاته ومزاجه الذي لا يعرف الاستقرار . ومع كل هذا ، فمن الصعب في عصر يتغير بسرعة وتتوالد فيه التيارات والموضوعات والطلائعيات الفلسفية والسياسية ، من الصعب إنكار إنجراف الأدب مع هذه الموجات وليس فقط إنحرافه ، بل ضرورة مسايرة ومواكبة الحياة الجديدة ، ومع كل ما قام به الأدب الحديث في هذا الإتجاه ، فهو مقصر لم

( 25 ) أنطوان غطاس كرم ، السابق ، ص 194 .

يستطع الإلام بكل ما يحصيه أنطوان غطاس كرم من تيارات اخترقت جسد هذا الأدب الحديث لتترك فوقه علامات وشم ، هي التي يحاول أنطوان غطاس كرم ، القيام بجردها ، على ظهر هذا الجسد الشقي متسائلاً :

« أو يحق للباحث أن يرسم خطأً بياناً آخر ، تتحدث به مسيرة النزعة العلمانية الآخذة بتعاليم التيار الإيماني ، والواقعي ، تستغل فيه الموارد الإشتراكية من عهد ( سان سيمون ) والآخذين أخذه ، وتنتقل منها إلى شكلها الماركسي الأخير »<sup>(26)</sup> .

ويحاول جميل صليبا ، من جهته ، تشخيص الاتجاهات التي إخرقت جسد الأدب الحديث من خلال بعض أعلامه في فترة خاصة من تاريخ هذا الجسد الذي تعاقب عليه : « الاتجاه المادي الظاهر في فلسفة شبلي شميل / الاتجاه العقلي البارز في فلسفة محمد عبده ويوسف كرم / الاتجاه الروحي ، البادي في وجدانية العقاد وجوانية عثمان أمين / الاتجاه التكاملي في آراء يوسف مراد / الاتجاه الوجودي في آراء عبد الرحمن بدوي / الاتجاه الشخصي في كتب حبشي والحباي . . . »<sup>(27)</sup> .

ورغم عمق الإحساس بالاتجاهات وتفويجها ضمن المادي / العقلي / الروحي / التكاملي / الوجودي / الشخصي ، فلا شيء يطلعننا على كيفية تقبلها أو رفض نجاحها وإخفاقها ، ونعلم جيداً مدى إخفاق الشخصية الذريع ، على جميع المستويات الإبداعية والفلسفية ، ومدى محدودية الوجودية في ترجماتها وبعض مقولاتها الظرفية .

ومن العسير تحديد المساحة التي احتلها كل اتجاه ، وهل كان إتجاهاً تاماً بالفعل أو مجرد هلوسات إتجاهات ، ونفس الشيء يقال عن لا معقول توفيق الحكيم ، فيما بعد . فهل تعدى بالفعل مسرحية « يا طالع الشجرة » إلى غيرها أم ظل حبيس نزوة موضوعية عابرة .

( 26 ) أنطوان غطاس كرم ، السابق ، ص 195 .

( 27 ) جميل صليبا ، الفكر الفلسفي في الثقافة العربية المعاصرة / بالفكر العربي في مائة سنة / ط : الجامعة الأمريكية / بيروت / 1967 / ص 590 .

والنظرة إلى الظاهرة من هذه الزاوية ، تدفع إلى إعادة - النظر في كثير من المقولات الجاهزة ، والأحكام المتوارثة ، التي تعفي أصحابها من أدنى تحليل للظواهر الأدبية

والحق أن أنطوان غطاس كرم ، يصيب في الخلاصة ، التي نخرج بها عن الصراع الوجودي ، لهذا الأدب ، إذ : « إنبرى الأدب في قلب هذا الصراع الوجودي ، والتصادم الحضاري ، يستمد غذاءه ، من القضايا الفكرية الخالصة ، وما إجتمع منها على الأخص ، في حقل الدين ، والدولة ، والأخلاق ، والاجتماع ، وما أنطوت عليه مشتركة أو منعزلة من مقومات الإصلاح والتعطش إلى مواكبة الحياة ، في بيان العلل التي مني بها الشرق ، وإيضاح السبل التي ينبغي أن تسلك لتحقيق رقيه ، وإقالته من عثاره »<sup>(28)</sup> .

من هنا ، فإن أي أدب كيفما كانت هويته ، مطالب بأن يبحث عن كينونته ، متردداً في الوصول إليها عبر استيعابية ونظرية فلسفية ، تتكون لديه عن الفضاء والإنسان والعالم .

فالمسكوت عنه ، إذن في تاريخ الأفكار ، والأدب العربيين ، هو هذه الخلفيات الانطولوجية في النشؤ غير-الطبيعي ، بل والتطور المزدوج في الأدب الحديث ، الذي لم يستطع بعد إقناع مزاويله وقارئيه ، بشرعيته ، خلال أجيال متعاقبة بمفاهيم ومصطلحاته ونظرياته ، من هنا ، فلا غرابة أن يربط أنيس مقدسي ، كل إنفتاح لكيثونة هذا الأدب بالعالم الخارجي ، وهو شرط لا يعتبر نهائياً ، ولا الوحيد ، بل هو مكمل من مكملات حداثة هذا الأدب الحديث . والمهم في نظرة أنيس مقدسي ، هو هذه الأدبية التي ترى في الغرب المرجع الأساسي للنهضة ، العربية : « وأن نظرة واحدة على حياتنا الأدبية والعلمية كافية لأن تريك أن معظم القائمين بالنهضة الحديثة هم من ذوي الإلمام باللغات الأجنبية ، أو من الذين أتيح لهم التوسع العلمي ، في المعاهد الغربية »<sup>(29)</sup> . وكيفما كان فساد رؤية أنيس المقدسي ، فهي مؤشر على تكوّن بعض القناعات عند بعض مؤرخي الأدب الحديث .

( 28 ) أنطوان غطاس كرم ، السابق ، ص 209 .

( 29 ) أنيس المقدسي ، التيارات الأدبية في العالم العربي . ط : 1952 / ص 152

### 3 - مكونات تاريخ الأدب العربي الحديث

لتحديد حقل معالجتنا لتاريخ الأدب العربي الحديث ، سنقتصر على جوانب الثقافة ، ولن نتعدها إلا لما يخدم السياق العام ، الذي طرحنا فيه موضوع التيارات الأدبية ، بحكم أن التاريخ الأدبي العربي ، لم يلتزم بالحدود الوطنية للأدب الذي يتعرض إليه ، بل تعداه إلى وطنيات متعددة من جهة ، وإلى تبني مراحل استشرافية من جهة ثانية ، وبذلك فهو يوضع نفسه بين تاريخ الأدب والأدب العام ، وهذا بالضبط ما جعلنا ندججه بطريقة خاصة ، في التيارات الأدبية ، لتكيفه مع مفاهيم تاريخ الأدب في وطنيات أجنبية . ليست هي أحدث ما أبدع ، إلا أنها تربطه بالتاريخ الأدبي الوضعي ، أي بمفهوم مارس سلطة رمزية على الأدب الأوروبي لفترة طويلة .

ومن هذا المنظور ، نلاحظ كيف يزعم جرجي زيدان ، في مقدمة كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ( 1911 ) ، بأنه أول من استعمل عنوان « تاريخ الأدب » في العالم العربي ، وليست قضية الأسبقية هي التي تستوقفنا ، خلال قراءتنا لجرجي زيدان ، بل أبعاد هذه الأولوية ، التي تعلم على جهل بالدرس العربي ، في تلك الفترة ، لتقليد يهتم بالتسمية .

وتجدر الإشارة ، إلى أن « تاريخ آداب اللغة العربية » صدر أصلاً في شكل مقالات نصف شهرية ، نشرت تباعاً في الهلال ، منذ يناير 1894 ، حتى أبريل 1895 ، لتجمع فيما بعد ، على شكل كتاب من أربعة أجزاء ، قدم له جرجي زيدان ، معيداً إلى الأذهان ريادته ، وهي ريادة - ربما - محليّة ، لأن ولادة « تاريخ الأدب العربي الحديث » تعود إلى ممارسة المستشرقين ، الذين لم يتورع جرجي زيدان عن استلهاهم معالجتهم ، مقتبساً

عنهم عنوان حلقات مقالاته .

والإشارة إلى الغرب واردة عنده كما عند حنفي ناصف ، الذي يسجل كيف . . « وضع كثير من علماء الأفرنج للأدب في لغاتهم تواريخ مخصوصة ، أفردوها بالتأليف وبعضهم أفرد لأدب اللغة العربية تاريخاً خاصاً ، ولكن جاءنا ليفصح على حسن ترتيبه ودقة تبويبه قاصداً عن الغاية بعيداً عن الكفاية . . . فعلياً نحن أن نحدو حذوهم ونأتي بما فيه المنفع . . . وصاحب البيت أدري بالذي فيه . . وهذا العلم لم يغفله علماء العرب بالمرة ، كما يتوهم بعض الناس بل ذكروه مبعثراً في كتبهم المطولة . . . قال بعض العلماء أن أصول الفن وأركانه أربعة دواوين ، هي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين ، للجاحظ ، وكتاب النوادر ، لأبي علي القالي البغدادي . . . وأقول يجب أن يزداد كتاب الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب العقد الفريد ، لابن عبد ربه »<sup>(30)</sup> . وهذا لا يعني أن المادة كانت غائبة ، في الحقب العربية الكلاسيكية ، فيما يطلق عليه كتب الطبقات والتراجم وغيرهما ، من التسميات ، بل كان التعرف على المادة في مناهج مقارباتها الجديدة : هو الغالب على توجيهه مما يحاول جرجي زيدان إستحضاره ، مقتنياً « آثار المستشرقين ، في توجيه درس تاريخ الأدب ، أمثال ، جوزيف هامربرجستال<sup>(31)</sup> في إنتاجه لسنة 1850 ، حيث عُدَّ رائداً للإستشراق العربي ولحققت به أعمال ألفرد فون كيرمر<sup>(32)</sup> سنة 1877 ، والإنجليزي إربنت<sup>(33)</sup> سنة 1890 . وكذا إدوارد فان ديك<sup>(34)</sup> وفيليد كونستانتان وأخيراً ، الألماني بروكلمان<sup>(35)</sup> سنة 1898 ، أما جرجي زيدان ،

---

( 30 ) حنفي ناصف ، تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية ، ت : 3 ، القاهرة ، 1973 ، ص 5/4 .

( 31 ) جوزيف هامربرجستال .

( 32 ) فون كيرمر

( 33 ) إربنت

( 34 ) فان ديك .

( 35 ) بروكلمان .

فإن تمكنه من اللغات الأجنبية ، سمح له بالتمرس بالمناهج الاستشراقية المستثمرة ، في هذا المجال ، مع أن جرجي زيدان نفسه يتنكر لهذه الأطروحة ، ففي مقدمة كتابه يرى أنه :

« لم يكن تاريخ آداب اللغات معروفاً عند الأوروبيين قبل النهضة الأخيرة . وولادة هذا الدرس دفعهم إلى التأليف في المادة ماهرين كل واحدة من لغاتهم الأصلية بكتاب أو أكثر ومن ثم ، فإن المستشرقين بدورهم خاضوا في دراسة اللغة العربية معودين إياها على هذا الدرس بفضل الكتب الكثيرة التي ألفها حول تاريخ آداب اللغة العربية »<sup>(36)</sup> .

وينطلق جرجي زيدان ، من روح التجديد هذه ليقترح دراسة تاريخ الأدب العربي، من منظور المقاربات الجديدة ، مستثمراً في ذلك مجموعة من المناهج الاستشراقية ، التي لم تكن أجد المناهج الغربية ، بوعي كامل ، ولا يظهر أن جرجي زيدان ، يعلن قطيعة نهائية مع طرق القدماء ، ولم يكن وحيداً في ذلك ، بل خاض في ذلك إلى جانب حسن توفيق العدل ، الذي : « كان يدرس تاريخ آداب اللغة العربية ، على طريقة المستشرقين ، في السنوات الأخيرة من القرن 19 ، وكان العدل ، قبل ذلك يدرس العربية بجامعة برلين ، لأكثر من خمس سنوات ، أتقن خلالها اللغة الألمانية ، وتعلمذ عليه كثير من المستشرقين الألمان ، وتعرف عن قرب على أساليبهم في التدريس والكتابة والتأليف ، بحيث تولى تعليم آداب اللغة العربية ، بدار العلوم وأثر أن يسير في تدريسها على هذا النهج الجديد ، بدلاً من أن يتابع المنهج التقليدي ، الذي كان حسن المرصفي ، وحمزة فتح الله ، قد أرسيا قواعده من قبله ، وقد ألف الأستاذ العدل لهذا الغرض كتاباً ، بعنوان تاريخ آداب اللغة العربية ، طبع عدة مرات ، كان آخرها سنة 1906 »<sup>(37)</sup> .

ولا تهمننا قضية السبق بين المعاصرين ( جرجي زيدان ) بل ما يهمننا هو

( 36 ) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ط : الهلال ، القاهرة ، 1911 ، ص 8/3 .

( 37 ) هدي السكوت ، اعلام الادب المعاصر في مصر ، ط : الجامعة الأمريكية ، القاهرة ،

1975 ، ص 19 .

الأدب العربي ، مركزين في الوقوف عليه على مراجعه الغربية ، التي يذيل بها كتابه ويصنفها إلى عربية / فرنسية / إنجليزية / ألمانية ، وهي تتراوح جميعها في تاريخ صدورهما بين 1856 و1902 ، وهي تاريخات أدبية تحمل جميعها آثار التيار الوضعي الذي كان يكون الخلفية الفكرية لأغلب التيارات الفكرية في أوروبا ، فمن غير المستبعد إذن أن يتسرب هذا التيار الوضعي إلى معالجة النصوص الأدبية العربية ، وهو شيء سنأكد باللموس عند المتأخرين ، وخاصة شوقي ضيف وطه حسين ، وغيرهما من المتعرضين إلى تقديم طرق التاريخ الأدبي عند برونتيروتين ولانسون .

يتبين إذن أن ما كان يتناوله جرجي زيدان بطريقة خجولة ، سيصبح عند الأجيال اللاحقة مفاتيح أساسية يستحيل بدونها مقارنة النصوص الأدبية العربية ، لحد أننا نصادف عند أغلب المؤرخين العرب مقدمات طويلة للوضع التاريخية التي فتح بابها جرجي زيدان سنة 1911 من خلال إحالاته على المراجع الثانية :

## 1 - الكتب العربية

إكتفاء القنوع لإدوارد فان ديك « مصر » 1897

## 2 - الكتب الفرنسية

loliée, Hist. des littératures comparées des origines au XXe siècles,

Paris, 1900

Deltour, Hist. de la littérature grecque, Paris, 1896

Bouchot, Précis de la littérature ancienne, Paris, 1874

Perrens, Hist. de la littérature, italienne, Paris, 1867

Baret, Hist. de la littérature espagnole, Paris, 1863

Jusserand, Hist. abr. de la littérature anglaise, Paris 1896



تواجد أفكار تجديدية ، حتى وإن كان الواحد لا يشير إلى الآخر . فهي تسير بخطى حثيثة ، في ترسيخ تقليد تاريخ الأدب ، الذي كان يروج له حسن المرصفي ، وحمزة فتح الله ، وحنفي ناصف ، الذين درسوا المادة ودرسوها ، ولم ير النور منها ، سوى محاضرات حنفي ناصف - تلك التي ألفها ما بين 1909 و 1910 - سنة 1973 أي بعقود متأخرة إذ يدعو حنفي ناصف في إحداها إلى (محاكاة الإفرنج) - حسب تعبيره ، زاعماً أن قاطني الدار - التاريخ الأدبي - يعرفون ما تحويه ، أكثر من المترددين عليها من الزوار - مشيراً بذلك إلى المستشرقين .

ويقدم السباعي بيومي شهادة قيمة حول تاريخ الأدب بين هؤلاء الرواد :

« وبعد فمما تقدم في تدوين الأدب ، نعرف النواحي التي مست منه تاريخ الأدب في تلكم العصور ، على أنه كما قلنا آنفاً لم يستكمل ناحية التاريخ الأدبي إلا في عصرنا الحديث ، ولكن على شيء من النقص البادي في كتاب - المواهب الفتحة - للشيخ حمزة فتح الله ، وعلى شيء من الكمال المقبول في كتاب - تاريخ أدب اللغة العربية - للأستاذ حسن توفيق ، الذي عبد الطريق بحق فلسكه من بعده السالكون أمثال العلامة جرجي زيدان في كتابه - تاريخ أدب اللغة العربية - والأستاذ ابن أحمد الاسكندري ومصطفى عناني ، في كتابهما - الوسيط - . ومن بعد هذين سار الكثير من المؤلفين كصادق السرافعي وحسن الزيات ، ومحمد هاشم ومحمود مصطفى ، وكاتب هذه السطور « السباعي بيومي »<sup>(39)</sup> .

وقد اخترنا هنا الوقوف عند جرجي زيدان كأب تاريخي لتاريخ

( 38 ) حنفي ناصف ، تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية (محاضرات من 1909 إلى 1910 ) ، القاهرة ، 1973 ، ص 1.

( 39 ) السباعي بيومي تاريخ الأدب العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط 2 القاهرة ، 1959 ص

Duval, La littérature syriacque, Paris, 1900

Seignobos, Hist. de la civilisation, 3 vol. Paris, 1905

Sédillot, Hist. gen. des arabes, leur civil., oct. Paris, 1877

Huart, Littérature arabe, Paris, 1902

Dozy, Recherches sur l'histoire et littérature de l'Espagne, 2 Vol.  
Paris, 1881

Brunetière, Hist. de la littérature française, Paris, 1900

Le Bon, la civilisation des arabes, Paris, 1884

### ( 3 ) - الكتب الإنكليزية

Browne, A literary Hist. of Persia 2 Vol. London, 1900

Margoliouth, Mohammed and the rise of Islam, London, 1905

Boer, The Hist. Of philos. in Islam, London 1903

Scott, Hist. of moorish empire in Europe 3 Vol. New York, 1904

Nicholson, A literary Hist. of the Arabs, London, 1907

Frazer, A literary hist. of India, London, 1898

### ( 4 ) - الكتب الألمانية

Hammer - Purgstall, litteraturgeschichte der Araber bis zum ende  
des 12 Jahrhundert der Hidschret, 7 Vol. Vienna, 1856

Wustenfeld, Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke,  
Göthingen 1882

Goldzihr, Muhammedanische Studien, Halle, 1890

Diercks, Die Araber im Mittelalter und ihre Einfluss auf die Cultur

Europa's, Leipzig, 1882

Schak, Poesie und Kunst der Araber in Spanien, Stuttgart, 1877

Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 Vol.

Weimar, 1902

ويلاحظ أن إرهابات جرجي زيدان أصبحت واقعاً متأخراً في الثمانينات ، فاعتماده على أكثر من عشرة مستشرقين في الببليوغرافيا التي يقدمها لتاريخ الأدب العربي تأكيد آخر على ظهور درس تاريخ الأدب عند المستشرقين قبل أن يظهر عند جرجي زيدان ومعاصريه . بل إن مقابلة شوقي ضيف بين بروكلمان وجرجي زيدان تبرز كيفية اعتبار كل منهما عند هذا المؤرخ الحديث :

« ولعل أهم من أرخوا لأدبنا بالمعنى الأول بروكلمان في كتابه « تاريخ الأدب العربي » ونسج على منواله جرجي زيدان في كتابه المسمى بتاريخ آداب اللغة العربية . ونراهما يعرضان لتاريخ الحياة الأدبية والعقلية عند العرب في نشأتها وتطورها مع الترجمة للفلاسفة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب من كل نوع . ومن غير شك يتقدم بروكلمان جرجي زيدان في هذا الصدد بسبب المادة الغنية التي يحتويها كتابه ، فقد أحصى إحصاء دقيقاً أدباء العرب وعلماءهم وفلاسفتهم مع ذكر آثارهم المطبوعة والمخطوطة وما كتب عنهم قديماً وحديثاً ، مبيناً مناهجهم ومكانتهم في الفن أو العلم الذي حذقوه ، مع نبذة عن كل فن وعلم ومدى ما حدث له من تطور ورقي » (40) .

وعمل بروكلمان رغم طابعه التاريخ أدبي فهو ينحو إلى الموسوعية التي يتطلبها تاريخ الأفكار ، وهذه ظاهرة تفرد بها بروكلمان عن غيره من المستشرقين الذي كانوا يغلبون التاريخ السياسي والحضاري على باقي العناصر التي يتطرقون إليها .

---

(40) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر ، 1960 ، ص 11 .

ونحن نجد هذا النزوع عند سيديو وهيارت ودوزي ومارجوليوت ونيكلسون وهامر برجستال وفوستنفلد وكولدزير وبروكلمان ، الذين يعتبرون مصدراً هاماً لجرجي زيدان ومعاصريه ، إذ يعترف السباعي بيومي :

« ولم يزل تاريخ الأدب على تلك الحال من النقص في بعض وجوهه ، وانتشاره على غير شخصية قائمة في بطون الكتب ، إلى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده ، وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعهها ، حتى أوصلوه إلى صورة متميزة قائمة ، فإذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب ، وكان لهم في ذلك طريقان ، إما دراسته موضوعاً موضوعاً يتنقلون بكل موضوع من عصر إلى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل ، وإما دراسته عصراً عصراً يتناولون في كل عصر موضوعات الأدب واحداً واحداً كما هي الحال في التاريخ السياسي العام وهذا هو المتبع والكثير »<sup>(41)</sup> .

أما المرحلة الثانية التي يتخلص فيها المؤرخ العربي من بعض تقاليد المستشرقين فهو يستعير عنها بالوضعيين ، الذين سطع نجمهم في فرنسا أمثال سانت بوف وتين وبرونتيير . وقد كان شوقي ضيف على رأس هذه الدعوة لمدة طويلة ، وذلك بتقديمه لهذه الاتجاهات :

« وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية في القرن الماضي على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخي الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بيف ( Sainte Beuve ) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى نتبين ما ينفرد به الأديب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبيننا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء في فصائل وأسر على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه في أنواع وفصائل نباتية

( 41 ) السباعي بيومي ، السابق ، ص 5 .

مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه في طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأديب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين (Taine) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب في كل أمة وهي الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحول تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعي ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبرياً ملزماً ، فلكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هي مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التي تطبع الأدياء بطابعها الدقيقة .

ولاحظ مؤرخو الأدب ونقاده أنه تجاهل شخصيات الأدياء وفرديتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان لكل أديب صورة مطابقة للأدياء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع ثبت عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التي تجعل منه أديباً بعبينه ، له مقوماته .

وبجانب هذين المنهجين في دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونيير (Briunetiere) الذي فتن بمذهب داروين المعروف في التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقائها ، وكان (سبنسر) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هي : المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، فتنبع كلاً في نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات . وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور<sup>(42)</sup> .

ولا يقف شوقي ضيف عند مجرد تقديم المناهج الجديدة بل يقوم بتوصية لتطبيقها في شكل تركيب ، سيطلق عليه فيما بعد المنهج التكاملي وهو

(42) شوقي ضيف ، السابق ، ص 12 .

في الحقيقة خليط يخضع للمحاولة أكثر منه منهجاً متكاملأ .

« وسنحاول أن نؤرخ في أجزاء هذا الكتاب للأدب العربي بمعناه الخاص مفيد من هذه المناهج المختلفة في دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزماني والمكاني الذي نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التي فسح لها سانت بيف في دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبي »<sup>(43)</sup> .

وبما أن شوقي ضيف كان يتحدث من موقع أكاديمي وتعليمي ، فإننا نصادفه يسير على هديه ، ولا يتعداه إلا لكي يلحق باللائسونية عند طه حسين ومحمد مندور بشكل خجول .

وقد حاول شكري فيصل دراسة مناهج تاريخ الأدب العربي ففصل في إنتماءات المؤرخين ، دون أن يوضع هذه المناهج في إطار منطق الأحداث والظواهر الأدبية .

كما خص محمد الكتاني - بعد رسالته الضخمة عن صراع القدماء والمحدثين - مناهج تاريخ الأدب العربي سنة 1978 ليذكرنا بالتاريخ كعمرفة دائرية يقوم فيها الماضي بتفسير الحاضر لا تفسير الحاضر للماضي ، معتمداً في ذلك على شبه - منطق ديكارتي يتدرج من البسيط إلى المركب لا كما عند ديكارت - أي عقلانية معينة - بل عند أوغست كونت - أي تأكيد استمرارية الوضعية في تاريخ الأدب ، كما كان عليه الشأن .

فمحمد الكتاني في ( نظرات في مناهج التاريخ ) - ( 1978 ) يعتقد أن : « التاريخ منهج في المعرفة الإنسانية يقوم على استرداد الماضي الإنساني في نسق معين يفسر به مجرى الأبحاث التي وقعت وكأنها تجري في إنجاء معين ، وبفعل قوانين ثابتة . . . »

. . . وتظهر هذه الأهمية فيما قام به المفكرون والمؤرخون من محاولات

( 43 ) شوقي ضيف ، السابق ، ص 13 .

تجعل الماضي تفسيراً للحاضر ومنطلقاً للتنبؤ بالمستقبل أو فيما قاموا به من محاولات لتنظيم المعرفة الإنسانية نفسها من خلال التراكم التاريخي لحصيلة الإنسان في شتى معارفه وتجاربه . فأوغست كونت عندما عرض في كتابه ( في الفلسفة الوضعية ) لكل العلوم إبتداء من الرياضيات حتى علم الاجتماع عرض لكل تعلم من تلك العلوم عرضاً تاريخياً ، فبين محتويات العلم على نسق تسلسلي حسب توالي اكتشافاته في الزمان التاريخي ، بعضها يتلو البعض على أساس أن هناك تسلسلاً تاريخياً ومنطقياً في نفس الوقت ، يتقدم العلم وتيرته ، من البساطة إلى التركيب ومن الوحدة إلى التنوع ومن التخصص إلى التعميم <sup>(44)</sup> .

ولا يكشف عرض محمد الكتاني عن تناقض ظاهر ، خاصة وأنه يتبنى وجهة فلسفية - علمية ، تضمن - في نظره - حداً أدنى من الإنسجام للمنهج ، وهي غاية كل مؤرخ أدبي .

والخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذه التجريبية التي لم تنته بعدما ينيف عن القرن والنصف ، هو أن تعامل مؤرخ الأدب العربي يتميز بنوع من الآلية في تطبيق المناهج الغربية ، كما أن تقديسها بهذه الطريقة يجعله خاضعاً للنصوص ، لا إلى نتائج تحاليله . بالإضافة إلى كل هذا فالمؤرخ الأدبي لا تتكامل أعماله مع أعمال سابقيه ولأحققيه ، بل يكون كل تجريب وحدة مستقلة عن باقي الوحدات التي تكررهما وتعيد إنتاجها وأخطاءها .

### المراحلية الأدبية :

أثيرت جدالات عديدة حول مفهومي « المراحلية » ( La periodisation ) و « البليوغرافيا » و « البيو - بليوغرافيا » المنهجية ، لذا سنعتمد على استعراضها كنماذج ، التفت فيها التاريخ الأدبي العربي نحو الخارج مساهماً بذلك في انفتاح منهجي للدرس على عوالم من الممارسات النسقية .

---

44 ( محمد الكتاني ، نظرات في مناهج التاريخ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة محمد بن عبد الله . 1978 ، ص 14 / 15 .

إن المرحلة بمعناها الكامل هي جزء معزول وقابل للتوزيع بدون تحديد كظاهرة دائرية . وعند هذا الحد نساءل هل توجد بالفعل مراحل بالتاريخ الأدبي كما تظهر بالتاريخ ، إن أصل الظاهرة الأدبية ليس في إعطاء خصوصية لمستوى الكتابة والقراءة وإذ كنا نستعمل كلمة مرحلة بالنسبة للظاهرة الأدبية ، فعلينا أن نقوم بذلك في معناها الراسع والأقرب إلى الأنطولوجيا منه إلى التسجيلية . إذ المرحلة هي مجموع موزع على استمرارية تاريخية حيث يجمد الزمن . وتجد المراحلية نفسها مضطرة إلى القيام بمسودة ، يظهر على أنها تبعد كل مفهوم جذلي للمستقبل التاريخي ، إن جعل الماضي سلسلة من الوجوه ، التي يحدد كل منها بتاريخين وتسمية ، ليخضع للوهلة الأولى إلى خطوة لا تخضع للمنهج العلمي .

وتعتبر المراحلية نفسها ، وبشكلها البريء مكاناً لاستثمار إيديولوجي كثيف : إذ لا يمكن أن تختار المفاهيم الضرورية للقيام بالتقسيمات داخل التاريخ ، إلا في حدود فلسفية للتاريخ وتحديد للأدب : وهذه الفلسفة وهذا التحديد هما إيديولوجيان في جوهرهما . . .

ليس من المدهش أن نرى التاريخ الأدبي منذ مدة يتكون كتاريخ باستعماله تقسيماً مرحلياً ، هذا التقسيم المعقلن ، طبقاً لأهداف نظام الأيديولوجية الوضعية كثيراً ما ينقصه التنظير ، أي أنه غير منسجم مع موضوعه . . .

ولا يمكن أن يدفع إلى التفكير بالتاريخ إلا ما يمس الحدث الأدبي ، وليس أدباً ما يسميه جنيت بوظائف الأدب : « الإنتاج ، الاستهلاك ، التواصل » .

ولا تعدل فترة : درجة أو مرحلة نحو شكل أكثر كمالاً أو تمرساً بالنوع ، إنها تنتج ممارستها الخاصة بها ، ولهذا السبب على كل تقسيم مرحلي أن يتأسس بالضرورة على نمطية تدفع إلى تطوير كل نمط ، ونجد في تتابع المراحل أنفسنا بالتالي أمام تتابع وظيفي ، والمرور من وظيفة نحو أخرى تتم عن طريق تحطيم وإعادة بناء الأساليب والمنظورات الحياتية .



وتتخطى المراحل المفااهيم الكلاسيكية لـ « الطبقة » و « البلاط » إلى تقسيم للعصور الأدبية ، اعتماداً في ذلك على مقاييس سياسية في البداية ، خضعة بذلك الأدبي إلى السياسي ، مما جعل هذا التقسيم رسمياً في الكتب التعليمية الأدبية ، ولا نريد أن نتناوله في ذاته ، بل من خلال جنيته الفكرة عند المستشرقين ، لعل أهم أعمال هؤلاء ما قام به الألماني كارل بروكلمان في كتاب (تاريخ الأدب العربي) وإن كان أول من قام بمحاولة التاريخ للأدب العربي هو يوسف هامر بورجستال النمساوي الأصل حوالي سنة 1850 ثم تبعه نمساوي آخر هو الفريدفون كيرمر سنة 1877 ( بتاريخ لعمران المشرق في عصر الخلفاء ) ليلحق بهما الإنجليزي اربنت سنة 1890 بكتاب حول ( التاريخ والأدب العربي ) ثم ظهر بمصر بعد هذا كتاب ( تاريخ العرب وآدابهم ) من تأليف : ادوارد فاندريك وفيليدس قسطنطين من طبع بولاق سنة 1892 .

بعد كل هذه المحاولات تأتي أول طبعت بروكلمان سنة 1898 وأهم هذه التواريخ الأدبية ، مقسماً العصور الأدبية العربية كالتالي :

## 1 - الأدب العربي إلى ظهور الدين

أ - محمد ( . . . ) وعصره

ب - عصر الدولة الأموية .

## 2 - الأدب الإسلامي باللغة العربية

أ - عصر إزدهار الأدب . . . 750 - 1000

ب - عصر الإزدهار المتأخر للأدب 1000 - 1258

ج - عصر الأدب العربي منذ سيادة المغول حتى 1517

د - عصر الأدب العربي من 1517 حتى أواسط ق 19

هـ - الأدب العربي الحديث .

كما اعتمد كارلو نلينو<sup>(45)</sup> الذي درّس في الجامعة المصرية هذا التقسيم

---

( 45 ) كارلو نلينو ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، 1915 ، ص 29 .

التاريخي ، ويظهر أنه نال إعجاب طه حسين ، الذي عده قدوة ، على العرب لإحتذاءها . ويقسم المستشرق الإيطالي إذن العصور الأدبية العربية إلى ست مراحل هي :

أ - المرحلة الجاهلية ، وهي مرحلة عربية خالصة بلغتها وأدبها ونشاطها .  
 ب - المرحلة العربية الإسلامية ، وتمتد منذ ظهور الإسلام إلى إنتشار الأمويين 750 .

ج - المرحلة العباسية الأولى ، وتمتد منذ سقوط الدولة الأموية إلى العباسيين 1058 .

ح - المرحلة العباسية الثانية ، وتمتد من 1058 إلى 1258 .

خ - مرحلة الإنحطاط ، وتمتد من سقوط العباسيين إلى ظهور محمد علي في مصر .

د - النهضة الأخيرة ، منذ بداية حكم محمد علي سنة 1805 إلى أيامنا .

ويمكن أن نقول بإجماع أغلب اللاحقين على كارلو نيلينو - أي بعد 1915 - على نهج نفس فكرة التقسيم السياسي ، مع تعديلات بالزيادة أو النقص ، وبتسميات تتراوح بين المرحلة والعصر والدولة . . . إلخ .

وتكاد لا تمس جوهر التقسيم السياسي للعصور ، ويكفي للتأكيد على ذلك إلقاء نظرة على مجموع الأعمال المنجزة في هذا الحقل لتكوين فكرة عن هذه السلسلة التي ربطت تفكير المستشرقين في مرحلة أولية ثم تفكير الأكاديميين في مرحلة ثانية .

وفي المرحلة الأولية نجد عمل نيكلسون (1923) وجيب سنة 1926 وكليمان هيارت (Clement Huart) سنة 1939 وعبد الجليل سنة 1943 وبلاشير سنة 1952 وشارل بيلا سنة 1952 .

ونلاحظ عند جيب نزوعاً إلى تغليف العصور السياسية بصفات طغت على العصر كالتالي :

1 - العصر البطولي ( 500 - 622 )

2 - عصر الغزو ( 622 - 750 )

3) - العصر الذهبي ( 750 - 1055 ) ويضم أربع مراحل :

أ - ( 750 - 813 )

ب - ( 813 - 847 )

ج - ( 847 - 943 )

د - ( 943 - 1055 )

4) - العصر الفضي ( 1055 - 1258 )

5) - العصر المملوكي ( 1285 - 1800 )<sup>(46)</sup> .

وقد لاقت هذه التقسيمات ببساطتها ترويحاً غريباً ، إذ قام أغلب المؤرخين الأدبيين باعتماد العصر السياسي قبل أن ينتقد فيها بعد ، ولكن بعد أن ترسخ كتقليد على مستوى مدارس التعليم الرسمية والتأليفات المتعددة التي خاض فيها نوريك العدل والاسكندري وحمزة فتح الله وجرجي زيدان وغيرهم .

واتثر من هذا ، فشح هذا التقسيم السياسي الباب واسعاً على النحصر الأكاديمي في أدب الجاهليين أو الأمويين أو العباسيين . . . إلخ . فتوفيق العدل : يبرر تقسيمه في أن « تاريخ أدب اللغة نابع في تقسيمه للتاريخ السياسي والديني في كل آن لأن الأحوال السياسية أو الدينية تكون في العادة عامة ( . . . ) وعلى هذا رأياً أن نقسم الكلام على تاريخ أدب اللغة العربية إلى خمسة عصور :

1 - عصر الجاهلية

2 - عصر إبتداء الإسلام

3 - عصر الدولة الأموية

4 - عصر الدولة العباسية والأندلس

5 - عصر الدولة المتتابعة إلى هذا العهد<sup>(47)</sup> .

46) H.A.R. Gibb, Arabic Literature, London 1926, p. 4 ( 46 )

47) توفيق العدل : تاريخ أدب اللغة العربية ، ص 18 .

أما الإسكندر فيقول في ( الوسيط ) :

« لما كان تاريخ لغة أي أمة وأدها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التي تقع بين ظهراني هذه الأمة ناسب أن نقسم تاريخ أدب اللغة العربية خمسة أعصر :

- 1 - عصر الجاهلية ( 150 سنة )
- 2 - عصر صدر الإسلام ويشمل بني أمية ( ينتهي 132 )
- 3 - عصر بني العباس ( ينتهي 656 )
- 4 - عصر الدول المتتابعة التركية ( ينتهي 1220 )
- 5 - عصر النهضة الأخيرة <sup>(48)</sup> .

ويوضع طه حسين ظاهرة المراحل السياسية في تاريخ الأدب العربي داخل إطار تاريخ الأدب العام ، فهي ليست ظاهرة خاصة بالعرب بل تنقسمها آداب أخرى ، وهى يكفي هذا التقاسم لمنح الشرعية لهذا الاختيار ؟ .

ورغم تبرير هشاشة السياسي ليقوم مقياساً للأدبي ، فإن أي تخلي عنه لا يعني إلتقاءه في أية ممارسة أدبية ، لذلك ، رغم طرح القضية ، فإن طه حسين يقف عند حدود الإحتياط :

« وإنما الإحتياط محتوم في هذا ، فقد يكون الرقي السياسي مصدر الرقي الأدبي ، وقد يكون الإنحطاط السياسي مصدر الرقي الأدبي أيضاً . والقرن الرابع الهجري دليل واضح على أن الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسية في كثير من الأحيان ، فيرقى الأدب على حساب السياسة المنحطة . ليس من المعقول إذا انقسمت دولة ضخمة كالدولة العربية ، ونجم في أطرافها الملوك والأمراء والثائرون ، أن يقع بين هؤلاء التنافس ، وأن ينشأ من هذا التنافس تشجيع الشعراء والكتّاب والعلماء ، وأن ينشأ من هذا التشجيع جد وكد ، ثم توفيق إلى الإجابة وظفر بها ؟

---

( 48 ) الإسكندر ، تاريخ الآداب العربية ، ص 10 .

هذا هو الذي كان إبان القرن الرابع الإسلامي . وكان شيء مثله إبان النهضة الحديثة في إيطاليا نشأ من تنافس المدن الإيطالية . وكان شيء مثله في بلاد اليونان إبان القوة اليونانية في القرن الخامس نشأ من تنافس المدن اليونانية في بلاد اليونان الحقيقية من جهة وفي المستعمرات اليونانية الإيطالية من جهة أخرى . ومع ذلك فقد يكون الرقي السياسي سبيلاً إلى الرقي الأدبي . فليس من شك في أن السياسة العربية كانت قوية عزيزة أيام الرشيد والمأمون . وكانت الحياة الأدبية كذلك راقية مزهرة . وكان سلطان أغسطس قوياً شديداً البأس ، فأثر ذلك في الأدب اللاتيني . وكان سلطان لويس الرابع عشر قوياً وكان قصره مترفاً ، فأثر ذلك في رقي الأدب الفرنسي إبان القرن السابع عشر .

فأنت ترى أن الحياة السياسية لا تصلح مطلقاً لأن تكون مقياساً للحياة الأدبية ، وإنما السياسة كغيرها من المؤثرات ، كالحياة الاجتماعية . كالعلم ، كالفلسفة ، تبعث النشاط في الأدب حيناً وتضطره إلى الجمود حيناً آخر . فلا ينبغي أن يتخذ واحداً من هذه الأشياء مقياساً للحياة الأدبية ، كما لا ينبغي أن يتخذ الأدب نفسه مقياساً لواحد من هذه الأشياء ، إنما ينبغي أن يدرس الأدب لنفسه وفي نفسه من حيث هو ظاهرة مستقلة يمكن أن تؤخذ من حيث هي وتحدد لها عصورها الأدبية الخالصة . فهذا أحد الأمرين اللذين يبغيضاننا في هذه الطريق الرسمية<sup>(49)</sup> .

كما لاقت ظاهرة التقسيم السياسي صداها عند مارون عبود ، الذي يمنحها تفسيراً آخر ، يجعلها صالحة للغرب وغير صالحة للعرب معتمداً في ذلك على تبريرات - ربما واهية - ولكنها تكشف عن ما أثارته الظاهرة من نقاشات :

« فالمقياس السياسي كما رأى طه حسين - وهو ينظر إلى الأدب الغربي - لا يصح مقياساً للأدب السلطاني العتيق ، أما في الأدب الغربي

( 49 ) طه حسين ، من تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت 1970 ، ص 39 /

فيصح . ثم في الأدب العربي دواع غير دواعي الأدب الغربي . الأديب الأجنبي عول أخيراً على الشعب في ما كتب ، أما الأديب العربي فما زال يعول على الحاكم الذي يمدّه بماله وعطاياه وإكرامه <sup>(50)</sup> .

وباستثناء أمين الخولي الذي يسعى إلى التمييز داخل ما يطلق عليه نظرية التقسيم الإقليمي - وشكري فيصل - في إدعاء الريادة الجمالية الأدبية - وشوقي ضيف - بمنهج التكامل - نظل معالجات الدرس التاريخي للأدب حبيسة رؤية خارجية وتوفيقات محلية تتراوح بين الفني والإقليمي والثقافي الجنسي والسياسي ، وكلها عناصر لا تخلو من أصالة وجذور مثاقفة ما .

ويلخص محمد الكتاني في مقاله حافظ ظهور كتاب شكري فيصل حول مناهج التاريخ الأدبي عند العرب بمحاولة خلخلة سلطة التقسيم السياسي ، حيث :

« كان الباحث إذن على البحث في مناهج الدراسة الأدبية فقر أو عقم التاريخ الأدبي المبني على أساس تقسيمه إلى عصور بحسب التقسيم السياسي ، ولهذا أخذ يبحث عن مناهج جديدة تخرج الدراسة الأدبية من إطارها التقليدي . وقد استعرض في كتابه بتفصيل المناهج التي أتبع في ذلك الوقت في بعض دراسات المحدثين أمثال جرجي زيدان وطه حسين وأحمد أمين والعقاد وشوقي ضيف وأمين الخولي ، وأرجعها إلى ستة مناهج ، وهو يقصد بالمنهج النظرية العامة التي يتجه الباحث في ضوءها أثناء تحليله وتفسيره للظاهرة الأدبية التي يعالجها . وهذه المناهج هي التاريخ في ضوء النظرية السياسية ، التي تعتمد التقسيم السياسي للعصور الأدبية ويسمونها النظرية المدرسية لشيوعها ، والتاريخ للأدب حسب الفنون الأدبية ، والتاريخ في ضوء نظرية الجنس . والتاريخ الأدبي في ضوء النظرية الثقافية والتاريخ في ضوء المذاهب الفنية . ثم التاريخ في ضوء النزعة الإقليمية <sup>(51)</sup> .

( 50 ) مارون عبود ، أدب العرب ، دار الثقافة ، بيروت 1960 ، ص 45 .

( 51 ) محمد الكتاني ، السابق ص 18 .

ومع التقسيم العام الذي قام به شكري فيصل ومحمد الكتاني وغيرهما فقد أغفلت محاولة حنا الفاخوري الفريدة والتي تميزت عن كل ما أنجز في العالم العربي بمراحلية لم نر شبيهاً لها في كل التقاسيم التي مرت بنا غربية كانت أم شرقية . ذلك أن حنا الفاخوري عمد إلى تقسيم بحسب ثلاث نهضات ، خارقاً بذلك معهود المتداول والمروج والنمطي ، لأن كل نهضة تسمح بتوسيع مجال فكرة المرحلة إلى نهضة . والحق أن هذه الأخيرة هي أهم مرجع لتداخل الاختصاصات التي على المرحلة أن تتموضع داخلها . وللأسف فإن هذا التقسيم لم يثر إشارة الباحثين عن الأدب الضالج . ويقدم حنا الفاخوري هذه المراحل تحت عنوان ومقدمة توضيحية كالتالي :

### « تطور الأدب العربي وأطواره التاريخية : »

اتبع الأدب العربي سنة الحياة ، فتطور متقلباً مع التاريخ من حال إلى حال ؛ وكان التطور عادة وليد احتكاك العرب بعضهم ببعض ، أو احتكاكهم بغيرهم من الشعوب والحضارات والثقافات ، فكان الاحتكاك يولد عادة نهضة أدبية ذات نزعة خاصة ، وأهم هذه النهضات ثلاث :

1 - النهضة الجاهلية والأموية : هي النهضة الأولى التي سجلها التاريخ وقد استحكمت في الجاهلية سنة 532م . ثم زاد استحكامها بعد ظهور القرآن . وكانت تلك النهضة ثمرة اختلاط عرب الشمال بعرب الجنوب ، واحتكاك العرب بعضهم ببعض في الأسواق والمجمعات العمومية ، واحتكاك العرب بسائر الأمم المجاورة بواسطة التجارة ، والفتوحات الرومانية ، والدعابات السياسية الفارسية والرومية ، وغير ذلك . ثم ظهر القرآن فزاد تلك النهضة استحكاماً بما قدم لأربابها من ضروب البلاغة وبما فتح الإسلام لعرب الجزيرة من آفاق بواسطة الفتوحات .

٢ - النهضة العباسية : هي النهضة الثانية التي قامت على احتكاك العرب واختلاطهم بالفرس والروم والهنود والاسبان وغيرهم ،

وعلى امتزاج الثقافات والمذاهب ، ولا سيما بواسطة الترجمة التي نقلت إلى العرب فلسفة اليونان وعلومهم وتاريخ الفرس وحضارتهم ونظمهم ، وحكمة الهنود وأساليهم ، فكان من كل ذلك للعقول تنقيف ، وللمدارك بسيع ، وللتصور ترقيق ؛ وإذا العقل والعلم يصبحان أساساً لكل شيء ، وإذا كل عناصر الأدب تكتسب عمقا وجدة .

( ٣ ) - النهضة الحديثة : هي النهضة الأخيرة ، وقد جرت باحتكاك الشرق بالغرب ولا سيما منذ أواخر القرن الثامن عشر . فكان من ثمارها أن اتسعت آفاق تاريخ الأدب <sup>(52)</sup> .

### منهجية منهج تاريخ الأدب العربي :

يقتضي أي تطرق لمنهج تاريخ الأدب العربي طرح المنهج الذي سنتبعه ، خاصة وأن العملية تفرض ما يسميه ( أنطوان كومبانون ) باليد الثانية ، التي تتركز أساساً على نصوص أدبية أكثر ما كان يقال عنها إنها إبداعية ، أو إنشائية ، وفي حين أن الوصف يقتصر بما يسمى حالياً باليد الثانية التي تعالج ما خطته اليد الأولى ( الإبداعية ) والباحثة في إنشاء محاكاة الطبيعة والإنسان والرؤى وإذا كانت اليد الثانية حسب الإطلاق ، هي أساساً استشهادية تبريرية وتصنيفية ، فإن الأولى تمتلك علاقات بالأدب بينها الثانية تنهل من معين العلوم الإنسانية .

من هنا فالمنهجية كما نتصورها لا يمكن أن تكون أدبية محضة بالرغم من نزوعها للأدبية كهدف أولي واعتمادها على أدوات العلوم الإنسانية اللسانية منها خاصة . فهي إذن إبداعية بنفس الدرجة التي عليها النص الأساسي ، لأن هذا المفهوم التقليدي في الفصل ما بين الإبداعي والوصفي لا يعتمد على قاعدة الثوابت ، بل على المتحركات ، وإلا فكيف نفرق بين دواعي الإلهام والخواطر عند كاتب أول وكاتب ثان ، ما دامنا ينشئان معاً الأول في خضوعه

( 52 ) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ط 2 ، المطبعة البولسية ، بيروت 1953 ، ص 4 .



نوع من العفوية الذاتية ، والثاني لموضوعية تواجد الذات مع ذوات أخرى ، الرؤية مع رؤى أخرى والكون كوحدة وقاسم مشترك . وبالرغم من كل النزوعات التي تتحكم في المنهجية ، فستكون مقارنات البنى التكوينية هي المحور الأساسي المعتمد في هذه المقاربة ، لما لاحظناه من بحث لدى مؤرخي الأدب العربي عن المراحل النموذج والأنواع النموذج ، والتصنيفات النموذج . وسيعتبر هذا النموذج هو المركز الأساسي في تحليلنا لتصوراته المختلفة من الكتابة المدرسية إلى الأكاديمية ، والعمومية . وعندما نطرح إشكالية ( مناهج تاريخ الأدب العربي ) ، فنحن نواجه هنا أربعة حدود :

- ( 1 ) - المنهج كتصور
- ( 2 ) - التاريخ كاستمرارية
- ( 3 ) - الأدب كمادة
- ( 4 ) - العربي كخصوصية .

وقبل أن نتصل بتصور العرب للمنهج لا بد أن نستعرض بعض التصورات التي روجت لها العلوم الإنسانية واللسانية خاصة .

إذ يتموضع المنهج داخل العلوم الإنسانية - وبالضبط الفلسفة والمنطق - التي ما فتىء الأدب يستعين بهما كروافد لإخصاب مادته التخيلية ، تلبية لنزوع داخلي في الاستقلال كعلم للأدب ، بهدف تحقيق جمالية معينة ، أو هو نشاط مضاعف بدوره : فهو يشير من جهة إلى الوظائف والوسائل المعطاة إليه ، ومن جهة أخرى يمثل النظام العام لكل الوظائف .

1 - ومن هنا يبحث الخطاب الفلسفي عن مكانته داخل هذا المجموع ، الذي يبقى خارجياً بالرغم من ذلك ، وبعيداً عن رسم إطاره العام . ويرز السؤال التالي : لماذا هذا الإمتاز بالنسبة للخطاب الفلسفي الذي يجمع حوله كل الأحاديث الأخرى ( بما فيها الأدبي ) .

2 - نستخلص من هذه الأسئلة الموضوع الثاني والمتمثل في حدود المعرفة وبالضبط المعرفة العلمية ، وتظهر هذه الحدود في مجموعة من التعرضات - الكلاسيكية مثل العلم والحكمة والتعرف والتفكير والفهم والتعريف .

3- لا يوجد علم عام ، ولكن توجد أنظمة معرفية خاصة تتطور حسب ممارسات العلماء ، وبهذا يوجد التخيل العلمي عند الفلاسفة كعنصر يتكون إنطلاقاً من أنظمتهم .

4- تنمي الفلسفة تلقائياً وعلى أرضها نظرية معرفة وفلسفة علم ما ، على أن موضعها هو وضع وسائل المعرفة العلمية وتمييز الموضوعات التي تنطبق عليها ، وتحديد القابلية في هدف أول يشار إليه كبحث عن معرفة وضعية ( عن أي شيء يتحدث العالم ؟ وكيف يتحدث ؟ ) وهدف ثان يتجاوز حدود هذه الأسئلة جاعلاً من التطبيق العلمي موضوع أحكام وتقييم ( ما هي الحقيقة العلمية ؟ ما هي شروطها ؟ في أي حدود يمكننا الحديث عن الحقيقة العلمية ؟ ) .

1- إذا اعتبرنا أن المنهج أحد وسائل إكتشاف تصاحب العمل الأدبي منذ تكونه وعبر مراحل الزمنية وتشعباته النوعية ، فلماذا يربع هذا المنهج ذاك الأديب الذي يوظفه من أجل القيام بمهمة المؤرخ الأدبي ؟ .

إن الإشكالية لمن الصعوبة بمكان ، ذلك أن المؤرخ الأدبي يجد نفسه أمام إلزام بقبول قواعد اللعبة العلمية في ممارسة المغامرة الأدبية التي تتطلب تنازعا خفياً بين الموضوعي والذاتي وبين المعرفي والوجودي وبين الذوق والقاعدة .

2- يقول لانسون :

« فالرجل الذي يصف ما يشعر به عندما يقرأ كتاباً مكتفياً بتقرير الأثر الذي تخلفه تلك القراءة في نفسه ، يقدم بلا ريب للتاريخ الأدبي وثيقة قيمة نحن ، في حاجة ماسة إلى أمثالها مهما كثرت . ولكن مثل هذا الناقد قلما يمسك عن أن يزوج بأحكام تاريخية خلال وصفه لأثر الكتاب في نفسه أو أن يتخذ من ذلك الأثر وصفاً لحقيقة الكتاب الذي يقرأه .

وكما ينذر أن يجيء النقد التأثري خالصاً ، كذلك ينذر أن يجى كلية . فهو يتنكر في ثياب التاريخ والقضايا المنطقية ، وهو يوجي بمذاهب عامة تتخطى المعرفة الدقيقة بل وتتلفها ، وإن كان من أهم وظائف المنهج

أن يطارد هذا النقد التأثري»<sup>(53)</sup> .

وتتحد عوالم السلب والإيجاب في عملية إلتقاء التاريخي بالأدبي في :

السلب :

١ - الإيحاء بمذاهب عامة تتجاوز المعرفة .

٢ - طغيان التاريخي على الأدبي .

الإيجاب :

١ - الوثائقي والأدبي وقيمتها .

٢ - أثر القراءة كلغة تواصل .

وهذا السلب والإيجاب بالضبط هو ما يحدو بلانسون إلى الاعتراف بتناقضنا في تعريف الأدب دون أن نحسب له حساباً في المنهج . ويغيب عن لانسون بأن تحديد المشاكل التاريخية لا كموضوع دراسة محضة أو كإطار شكلي لعلم الأدب هو ما يكون النمط الحركي للأغاط التي تنظم المعطى الأدبي ، لأن مصطلح التاريخ « الأدبي » مبهم لأنه يسجل بطريقة ضمنية علاقة مزدوجة للأدب بالتاريخ .

ويضيف لانسون :

« . . إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي هي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا لكي ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته فإننا نكون أكثر تمسكاً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية في دراستنا والدور الذي تلعبه فيها »<sup>(54)</sup> .

ويبقى الشق الذاتي في تنازعه مع الموضوع محقاً في تشبهه بمبدأ الذاتية ويبقى هذا الافتراض مقبولاً شريطة ( عدم الخلط بين المعرفة والإحساس حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة » .

( 53 ) لانسون وترجمة كتابه حول تاريخ الأدب ، أنظر ملحق محمد مندور في كتابه : « في النقد

المنهجي عند العرب » ، 1954 .

( 54 ) لانسون ، السابق .

لقد كان نقد علوم الطبيعة خلال القرن التاسع عشر سبباً في استخدام مناهجها في التاريخ الأدبي غير ما مرة ، وذلك أملاً في إكسابه ثبات المعرفة العلمية ولكن التجربة قد حكمت بإخفاق تلك المحاولات . وإذا كان لا بد من تعداد سليات العنصر العلمي والمعرفي في الأدب كما تعرضنا لبعض سليات العنصر الذاتي للتذوق ، فإن الإيجابيات للعنصر الموضوعي هي في إيجاد منحى نفسي نواجه به الطبيعة ، هذا هو ما نستطيع أن نأخذه من العلماء فننقل إلينا النزوع إلى استطلاع المعرفة والأمانة العقلية .

عندما نفتتح النقاش حول تاريخ الأدب فنحن نثير بذلك إشكالية التاريخ العام بنفس الحدة التي يطرح بها تاريخ الأدب ، لأن تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة ، إلا أنه لا يجب أن يفهم من هذا على أن التاريخ الأدبي يمثل علماً صغيراً من العلوم المساعدة للتاريخ .

يقول لانسون :

« نحن بلا ريب نتناول كالمؤرخين كمية كبيرة من الوثائق محفوظة ومطبوعة ليست لها قيمة إلا كوثائق ولكنها - كوثائق - نستخدمها للإحاطة بالمؤلفات الأدبية موضوع دراستنا »<sup>(55)</sup> .

ولا يتوقف الأمر عند الوثيقة وحدها ، بل عند حب الاستطلاع الذي تولده القراءة من معرفة بالمؤلف ، ولهذا كانت الصورة الأولى من التاريخ الأدبي في رأي فان تيجم هي الترجمة ( سانت بوف ) ، وإحصاء المؤلفات ( لانسون وبدييه ) .

من هنا فالاهتمام يتناول أصول الكتاب في نطاق المؤلف نفسه أو خارجه ، من دراسة للسابقين ، والينابيع والعوامل المساعدة على الميلاد ، بالإضافة إلى المراحل المتعاقبة على التكوين . واضحاً إياه في موضعه من أنواع الأدب والفن متبعاً للتأثيرات والتأثرات .

كل هذه الاعتبارات المكونة للتاريخ الأدبي ، تساهم في تحديد ميدان

( 55 ) لانسون ، السابق .

التاريخ الأدبي ، لكنها قد تسيء إليه من حيث إنها تجعله بسيطاً جديداً إلى جانب النقد بينه ، وبين الأدب ، إذ إنه يبعدنا عن تذوق عيون الآثار الأدبية بما يضع بيننا وبينها من شروح وتعليقات ، وإن كانت هذه الدعوى ساقطة من أساسها لأن لكل تشكل خصوصيات وحدود تنتهي عندها .

وعند بلوغنا هذه النقطة بالذات نواجه التساؤل التالي :

- هل من الممكن أن نكتب تاريخ أدب ، أي أن نكتب ما سيكون أدباً وتاريخاً معاً ؟ يجيب صاحباً كتاب ( نظرية الأدب ) :

« . . . لنعترف بأن معظم تاريخ الأدب إما تواريخ إجتماعية أو تواريخ للأفكار كما تتوضح في الأدب أو أنها إنطباعات وأحكام على أعمال معينة رتب تقريباً حسب نظام التسلسل الزمني »<sup>(56)</sup> .

فالإشكالية تتعدى المجال الأدبي المحض ، لتعانق مجال العلوم الإنسانية إن مجمل تواريخ الأدب تنهل من تواريخ الحضارات أو المجاميع النقدية ، ومن الصعب الحديث عن تطور للأدب كفن ، هنا يتساءل صاحب كتاب ( نظرية الأدب ) لم لم تقم محاولة ، على نطاق واسع لتقصي تطور الأدب كفن ؟ إلا أنهم يردان الأمر إلى عوائق ثلاثة :

( 1 ) - إن التحليل التحضيري للأعمال الفنية لم يتم بطريقة مطردة ومنهجية .

( 2 ) - إدعاء إستحالة وضع تاريخ للأدب من غير الرجوع إلى تفسير سببي مستقى من فعالية إنسانية أخرى .

( 3 ) - المفهوم السائد حول تطور فن الأدب .

أن دور الآداب المقارنة في هذا المجال لمن الخصوبة بمكان ذلك أن بمقدرته أن يصف إشكالات كل تاريخ قومي على حدة وفي علاقتها بالتواريخ القومية الأخرى سواء على المستوى العام أو فيما يخص جزئيات وتقنيات كل

---

( 56 ) روني ويليك واستن وارين ، نظرية الادب . ت : محي الدين صبحي ، وزارة الإعلام السورية ، دمشق .

## تاريخ أدبي .

وكمثال أول للمشاكل التي تعيشها التواريخ الأدبية مشكلة تقسيم مراحلها بحسب التغييرات السياسية ، لأنه بهذا التوزيع يقبل تصوراً قلياً يتم طبقاً للثورات السياسية والاجتماعية .

ومن هنا فعليه إما أن يصبح تابعاً أو مطابقاً للتقسيم السابق عليه . يقول صاحباً كتاب ( نظرية الأدب ) :

« ينبغي ألا يقنع تاريخ الادب بأن يقبل غلطاً تم التوصل إليه على أساس مواد متعددة ذات أهداف مختلفة في الذهن . ويجب ألا نتصور الأدب على أنه مجرد انعكاس سلبى أو نسخة من التقدم السياسى أو الاجتماعى ، وحتى الفكرى ، للجنس البشرى . وبناء على ذلك فإن المراحل الأدبية يجب أن تقام على معايير أدبية خالصة »<sup>(٦٧)</sup> .

ويضيفان : « لا داعى للاعتراض إذا كان لنتائجنا أن تتطابق مع نتائج التاريخ السياسى والاجتماعى والفنى والفكرى . ولكن يجب أن تكون نقطة إنطلاقنا تقدم الأدب كأدب »<sup>(٦٨)</sup>

فالدعوة واضحة هنا لإيجاد استقلال ذاتى عن المسبقات والخلفيات كيفما كانت روافدها ، على أن لا اعتراض على النتائج التي يمكن أن يحقق فيها الأدب أو تاريخه ذلك الإلتقاء مع المواد والتشعبات الأخرى . المثال الثانى لمشاكل التواريخ الأدبية هو الذي نصادفه ، في تحديد المرحلة الأدبية ، التي نجدها تمتد إلى قرن وقد تمتد إلى قرون ، فما هي المقاييس المعتمدة في ذلك ؟ وأي المعايير الأكثر تقدماً ؟ ومدى أهمية تحديد مرحلة ما ؟ وكيف تضمحل مرحلة وتظهر أخرى ؟ . إن المرحلة ليست في الواقع نموذجاً مثالياً بل هي قطاع زمني تسوده أنواع من الضوابط ، وإن كانت وحدة المرحلة نسبية .

( 57 ) روني ويلك واستن وارين ، نظرية الادب السابق .

( 58 ) روني ويلك واستن وارين ، نظرية الادب السابق

يقول صاحباً ( نظرية الأدب ) :

« سوف تكون كتابة تاريخ مرحلة مشكلة وصف قبل كل شيء :  
فنحن نحتاج إلى أن نميز إندثار العرف في زمن معين فتلك مشكلة  
تاريخية لا يمكن أن نحلها بعبارات عامة إذ يفترض في نموذج من الحلول  
المطروحة بأن في التقدم الأدبي يتم بلوغ مرحلة من الاجتهاد تستدعي  
شرعية جديدة » (59) .

ويضيفان : « فكل تغير في العرف الأدبي إنما يسببه صعود طبقة  
جديدة أو على الأقل فئة من الناس ممن يبتكرون فهم الخاص » (60) .

من خلال المثالين نستطيع إيجاد تصور معين لما يمكن أن تكون عليه  
باقي إشكالات التاريخ الأدبي الذي يتلون بمجموعة من المقاييس المسبقة في  
ذهن المؤرخ الأدبي ، إن خوض العملية التاريخ أدبية لجد دقيقة ومتشعبة ، إذ  
لا يكفي الاعتماد على مقياس المرحلة في التقسيم حتى نسمح لأنفسنا بإدعاء  
النتائج الصائبة كما أنه من غير المؤكد على أن الترجمة ستثير كل غامض بالنسبة  
للمؤلف والمؤلف ، وبإمكاننا هنا أن نلوح بنوع من النسبية في بلوغ  
الأهداف ، كما أنه بالإمكان الإشارة إلى أن المعرفة التي تسود عصر ما هي  
غير تلك التي نقترحها للتاريخ لهذا العصر أو ذاك . إن مصطلح التاريخ  
الأدبي ، مبهم لأنه يسجل بطريقة ضمنية علاقة مزدوجة للأدب بالتاريخ .

ويطرح مشكل المراحل في تاريخ الأدبي على مستويين ، فالمستوى الأول  
هو الأدبي في خصوصيته والذي يتكون كتاريخ مستقل ، والمستوى الثاني هو  
الكامل في التاريخ العام . هذا المستوى الذي يشمل الأول .

ومن المعلوم أن العمل بالمراحل يفترض قبول مفهوم القطيعة مع البنية  
الفوقية التي هي هنا الأدب ، الذي يكون سلسلة تاريخية . وفهم كل لحظة  
من هذه السلسلة عن طريق بنية أكثر اتساعاً وشمولية مقسمة على مستوى

( 59 ) روني ويليك واستن وارين ، نظرية الادب السابق .

( 60 ) روني ويليك واستن وارين ، نظرية الادب السابق .

البنيات السفلى وتنزع هذه العملية إلى بديهية المجاميع النسبية أو بديهية البنيات الدالة التي تقتضي :

أ - التسجيل المتأخر وخلال مدد متفاوتة لأسماء الكتاب / الأعمال / التيارات .

ب - فرز يعتمد القيمة المتأثرة بالكتاب / القراءة / النقد / التاريخ .

ج - هذا الفرز يوزع الإنتاج الأدبي إلى عنصرين : الكتلة المجهولة من الإنتاج الأدبي ثم النخبة الأدبية .

ح - تعليل تاريخ الإبداع أدى إلى القيام بتقسيمات طويلة الزمن : الفترة / القرن / الجيل / ( العصر الوسيط ) / ( النهضة ) / ( الجيل الرومانسي ) .

خ - والكتاب الذين اعتمدوا هذا التقسيم يمثلون ثلاثة اتجاهات : بالنسبة لبعضهم يعد الانتظام في الإبداع الأدبي فخاً ، وهي نتيجة تجريد غير ممكن تجريبياً . والحل الممكن هو في وصف الأحداث الخاصة . وهي وجهة نظر مقبولة عند الجامعيين .

والعكس بالنسبة لآخرين ، إذ يوجد الانتظام ، ويمكن لهذا أن يصير شيئاً مستقلاً عن الواقع ، إذ أن الناس والأعمال والتيارات ليست إلا تجسيدات علينا أن نعرف كيف نكتشفها ، وهو موقف فلسفة التاريخ مطبقاً على ميدان الأدب .

وبالنسبة لآخرين من المحتمل أن يوجد انتظام ، ويعتقدون وجوب الإنطلاق من الأحداث الخاصة .

والمنهجية المستعملة لحد الآن لم تكن سوى منهجية وصفية للأحداث الخاصة . والملاحظة تأتي من الخارج ، وخاصة ما يتعلق بفكرة الأجيال الممارسة من طرف جامعيين في الغالب ولا تنتسب لهذه التيارات .

ويظهر أن شروط التجديد هي تلك التي تكمن في :

أ - الشرط الأول : هو مراجعة تطور دراسة المراحل بالعلوم الإنسانية



الأخرى ، مما يسمح بإدراك تأخر التاريخ الأدبي بنصف قرن وربما أكثر بالنسبة للديموغرافية والاقتصاد واللسانيات .

ب - الشرط الثاني : إذ علينا أن نصنع بالمراحلية في التاريخ الأدبي ما قام به سيمياند ( Simiand ) في المراحل الاقتصادية ، كما أوضح ذلك منذ أربعين سنة فالإحصاء هو المنهج الصالح لاستخلاص الأحداث الاجتماعية .

- الببليوغرافيا والببليوغرافيا الأدبية العربية .

من الطبيعي أن يهتم درس تاريخ الأدب بالببليوغرافيا والببليوغرافيا لضرورتها الملحة في كل مقارنة أدبية<sup>(61)</sup> .

ورغم إن المؤرخين الكلاسيكيين ، لم يكن لديهم نفس الإنشغالات الحالية ، إلا أنهم خلفوا لنا تصانيف كالفهرس لابن النديم والفهرسة لابن

---

( 61 ) نعطي هنا قائمة تمثيلية لا حصرية بالأعمال التي تناولت المنهجية من منظور أدبي بحسب صدورها التاريخي .

أ ( حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي . ط : دار المعارف . مصر . 1943 .

ب ( شكري فيصل ، مناهج الدراسة الأدبية . ط : مكتبة الخانجي . مصر . 1953 .

ج ( أمين الخولي . مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ط : دار المعرفة . مصر . 1961 .

د ( شوقي ضيف . البحث الأدبي طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، ومصادره . ط : دار المعارف . مصر . 1972 .

ر ( أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه . ط : وكالة المطبوعات الكويت . 1973 .

ز ( عبد الرحمن بدوي . مناهج البحث العلمي . ط : وكالة المطبوعات الكويت . 1977 .

ح ( محمد الكتاني . نظرات في مناهج التاريخ الأدبي . مجلة كلية الآداب . فاس ع 1 س 16 . 1978 .

العربية للكتاب . تونس . 1977 .

ر ( أحمد الإدريسي أصول النحو العربي من خلال كتاب الإقترح للسيوطي 1977 .

ز ( أحمد المتوكل . نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني مجلة كلية الآداب . الرباط . 1977 .

ط ( عبدالله بونفور . نظريات ومناهج كبريات المدارس البلاغية . « الزمان المغربي » ع 1 س 1 . 1070 .

خير الدين الإشبيلي وكشف الظنون لحاجي خليفة الذي يضم حوالي ثمانية عشر ألف ( 18.000 ) عنواناً .

والحق أن هذه البليوغرافيات السابقة - على سبيل المثال لا الحصر - تهتم الأدب الكلاسيكي ولا ترتبط مباشرة بمجموعتنا ، إلا أننا نشير إليها بالقبضط للإنتماء المحدثين إليها ، جاعلين منها نقطة الإنطلاق ومرة أخرى يكون رواد هذا المبحث هم رواده في تاريخ الأدب .

« لقد أبان شنورر ( Shuurrer ) وزنكر ( Zenker ) وشوفان ( Chauvin ) وبفانغولير ( Pfammuller ) عن حرصهم الخاص في التعريف بالبليوغرافيا العربية ، قبل أن يتكف التاريخ الأدبي الحديث مع هذه المناهج الجديدة عليه .

وكانت مساهمة « الانسكلوبيديا الإسلامية » رائدة في تقديم موجز عن تطور هذا الدرس ، حيث دونت لأول مرة منشورات العلماء الغربيين والباحثين الإسلاميين من طرف شنورر ، الذي نشر بالطبعة الثانية لـ « الخزائن العربية » ( La Bibliotheca Arabica ) ( 1811 ) تسانيف بحسب الموضوعات المنشورة منذ بداية الأعمال المطبوعة ، إلى سنة 1810 ، مذيلاً إياها بتذييل يحافظ على التسلسل الزمني .

أما زنكر ، فيدعي إعطاء كل عناوين الكتب العربية والفارسية والتركية في « الخزائن الشرقية » ( La Bibliotheca orientalis ) ( ط 1840 / 1846 / 1861 ) منذ اكتشاف المطبعة . ومع هذا فعمله غيب للآمال .

أما شوفان فقد أتم عمل شنورر بطريقة خبيرة ، بإنجاز تكملة ، هي عبارة عن دليل بالكتاب . وقد صدر له إثنا عشر جزءاً لبليوغرافيا عن الأعمال العربية ، أو ذات صلة بها ، تلك التي نشرت بأوروبا المسيحية من 1810 إلى 1885 ، وظهرت ما بين 1892 و 1922 .

أما « البليوغرافيا الشرقية » ( L'Orientalische Bibliographie ) التي بدأت بالصدور سنة 1887 ، فقد زوّدت بمجاميع كافية عن كل المنشورات التي لها علاقة بالقضية الإسلامية ، وكذا بكل شعب الدراسات الشرقية إلى

حدود سنة 1911 .

ويزودنا بفاغولر في « الكتاب التعليمي عن الأدب الإسلامي »  
( Handbuch Der Islamliterature ) ( 1923 ) بمقدمة ودليل هامين  
عن البليوغرافيا الإسلامية ، دون إدعاء كمالها »<sup>(62)</sup> .

كما حاولت الدوريات اللاحقة الإسهام في هذا المجال » وتالت  
البليوغرافيات ، كتلك التي قام بإنجازها جوزيف أسعد داغر - الذي لا  
يخفي تلمذته للمستشرقين والغرب بصفة عامة - إذ يعود فضل توجيهه إلى  
هذا الدرس - كما يشير في مقدمة عمله - إلى أعلام هذا الدرس .

والموضع جوزيف أسعد داغر عمله في إطار شامل للتاريخ العام  
للبيولوجرافيا ، معتقداً أن الأسباب التي دعت إلى وجود الدرس في الآداب  
الأخرى هو ما يستدعي إثارة الإنتباه في الأدب العربي الذي عليه أن يحدو  
حدو باقي الدراسات العلمية ، إذ بدون بليوغرافيا يستحيل إقامة دعائم  
الدراسة الأدبية كيفما كانت مناهجها . لهذا يفسر حماس جوزيف أسعد داغر  
بغياض هذا الدرس في العالم العربي وتطوره وإتساعه بالغرب .

ونلاحظ هنا أن جوزيف أسعد داغر يقوم بنفس الدور الذي سبق لجرجي  
زيدان أن لعبه في تاريخ الأدب العربي ، أي الرّيادة في الدعوة إلى بليوغرافيا  
أدبية تستجيب لحاجيات الدارس . ولغايات إقناعية ، يلجأ جوزيف أسعد  
داغر إلى إقامة مقارنة بين الشرق والغرب أي بين الاهتمام بالوثيقة وإهمالها ،  
حيث تصبح الوثيقة هي الحجر الأساسي في أي تفكير أدبي .

وتتخذ دعوة جوزيف أسعد داغر طابعاً تبشيراً بحدّة لم يتوفر بعد فضول  
التعرف عليها :

« ألقى الغرب على الشرق درساً وعبراً عدة في أمور كثيرة عرفت أهمه  
كيف تستفيد من بعضها على قدر واسع . ومن الأمور التي لا نزال  
معها في درك من الإغفال والإهمال « دور المحفوظات » وقلة عنايتنا بها

---

. Bibliographie in : Encyclopédie de l'Islam. P. 1233 ( 62 )

على الإجمال في هذا الشرق المريب . ومرد ذلك ، على الغالب ، في نظرنا ، إلى عدم احترامنا أفراد أو جماعات المثقفة ، وعدم تقديرنا لها قدرها اللازم . فما بسط العدى إلى العنيفة ، الأسماء إلى المسند التاريخي نظره إلى شيء ، تجلله العاصفة والاحكام ، تحفظه من عوادي الزمن ويعمل على الاستفاده منه علماء ، من الشرق بسط بدوره إلى الوثيقة والمستند الأصليين فعده إلى الدفء لأمته المهمة وفد علاها الإصفار ومشتت عاليها معالم العالم . وإن لم يأتها ، دنها ، دها ، أنها في زاوية من داره أو إدارته عرصه للغبار والأرض والسوس والقيث نعبث بها وتعيث فيها فسادا . فكان من جراء اختلاف هذه المعاني بين تفكير الغربي وتفكير الشرقي وتقديرهما نقديراً متبايناً فيه ، المثقفة التاريخية والمستندات الأصلية ، أن قامت في العرب دور عديده للمحفوظات على اختلاف حجمها وهيأتها وعصودها ، لا تقل عناية الدولة والأفراد والجماعات بها عن عنايتهم بالمكتبات على شتى مناحيها ، بنها تلتف الشرق في هذا المضمار إذ لم يعن بالوثيقة وجمعها وحفظها وصيانتها واستثمارها إلا ما ندر . فكانت بعض دور المحفوظات في الشرق اليوم ، شذوذاً وخروجاً على القاعدة العامة المطردة في الغرب ، والشاذ لا قياس عليه <sup>(63)</sup> .

ويكاد يمثل هذا النص مدخلاً ضرورياً لما سيخوض فيه جوزيف أسعد داغر ، لعقود طويلة ، استطاع من خلالها إنجاز العديد من الببليوغرافيات فقد يكون بجوزيف أسعد داغر يقين حلال دراسته بباريز عن ضرورة الببليوغرافيا التي ساعده فيه تعيينه محافظاً للخزانة الوطنية ببيروت ، مما جعله يتحدث من موقع وظيفي ، يتوزع بين فن وعلم الببليوغرافيا من جهة ، وإحصاء إنتاج المطابع من جهة ثانية . إلا أنه يغلب نزوعاته الشخصية في الاحتفاء بالببليوغرافيا الأدبية فقط . فباستثناء تقديمه للدرس عند الغربيين ، إنحصرت أغلب انتاجاته الأدبية على مجرد

( 63 ) جوزيف أسعد داغر ، المصادر العربية ، ص 122 .

مطبوعات العالم العربي ، وبذلك انقسم إنشغال جوزيف أسعد داغر على تخصيص المرحلة الأولى من نشاطه للتعريف بالدرس الببليوغرافي ، بينما أنصبت المرحلة الثانية على إعداد أعمال بإنتاجات أدبية عربية . ولقد تميزت المرحلة الأولى - وهي ريادية - بالترويج للدرس الغربي ، من منطلق إثارة الفضول نحو أهمية « ما قبل - النص » التي أثارته تخصصاً يلتقي بـ « ما بعد - النص » ، وهما مرحلتين أساسيتين في معاينة النص .

وهذا ما دفع جوزيف أسعد داغر إلى الإفاضة في تقديم رواد الدرس الغربيين عبر اهتمامهم بالببليوغرافيا :

« والثابت المقرر ، اليوم ، أن « الببليوغرافيا » فن وعلم بأصول في آن واحد ، يرتكزان على مبادئ ومقومات راهنة لها حدودها ومراميها ومقاييسها وإن اختلفت دقائقها وتفصيلها . ونحن نرى مع المفهرس المشهور « دوف برون » (Duff Brown) في كتابه الذي ظهر في لندن ونـيـورـك معاً ، عام 1906 بعنوان ( Manual of Practical Bibliography ان علم الكتب ، على الإطلاق هو السبيل الوحيد إلى العلم ، والمداخل الأول إلى باحثه والموصل القويم إلى محرابه . وقد رأى بعض المغالين من أئمة المفهرسين أن يطلقوا « الببليوغرافيا » من كل قيد ، فجعلوا من أهدافها إحصاء كل ما تنتجه المطابع في العالم من كتب ، وضبط حركة النشر والتعريف بها تعريفاً علمياً بحيث يمكن وصفها وتنسيقها بحسب موضوعات العلوم ومواصفاتها أو بأساء المؤلفين ، ليستفيد منها من يرغب فيها . وقد رأى غيرهم تضيق هذا العلم وحصره ضمن نشاط محدود واقتصره على إعداد فهرس وأدلة بكتب منتقاة مستخارة من طيب المحصول الأدبي إرشاداً للعلماء إلى أوثق المظان وأصدق المراجع وأصح المصادر »<sup>(64)</sup> .

فلا غرابة أن يخوض جوزيف أسعد داغر في جرد اللوائح الطويلة بمؤلفات الدرس عند الفرنسيين والألمانيين والإنجليزيين والإيطاليين في إطار

---

( 64 ) جوزيف أسعد داغر ، السابق ، ص 146 .

الأدب العام وهو عمل يتطلب تفرغاً تاماً وقراءة لمادة موسوعية ، وهذه الأخيرة هي حافظ كل بيبليوغرافي ، إذ بدونها يستحيل تقديم المادة الأدبية كيفما كانت لأن حس المتابعة والملاحقة من بين المميزات التي تلازم التمرس بهذا الدرس الموزع بين الأدبية والعلمية ، بشكل لا يمكن الاستغناء عنه من طرف الأدباء أو العلماء ، إذ لم يعد الآن ميسوراً تقديم بيبليوغرافيا كيفما اتفق بل لا بد لها من التزام مقاييس عالمية في التصنيف الآلف بائي والتيمي والفهمي ... إلخ .

وتظل الإحالة على الغرب هاجساً يلزم جوزيف أسعد داغر ، فهو لا يتوقف عن الإشارة إلى أي عنصر تعريفي بالدرس .

« فقد قام اليوم في الشعوب الغربية : قاصيها ودانيها ، كبيرها وصغيرها ، فقيرها وغنيها ، جمعيات علمية (Sociétés Bibliographiques) تعنى بهذه الناحية الهامة من الثقافة العامة ، فيضع أعضاؤها اللوائح المسيرة والآلة المبسطة ، والفهارس المؤصلة ، تدليلاً بالكتاب وتعريفاً به وتقريباً لمتناوله . فكان هذا المجهود الجاهد ينتظم سلكاً نظيماً من الفهارس العديدة المتنوعة الأغراض المتباينة الأهداف المترامية المناحي تسهر في سبيل إعدادها عيون وتدوب في سبيل وضعها جذوات من الهمم الصادقة . كل ذلك للتفتيش عن مصادر العلم وتهيئة عدته وشحذها لمن يرغب فيها .

فعلم الكتب يمثل في جوهره منفعة الغير وخدمة الغير ، هو يمثل « الغيرية » بأجل معانيها وأرفع مدلولها ، والمفهرس هو ، على ما نرى ، أكبر مثال وأصدق صورة وأروع مظهر للتضامن الإنساني في التعاون الثقافي المشترك .

ولما كان علم الكتب علماً شاقاً يفترض له التدقيق الجمل والإطلاع الواسع ، ولما كان لا سبيل للكثيرين ولا طاقة لهم ليختاروا بأنفسهم ما هم بحاجة إليه من المصادر والمراجع عمد بعض الكبار المفهرسين والطلعة من أمناء المكتبات الإحصائيين إلى وضع فهارس عامة ،

إرشاداً لمن يرغب في مطلب العلم أويبني الإيغال في متاهاته والضرب في مجاهله . وها نحن نعطي فيما يلي أهم معاجم الفهارس العامة التي يصح الركون إليها والأدلة الركينة الموضوعية للتعريف بالأدب العالمية الكبرى : كالفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية ، بعد الذي ذكرناه من فهارس الكتاب العربي ، بين مطبوع ومخطوط ، شرقاً وغرباً ، من طارف وتليد «<sup>(65)</sup> .

ويجب الاعتراف بأن ما قام به جوزيف أسعد داغر يعد الآن متجاوزاً لقيام بيبليوغرافيات متطورة جداً ، بإخضاعها لعقول إلكترونية في التهييب والترتيب ، وكذلك لربطها ببنوك المعلومات في كبريات العواصم ، إذ يكفي إدراج الموضوع المقترح للدرس ، حتى يحصل الباحث الأدبي على ملخص بجميع الكتب التي عالجت الموضوع ، وهي عملية تعني هذا الباحث من تقليب مئات الكتب ، وتوجهه - من خلال الملخصات الدقيقة - إلى أقرب الأعمال إلى موضوعه ، وهي عملية لا تعني من الرجوع إلى الببليوغرافيات الخاصة بالرسائل الجامعية / الإبداع / النقد / تاريخ الأدب / نظرية الأدب / السير . . . إلخ .

من ثم ، جاءت وساطة جوزيف أسعد داغر - التي اعتبرت رائدة في وقتها - لخدمة الباحثين في الشرق :

« قصدنا فيما يلي أن نضع تحت أنظار الباحثين في الشرق أهم الفهارس والأدلة التي يجب الركون إليها للتعرف إجمالاً إلى الإنتاج الفكري في الغرب عامة وإلى مظاهر الإنتاج الأدبي خاصة في كل من دولة الكبرى : فرنسا - انكلترا - ألمانيا - إيطاليا - الولايات المتحدة الأمريكية . أما الأدب الروسي فقد ذكرنا عنه ما فيه كفاية التعريف وذلك في البحث الذي خصصناه به بعنوان : « القصة الروسية وأثرها في الأدب العربي الحديث ، المطبوع سنة 1946 »<sup>(66)</sup> .

( 65 ) جوزيف أسعد داغر ، السابق ، ص 146 .

( 66 ) جوزيف أسعد داغر ، السابق ، ص 148 .

وكان الشغل الشاغل لجوزيف أسعد داغر هو استحداث دليل بليوغرافي أدبي لإسعاف الأدباء العرب على الإحتفاظ بعلائق فعالة مع الفكر والإنتاج الغربيين .

ويعتبر العمل الأساسي لجوزيف أسعد داغر هو « مصادر الدراسة الأدبية » وهو يضم حوالي إثني عشر ألف ( 12.000 ) مصدراً ومرجعاً ، كما يقدم سبعة آلاف وسبع مائة ( 7.700 ) عنواناً ، من بينها سبع مائة وستة وخمسين ( 756 ) بليوغرافيا ، تحتل فيه لبنان مائة وتسع وثمانين ( 189 ) عنواناً ومصر مائة وثلاثين ( 130 ) عنواناً والعراق تسعين ( 90 ) عنواناً وسوريا تسعون ( 90 ) عنواناً .

ويعتبر المؤلف لمشاهير أعلام الأدب الحديث بالمدلول الواسع ، متقيقاً إليها من بين من لمعت أسمائهم ما بين 1800 و 1972 .

وتتألف الدراسة البليوغرافية من ثلاثة عناصر :

أ - المؤلف ويتناول صفاته الأدبية / سماته العلمية / الحياة / الأعمال الكبرى / الخدمات / ملامح مساعدة على التقسيم في الزمان والمكان والمقام .

ب - المؤلفات ، وتعرض إلى وصف الآخر / عنوان الكتاب / الناشر / مكان النشر وتاريخه / عدد الصفحات / تعدد الطبعات / الصور والرسوم / الخرائط والجداول .

ج - المصادر والمراجع ، وتتناول النقود العلمية والتعليق عليها وهكذا تغطي هذه البليوغرافيا 7.700 من الكتب لحوالي 756 من الأدباء العرب ولن نتوقف عند « فهارس المكتبة العربية في الخافقين » لأن استمرارية مشروع المؤلف يتجسد في « معجم المسرحيات العربية والمعرية » ( 1978 ) وهو معجم يضم 3600 عنواناً مسرحياً لأعمال ظهرت ما بين 1948 - 1975 ، وهو بذلك دراسة مستفيضة للمسرح العربي ، حيث يحدد جوزيف أسعد داغر أطوار التكون بقوله :



« إذا كانت المسرحية موضوعاً أصلاً بالعربية ، ذكرنا عنوانها ، ونوهنا بطبيعتها وأوصافها وذكرنا عدد الفصول التي تتألف منها وما فيها من مشاهد ومناظر ومكان نشرها وتاريخه وعدد صفحاتها واسم الناشر فإذا ما مثلت يوماً أشرنا إلى مكان تمثيلها وتاريخه باليوم والشهر والسنة إلى جانب ذكر المسرح والمخرج والموسم وبعض من اشترك بتمثيلها . . . طبعاتها . . . ما تعرضت إليه تأليفاً وتمثيلاً ونشراً ، من نقد أدبي وفني في المجالات العربية .

أما إذا كانت المسرحية معرضة منقولة عن لغة أجنبية ، فقد أثبتنا بعد عنوانها العربي ، عنوانها باللغة الأصلية التي ترجمت عنها كما تتبعنا الترجمات المختلفة التي قام بها مترجمون آخرون »<sup>(67)</sup> .

أما مقدار استفادة الباحثين من إنجاز جوزيف أسعد داغر فيعسر تحديد مداه لقلّة تداوله وندرة طبعاته ، وكان من الممكن أن تلعب البليوغرافيا دوراً يشبه دور المعاجم في تواجدها واستعمالها ، إلا أن سوق الأفكار لا يساير سوق الكتاب . وكان من الممكن للبحث السوسيولوجي أن يحدد مدى استعمال البليوغرافيا الأدبية لو أنجز بطريقة ما داخل الجامعات العربية - على الأقل - إلا أن الإجابة النسبية نجدها على واجهات المكتبات التي تتعامل بشكل محدود مع هذا النوع من الأعمال ، تمثيلاً في ذلك مع خطة النشر والتوزيع .

أما « الدليل البليوغرافي للقيم الثقافية العربية الحديثة »<sup>(68)</sup> وهو دليل أشرفت عليه اليونسكو ، وطبع الجزء الأول منه سنة 1965 ، فهو ثمرة عمل جماعي من إنجاز محمد خلف الله وسهير القلماوي وأحمد الحوفي وأحمد كمال زكي .

---

( 67 ) جوزيف أسعد داغر ، معجم المسرحيات العربية والمصرية ، ط : وزارة الثقافة ، العراق ، 1978 ، ص 5 .

Index bibliographique des valeurs culturelles arabes contemporaines, T. 1, Ed: ( 68 )  
 . UNESCO, 1965

واهتم هذا الجزء بإنتاج القرن التاسع عشر ( 19 ) بهدف تقديم مراجع أساسية تلم بميدان الثقافة العربية ، وهذا الدليل يضم 578 عنواناً لا يخص الأدب إلا في حدود 77 عنواناً أدبياً ، إلا أنه عمل تحليلي نقدي ، وهي خطوة جديدة تتحقق بالنسبة لما قام به جوزيف أسعد داغر .

أما الجزء الثاني فصدر سنة 1973 بإشتراكه مع حسن عون وشكري عياد وماهر حسن فهمي ومحمد خلف الله . وقد استهدف هذا الجزء بالإضافة إلى حافزه الأساسي تلافى هفوات الجزء الأول ، موسعاً اهتمامه ليضم القرن العشرين بما في ذلك الكتاب الأجانب الذين عاشوا في العالم العربي . وكان حظ الأدب بهذا الجزء أقل من السابق بـ 43 صفحة من مجموع 420 صفحة يحتويها الدليل ، إلا أن ميزته في أنه يقدم الكتاب الأدبي بشكل موجز ، ويقوم على اختصار كل 18 صفحة و3 أسطر من كل كتاب إلى سطر واحد ، وبتعبير آخر فالكتاب الذي يضم 367 صفحة مثلاً يتم اختصاره إلى 20 سطراً . وهذا الاقتصاد في التقديم يعفي الباحث من قراءة كاملة للكتاب ، ويعطيه فرصة تكوين فخرة قبل ولوج بحثه .

ولإعطاء فكرة عن نموذج التقديم بهذا الدليل ، نسوق هنا الموجز الذي يقدم كتاب إبراهيم سلامة حول « التيارات الأدبية » وهو موضوع أقرب إلى ما نعالجه في هذه العجالة ، كالتالي :

« إبراهيم سلامة » تيارات أدبية بين الشرق والغرب » . القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ، 1952 . 367 ص . 25 سم .

يعد هذا الكتاب من الدراسات الأولى الجادة في ميدان الأدب المقارن ، ومحاولة لتأصيل مكانته في الدراسات الأدبية العربية . وهو يتناول مكانة الأدب المقارن والعناصر المكونة له من حيث سهولة نقل الأفكار في الآداب وتلاحقها ، والباحث يدرك أن هناك معوقات لتقدم هذا اللون من الدراسة ، منها ذاتية الشعور الأدبي لدى الأديب وقد يكون لدى الأمة في مرحلة من تاريخها موقف الشعور القومي من الآداب الأجنبية ، ولكن على الرغم من ذلك هناك إلتقاء وامتزاج للثقافات ،



البحث عن مصطلح أدبي ، أو يختار في العثور على نوع من المعاجم التي عليه أن يتعامل معها لتحديد فضاء وزمن كاتب ما .

ويدرك المعالجون لهذا الميدان جدته عند القراء والباحثين على السواء .  
فحسين نصار خلال تقديمه لـ «المعجمات العربية» يطرح هذا الإشكال عبر منجزاته :

« فهذا المجال البكر لم تطرقه يد البحث ، فيما أعلم ( وهو يتمثل ) في قائمة في ست صفحات عن بعض المعاجم العربية ضمن مقدمة معجم باربيرا كيساب (Guiseppe Barbera) لسنة 1939 ، وببليوغرافيا أعدها هنري بيريس عام 1960 وتقع في 17 صفحة ، كما توجد سبعة أو ثماني صفحات ضمن ببليوغرافيا عن المعاجم الشرقية أعدها محمد أحمد سنة 1967 عن المعاجم الشرقية . ونشر الصديق بن العربي في اللسان العربي ببليوغرافيا حول « معجم المعاجم المؤلفة خلال مائة عام 1869-1969 (1970) في 24 صفحة »<sup>(70)</sup> .

وتعد هذه المرحلة خجولة الخطى ، إذ لا يخضع العمل الببليوغرافي لمشاريع جماعية أو للجان مختصة ، أو مراكز بحث علمية ، بل هو مجرد مبادرات فردية ، أو أفراد لا يجمعهم نفس الاختصاص .

كما يغلب على أعمال المرحلة الأولى التعميم ، فهي إما ببليوغرافيا للأدب بصفة عامة أو المعاجم المختلفة أو الثقافة العربية . ولكنها لم تتجه إلى تخصيص أنواع بعينها إلا بعد مدة تراكم - كانت ضرورية ربما - لخوض مجالات كالرواية والمسرحية والقصة أو المقال أو النقد . . إلخ .

وهكذا فتح الباب لتخصيص الحقول الأدبية ببليوغرافيات خاصة ، تقلص مجال الباحث وتختزل المسافات بينه وبين سلسلة التصانيف . وتسجل المرحلة الثانية تطوراً خاصاً في دليل الببليوغرافيا إذا يتحول إلى متابعة الإنتاج الوطني ويرتبط بالأنواع الأدبية ، إذ يصدر السيد حامد الشاس « ببليوغرافية

(70) وجدي رزق غالي ، المعجمات العربية ، ط : الهيئة العامة ، مصر ، 1971 ص 7 .

القصة المصرية » (1972) وهي تغطي إنتاج نصف قرن من الكتابة القصصية من 1910 إلى 1961 وتتملاً فراغاً ، لا فقط بمصر ، بل بالعالم العربي الذي يعاني من إنعدام هذا النوع من الدراسات العسيرة ، وببليوغرافية حامد النساج تعزز تلك التي قام بها جوزيف أسعد داغر عن « القصة الروسية في الأدب العربي » ( 1946 ) والتي كانت عبارة عن ثبت للترجمات العربية التي بلغ عددها 131 قصة معززة بدراسة تمهيدية وتحليلية للأدب الروسي وتأثيره في الأدب العربي .

وإذ كنا نقتصر في عملنا هنا على المحاولات الرائدة - إذ كادت هذه الدراسات تصبح عادية اليوم - فلرصد المنظور الذي صدرت به وكذا علائقها بالدرس الأدبي ، كما يتصور الأمر مؤلف الدليل . من ثم لا نستغرب أبداً أن يقدم السيد حامد النساج لدليله ، وفكرة سبق مسيطرة عليه ، إذ : « تخلو مكتبتنا العربية بالفعل من أعمال ببليوغرافية ترصد الأدب إذ ان وجود مثل هذه الأعمال ييسر على الباحثين والدارسين مهمتهم ... كما ... يعطي صورة دقيقة للنشاط الأدبي في الفترة التي يجعلها إطاراً زمنياً له ... »

وتلح الحاجة إلى ببليوغرافيا للرواية ، وأخرى للمسرحية وثالثة للمقالات النقدية ، ورابعة للقصص المترجمة وخامس للتراجم الذاتية .

وحرصاً على أن يكون الدليل بمثابة الخط البياني للقصة القصيرة في نصف قرن ، سعيت من أجل أن يضم بداياتها الأولى في الصحف والمجلات أو في المجموعات القصصية ، أي منذ عام 1910 حتى 1961 ونحن نعد بأن نسير على الدرب فنستكمل تتبعنا للنشاط الإبداعي في القصة القصيرة بعد هذه المرحلة .

ولقد جاء هذا الثبت في جزئين : الأول يحتوي على القصص القصيرة التي نشرت في الصحف والمجلات والدوريات في هذه الفترة .

والثاني : يهتم بتحديد المجموعات القصصية التي صدرت لكل

كاتب من كتاب القصة القصيرة «(71)» .

ورغم المقدمة التي تعبر عن العديد من النوايا ، فإن السيد حامد النساج لم يتعد ما قام به في هذا العمل المفقود من السوق ، والذي لم يعط فرصة لدراسته وتقييم نصف قرن من القصة المصرية ، كما لم تظهر أعمال موازية في ميدان أصبح من اختصاص الإعلاميات حديثاً ، إذ ليس بقدرة الأديب أن يغطي وحده حقلاً معقداً كهذا .

وقد خص محمد الجوهري مجال « الفولكلور » بـ « بليوغرافيا التي تظهر كأهم عمل في هذه المرحلة الثانية على الإطلاق ، لتحديد غايتها أولاً :

« الهدف من هذه البليوغرافية هو تجميع مصادر المعلومات التي نشرت باللغة العربية تأليفاً وترجمة بالإضافة إلى أن الاستفادة لا يمكن أن تقتصر على البيئة المصرية وحدها أو العربية وإنما تحقق هدفاً قومياً أساسياً ، وهو التعريف بالمساهمات العربية على الصعيد العالمي ويغطي هذا التجميع الكتب الكاملة وأجزاء الكتب المطبوعة والمخطوطات والرسائل الجامعية وبحوث المؤتمرات والتقارير والنشرات أما بالنسبة لمقالات الدوريات فقد اقتصر فقط على المقالات التي نشرت في الدوريات المتخصصة من مجال الفولكلور ( التراث الشعبي ) ( و الفنون الشعبية ) التي كانت تصدر في القاهرة ... » (72) .

وقد تأكد حدسنا بجديّة عمل محمد الجوهري ، الذي صدرت له طبعة جديدة خلال هذه السنة ، وهي تدل على بعد الأفق ودقة الاختصاص والعلمية التي لم تقف عند حدود الإنجازات المصرية أو العربية وحدها بل تعدتها إلى ما صدر خارج العالم العربي .

والبليوغرافيا الفولكلورية عند محمد الجوهري لا تخرج من فراغ ، بل

---

( 71 ) السيد حامد النساج ، دليل القصة المصرية ( 1910 - 1961 ) ، ط : الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1978 .

( 72 ) محمد الجوهري ، مصادر دراسة الفولكلور العربي / مطبعة القاهرة ، 1978 ، ص 3 / 4 .

قامت بمجرد للأعمال السابقة عنها ، والتي توقفت عند منظور وطني محدود ، أو عند مستوى مقال في مجلة ما ، ولعل من مهمات أية بيبليوغرافية أن لا تتجاهل البيبليوغرافيات السابقة عنها أو المعاصرة لها ، وهذا بالضبط ما حاولت مقدمة عمل محمد الجوهري الإشارة إليه كضرورة تاريخية :

« ولعل أهم المحاولات البيبليوغرافية في هذا المجال تاك التي قدمها الأستاذ كوركيس عواد في عام (1963) من مجلة التراث الشعبي بالعراق وقد نشرت المحاولة بعنوان ( الآثار المخطوطة والمطبوعة في الفولكلور العراقي ) وفي ع ١ س ٢ من نفس المجلة قدم عامر رشيد السامرائي مقالاً بعنوان المكتبة الشعبية ، اعتبره استكمالاً لمجهود سلفه كوركيس عواد .

فجمع مصادر المعلومات والتعريف بها يعد أهم مقومات البحث في أي ثقافة وبدون البيبليوغرافية لا يمكن وجود بحث تحققت له مقومات الدقة والإكتمال »<sup>(73)</sup> .

كما يوضع محمد الجوهري عمله في إطار المراحل التي مر بها قبل أن يخرج إلى الوجود ، إذ :

« يمثل هذا العمل إحدى الشعب الثلاث لبحث الفولكلور ( المصري ) الذي أجري في المركز القومي للبحوث الاجتماعية في عام (1970) (1971) وقد تم من إعداد مخطوطة هذا العمل (1972) ونحن ندرك الآن - ونحن في مطلع 1978 أن تجميع البيبليوغرافية قد توقف عند نهاية عام 1971 ، معنا هذا أن الإنتاج العربي الفولكلوري على إمتداد الفترة من أول عام (1972) وحتى نهاية عام 1977 لم يدخل ضمن حيز التجمع والحق أنه لا توجد قائمة بيبليوغرافية يمكن أن تصل إلى درجة الكمال المطلق ، لأن كل بيبليوغرافية سوف تصبح قديمة ولذلك فإن الرأي السديد أن تتولى نشر أجزاء تلحق الإنتاج في مجال البيبليوغرافية

---

( 73 ) محمد الجوهري ، السابق ، ص 1 / 2 .

بصفة فورية ، وليكن ذلك سنوياً أو كل خمس سنوات وقد صح العزم لدينا على أن نولي إصدار الجزء الثاني من هذه البليوغرافية في العام القادم ، وقد بدأ العمل فيه فعلاً ، ويغطي الفترة من أول عام 1972 - وحتى نهاية عام 1976 على أن يصدر كل خمس سنوات جزء جديد لنضع الباحث في صورة الوضع الراهن للبحث الجاري في الميدان وقد ضمت هيئة البحث في شعبة البليوغرافيا من بحث الفولكلور - محمد الجوهري ( مشرفاً ) محمد فتوح عبد الهادي - حشمت قاسم - نعام عبد الجواد - وداد مرقش .

أما محمد الجوهري فقد اضطلع إلى جانب الإشراف بمهمة تجميع 90% من كافة المخطوطات ويبلغ عددها (500) مخطوطاً . . . قائمة المحتويات . المعتقدات والمعارف الشعبية - العادات والتقاليد الشعبية - الأدب الشعبي - الفنون التشكيلية والموسيقى الشعبية - الألعاب الشعبية « (74) » .

وهكذا يفتح محمد الجوهري ومحمد فتوح عبد الهادي وحشمت قاسم ونعام عبد الجواد ووداد مرقش باباً - لما كان مجرد تقاليد تعبيرية وشفوية وفرجة - على البحث العلمي معززين بذلك ما تقوم به مجلة « التراث الشعبي » العراقية من بحوث بليوغرافية بين الحين والآخر .

كما يوجد تكامل بين البحث البليوغرافي والبحث الأدبي ، الذي خلق تقليداً باختتامه بليوغرافيا المراجع والمصادر . من هنا يأتي التداخل بين العمل الجزئي - الخاص بالموضوع المعالج - والعمل المتخصص ، الذي لا يستغني عن هذه الإشارات ، يجمعها ليجعل منها خلايا مستقلة ، رهن تناول باحث ما .

---

( 74 ) محمد الجوهري ، السابق ، ص : أ / ب / ج .



## 4 - مكونات التيارات الأدبية عند العرب

« كان على الأدب العربي في عقود قليلة ، أن يكتشف الأنواع المجهولة لديه ، ويجرب تقنيات غير معروفة ، ويتعود على النظريات المختلفة ، وكل ما كان - بعيداً عنه - تعبيراً عن تطور متنام ، يطرح نفسه عليه فجأة . ولا شيء يعبر أحسن عن هذه المغامرة سوى هذا . . المجهود التحديتي الهائل ، والذي تستوعبه اللغة ، وبتعبير ج. بيرك : ( يعبر الشرق ولغته نحو المرحلة الحديثة ، من المقدس إلى التاريخي ) .

يفسح تاريخ الأفكار وتاريخ الأدب العام المجال لحوض التيارات الأدبية بما يحده من خطوط عامة وأفكار دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية داخل مكونات التيار ، وإرهاصاته الأولى أو تشعباته اللاحقة .

من ثم ، يسهل موضوعة كل تيار أدبي في سياقه من الثقافة العربية بما يتحدد به من قبول ورفض وترويض وحذر وتطعيم وآلية ، بحكم أن أغلب التيارات الأدبية العربية تفرض على الباحث معالجتها من وجهة مقارنة ، فهي ظواهر انتزعت من سياقاتها التاريخية وكيفت لتعبر عن وضعيات ثقافية وأدبية تخالف تاريخياً العصر الذي ظهرت كرد فعل فيه على ظواهر سابقة .

لهذا يصبح من العسير معالجة الأحداث الأدبية العربية ، دون مقابلة بينها وبين مثيلاتها خارج العالم العربي كيفما كانت الصلات ظاهرة أو منعقدة .

إن مقابلة الأحداث الأدبية منزوعة من سياقها التاريخي والفردى والأيديولوجي والجمالي كيفما كانت كبيرة أو صغيرة ، لتعد في الحقيقة من أسباب الخلل الشائع في النظر إلى « المنهج المقارن » ومجموع طرق

الفهم ، لقيامها على أساس تشابهات سطحية ، غالباً ما تكون عفوية ، وربما وهمية ، كما تفسر هذه التشابهات كأثر من آثار التأثير الآلي ، القادم من الخارج . إذ تصبح سلطة الخارج مالكة للكلام ، ويستحيل تقييمها ، خارج أية سلطة نصية للعمل الأدبي ، خاصة أن الطريقة التي ظهرت بها المذاهب والتيارات في الأدب العربي كانت جد معقدة لتدخل الأفكار بل وتناقضها في الاتجاه الواحد فمقارنتها لا تنتهي عند فهم دقيق ، بل تفضي إلى تساؤلات جديدة ، حول التشابهات والموازنات العديدة بما كانت عليه في الغرب . وتقودنا المقاربة التي نسلکہها في كل بحث علمي من مجرد المواجهة المدركة للتشابهات والخطوط المميزة إلى تفسيرها التاريخي .

ويمكن للتشابهات الأدبية في علائقها العالمية أن تتأسس في بعض الحالات على تقابل في التطور الأدبي والاجتماعي عند البعض وعلى وجود إتصال ثقافي أو أدبي عند البعض الآخر .

وتكون إشكالية التأثيرات الأدبية العربية حقلاً واسعاً لتأويل التيارات فالتأثير الأدبي يصبح ممكناً بواسطة وجود تقابلات نتيجة التطور الأدبي والاجتماعي ويقود غياب هذا التمكين الأساسي بالتأكيد إلى تشويه الوجه الواقعي للعلائق والروابط العالمية ، من الوجهة المنهجية ومنهج البحث العلمي .

لذلك كان الإحتياط المنهجي ضرورياً لكل مقارنة لموضوع التيارات ولا يعني بحث التيارات الأدبية ضرورة الكشف عن أصولها الأجنبية أو المحلية فقط بعيداً عن الإلمام بالكيفية التي تتكون بها واستجابتها للحاجيات الفكرية والأدبية التي يتطلبها العصر .

فالتيارات الأدبية قنوات معرفية تخدم كل التطور في الوسائل والغايات التعبيرية للأدب العربي ، كغيره من الآداب ، التي تظهر بها التيارات مؤكدة على محلية في مرحلة أولى وعالمية في مرحلة ثانية ، عبر مجموعة من الزيادات الفردية والممارسات الجماعية ولا يوجد أي سبب للحديث عن « تيارات أدبية » عالمية ، إذ يتعلق الأمر فقط بتقابلات بين الأنواع الأدبية المتلاحقة

بشكل طبيعي في فترة ما من حياة شعب ما إذ تلازم الأنواع الصغرى وظائف محددة لا تلبث أن تختفي نهائياً ، أو لتظهر معدلة ومحولة في أنواع كبرى ، ولا يمثل الأدب العربي في ذلك أي استثناء .

وإذا تأملنا أدب الفترة المعاصرة ، منذ بداية تكون المجتمع البرجوازي ، لأدركنا عند مختلف الشعوب . . . تلاحقاً طبيعياً للتيارات الأدبية ، بالتغيرات المتتابة ، وصراع الأساليب الأدبية الكبرى الخاصة بكل تيار ، لا يمكن أن تكون تشابهاتها مجرد نتيجة صدفوية ، ولكنها تتحدد تاريخياً بشروط مشابهة للتطور الاجتماعي / النهضوي / الكلاسيكي / الرومانسي / الواقعي / الطبيعي / الحدائي في الفضاءات التي شهدت تطوراً تاريخياً مطرداً وطبيعياً .

أما فضاء العالم العربي الذي تلقى أغلب هذه التيارات طفرة واحدة ، فمن الصعب تحديد تاريخ استعمال اصطلاح اسم « التيار » لديه لغلبة استعمال المذاهب والمدارس والاتجاهات . ويلاحظ خارج العالم العربي أن الاصطلاح المستعمل حالياً ، للإشارة إلى تيار أدبي عالمي ، تجاهله المحدثون الذين لم يعوا طبيعة الروابط العالمية وطموحها الشعري . . .

لقد اقتبست تسمية « التيارات الأدبية » عن الفنون التشكيلية ، واستقرت بفعل ظهور الصراعات الحادة بين القدماء والمحدثين في جميع العصور وكذا سيطرة قيم ومفاهيم توجه أصحابها إلى توافق أو تناقض عاملة بذلك على تحقيق إنسجام الجماليات الأدبية ، وتطوير المفاهيم الأدبية ، بما تنزع إليه من حداثة وطلعية ، ففي كل عصر تظهر قطعة بينه وبين التقاليد الأدبية للعصور السابقة إذ نكاد نعتقد في قيام الأدب على نوع من المزايدات على الآداب السابقة والمزامنة له ، وهي مزايدات على القيم والأساليب والأنواع والنظريات تراهن على عمليات تحويلية ، لا تقف عند حدود الاستنساخ ، ولكنها تتعدها نحو الإفتتاح على قوالب تجريبية تسمح بتوسيع فضاءها .

وعلينا أن نشير إلى الحدث الخاص والهام الذي يمثله التيار الأدبي كظاهرة تاريخية تمثل نظاماً غير مغلق ، بل يفتح على سبل التطور والتحول ليصبح نظاماً تاريخياً آخر يخلف ما قبله .

وهكذا يمكن أن تتلاحق في كل التيارات الأدبية والأساليب الشعرية ظواهر إنقالية ، هي عبارة عن توارث أنظمة ذات وظائف محددة لأنظمة أخرى مستكملة لها ، في شكل تداخلات حلقة غير متناهية تعمل فيها تناقضات المذاهب في العمل الواحد أدواراً يصعب تأويلها .

فتوضيح سوء التفاهم الخاص بالنظام المصطلحي يقتضي متابعة استعمالات الكلاسيكية والرومانسية والواقعية التي تستعمل ليس فقط للإشارة إلى التيارات الأدبية كأحداث تاريخية لفترة ما معينة . ولكن لتمييز الأنماط والمناهج الفنية التي تلتقي خلال مختلف الحقب .

وفي هذه الحالة ، قد يحدث أن نتحدث عن « رومانسيات » شعراء الشعر الحر وروايات السير وأحياناً عن نزعات رومانسية للأدب الكلاسيكي ، كما نتحدث عن واقعية وعن « طبيعية » الخرافات . وعن واقعات قصص ألف ليلة وليلة كما نكتشف خطوطاً عبثية في بعض ظواهر الأدب الجاهلي ، وعلامات رمزية عند المعري وأبي القاسم الشابي ، كما نجد خطوطاً انطباعية ليس فقط في الشعر العباسي ولكن في قصة حي بن يقظان لابن طفيل .

وهكذا يستعصي الحسم في سيطرة مذهب واحد على فترة واحدة أو إبداعية عمل أدبي واحد ، فصفاء المذهب الكلاسيكي من شوائب المذاهب الأخرى هو صفاء نسبي . من ثم تصبح التيارات قنوات توليدية معرفية للأشكال والأطروحات ، عبر عديد من العلائق التي تجمع الجماعة الأدبية ، وتحفزها إلى خوض مغامرة أدبية : طليعية موضوعية أو مستقبلية .

وتمنح التيارات الكبرى خلال مراحل تطورها الاجتماعية والأدبية الفرصة لإكتشاف المظاهر المجهولة للموضوعية والمنظورات الجديدة والتأويلات الفنية للواقع ويمكن هذه « الإكتشافات » التاريخية أن تكمل الأحداث المقابلة لها في الماضي ، على الرغم من عدم وجود أية علاقة تاريخية معها .

ويظهر أن تواجد هذه المفاهيم في ميدان الأفكار أو الفن تعود إلى مسألة

فلسفة الفن والجمال . وتستعمل هذه المفاهيم في تاريخ الأدب بطريقة مبهمة وغير دقيقة تخون استعمالها لتشير إلى التيارات الأدبية كأحداث تاريخية . . .

ومن غير المحتمل أن تكون هذه التغيرات الكبرى عبر التطور التاريخي منتظمة بهذه الدرجة من التسلسل التاريخي ، كما هو عليه الأمر في العبور من الكلاسيكية إلى الرومانسية ومن الرومانسية إلى الواقعية ومن هذه الأخيرة إلى الطبيعية وإلى الحداثة . ومن غير المحتمل إذن أن تكون هذه التيارات نتيجة لحركة موضة أدبية مستوعبة تحت تأثير الأنماط المستوردة ، التي تعبر دورياً من بلد إلى آخر ، كما ترسخ عليه الأمر في أذهان مؤرخي ونقاد الأدب العربي ، بما في ذلك القراء ، الذين يغلبون جانب الأصالة على الغرب في أغلب الظواهر المذهبية ، أكثر مما يبحثون عن أسباب نجاحها في الفضاء العربي ، متجاهلين الحاجات العميقة التي تستجيب لها المذاهب وتكيف عبرها .

والمأمل للتيارات الأدبية يجد - رغم اختلاف أوطانها - بينها حساً مشتركاً في التعبير عن الإنسان والأشياء والكون وهذا الحس المشترك هو ما يدفع المقارن إلى البحث عن مقابلة هذه النزعة في كل أدب وطني بالأدب الثاني والثالث ، لحصر أوجه الأخذ والعطاء ، بل والصدف .

ولا يسمح الطابع المعتاد للتشابهات التي تظهر عبر التيارات الأدبية بتفسير هذه الأخيرة كمجموعة أحداث خاصة ، تحركها الصدف . وهذا الاعتقاد يدفع إلى التفكير في تطور واحد أو منظم للأنظمة الفنية كلها ، بكل مظاهرها الأيديولوجية والفنية .

ومن البديهي أن لا يلغي كل هذا إمكانية بل وضرورة وجود صلات ثقافية وتأثيرات متبادلة ، لنشاط أدب مهيمن أو شخصية شاعرية مؤثرة ، ولكن بشرط وجود حاجة داخلية للتأثر في هذا الأدب المستقبل .

لهذا كان كل تأثير أو اقتباس مصحوباً بالضرورة بتحويل إبداعي للنمط المقتبس : إذ عليه أن يتكيف مع تقاليد الأدب الذي يعيش هذا الاقتباس الخارجي ، في خصوصياته التاريخية والوطنية والاجتماعية ، وكذا الخصوصيات الفردية والشخصية المتأثرة .

والأهم في ظاهرة الاستقبال هو أن لا يتعدى دورها دور الحافز الطبيعي لخوض هذا التيار أو التيارات التي يتم حداثتها ضمن خوض المغامرة الوجودية للإبداع والنقد .

فلا غرابة أن يجد جميل صليبا - في الإتجاهات الفكرية في بلاد الشام :  
« ان لطبائع الأمم علاقة بالآراء والمذاهب التي تنتشر فيها ، بل الآراء والمذاهب لا تنتشر في مجتمع من المجتمعات إلا إذا وافقت طبائع أهله ولا امت تقاليدهم وعاداتهم . . .

. . . والآراء والمذاهب التي تنتشر في مجتمع معين قد تكون متولدة من عقول أهله ، وقد تكون واردة عليهم من خارج بلادهم »<sup>(75)</sup> .

ويظهر أن جميل صليبا يفترض غرباً متفوقاً نوعياً على العرب ، بحيث يحتم على التابع الاستفادة من الأول دون شرط ، وينسى أن هناك إنسانية واحدة تمر بوضعيات وظروف تتراوح بين التقدم والتأخر ، وليس التقدم وفقاً على الغرب كما أن الانتكاس ليس وفقاً على العرب .

وتعود هذه الأطروحة إلى المفهوم النهضوي الأول الذي قدس الغرب في رفضه والإقبال عليه ، وجعل منه منارة ، دون أن يعي أن التقدم ليس طلسمًا سحرياً ولا وجهة جاهزة للوصول إلى الإشراق .

وملاحظة جميل صليبا تفترض تبني الأيديولوجيا العربية لهوية التيارات من جهة ولواقع الفضاء العربي ، الذي مهدت له مبررات واقع العلم الحديث وإنجازاته والنظرة الدينية بقديسيته والنظرة الأخلاقية التي توزعت نشرة « البشير » جريدة الإرسالية السورية أو « المشرق » مجلة الآباء اليسوعيين في بيروت ، أو « المقتطف » عند صروف وغمر ، وكلها لعبت دوراً خاصاً في التحولات الأيديولوجية والاجتماعية والأدبية .

---

( 75 ) جميل صليبا ، الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام ، ط : جامعة الدول العربية

، 1985 ، ص 33 .

وحين نتكلم عن تحولات التيارات الكبرى والأساليب الأدبية ، فنحن نفترض تغيراً في الأيديولوجيا الاجتماعية وكذا في وسائل تعبيرها الفنية . وعلى هذا الأساس العام يمكن إيجاد قرابات أخرى خاصة في : تقابل الأفكار والأمزجة والموضوعات والأنواع الأدبية وخصوصيات الأسلوب الشعري ، التي تكون نتائج تقود إلى إعادة - بناء كلي أو جزئي لأنظمة وسائل التعبير الأيديولوجية والفنية والفكرية للأديب ويمكن أن تصبح إعادة - البناء في آن واحد نتيجة التطور الداخلي في علاقة بالحركة الأتية من الخارج .

ورغم سيطرة مظهر المحاكاة على الممارسة الأدبية النهضة فهي مجرد قناة لتمرير عديد من المعطيات ، التي إن وافقت إتقانها أعطت أنماطاً جديدة تتخلص من نمط المحاكاة الأصلية ، بتوليدات حديثة ، تتلاءم وفضاء الإنتاج العربي ، الذي يقدم له جميل صليبا بنوع من التقريرية :

« أما أهل الجيل الحاضر فقد ذهبوا في التقليد مذاهب شتى وتفننوا في الاقتداء بالغرب حتى نقلوا عنه معظم مظاهر الحياة . وكان الأدب أول ما تعاوروه بالقلب والإبدال ، وأخذوا يستعملون فيه أموراً لا عهد له بمثلها ، ويكيفونه بروح الزمن ، وينهجون فيه نهج الإفرنج ... »

الأساس في ذلك كله أن نقلد ونعلم أننا مقلدون ، وأن نقبس ونعلم أننا مقتبسون ، فإذا علمنا ذلك إنكسرت زجاجة تقليدنا وانتقلنا من طور التقليد والإتباع إلى طور الخلق والإبداع »<sup>(76)</sup> .

وإذا كانت ظاهرة « التقليد » أو « المحاكاة » قد تركت صداها في الأدب العربي ، فلأن البحث عن حافز التطور والإبداع كان يلتفت إلى التجارب المخالفة والنقيضة باعتبارها منارات إهداء بالأصواء الموجهة لهذا التقليد ، الذي جعل منه جميل صليبا حصان طروادة العرب .

والحق أن الوقوف عند البنية الأدبية العربية وحدها لا يمنح الإجابات اللازمة . وتظهر الأمثلة الأكثر اقناعاً الطبع العادي للتطور الأدبي الذي ينتجه

التطور التاريخي والاجتماعي ، اللذان يجعلان من البديهي ظهور التيارات والأنواع والأعمال الفردية المتقابلة ، في مختلف الآداب ، في استقلال تام فيما بينها ، وبدون أي اتصال أدبي ما ، وتكثر الحالات المشتركة في آداب العصور القديمة أكثر منها في الآداب الحديثة بحكم أن الأولى كانت نموذجية وتقليدية وأكثر استقرارية فيما يخص الأنواع والموضوعات الأدبية . بينما يطبع الآداب الحديثة إختلافات كبرى ذات خصوصيات وطنية وفردانية كبرى في الطريقة الفنية .

من ثَمَ ، كانت خصوصية الآداب الحديثة العربية ظاهرة لا يمكن تجاوزها ، فهي شديدة التحول ومتنوعة المصادر في تشكيلها ، لهذا كان على نظرية الأدب أن تلاحق هذه التحولات في قيمها وفلسفتها .

وكان ضرورياً على كل باحث أن يحدد حقل مقارنته ومناهج هذه المقاربة حتى يستطيع الإلمام بالمكونات الأساسية للتيارات الأدبية العربية .

وهكذا يهتم الأدب المقارن في معناه الخاص بالنشاط المتبادل لأدبين أو كاتبين أو تيارات أدبية بكل تأثيراتها وأنواعها ، على حين يهتم الأدب العام بدراسته الأحداث المشتركة لعدد من الآداب .

لم نجد في بحثنا لموضوع التيارات في الأدب العربي ، من الناحية النظرية مؤلفاً مكتملاً في الموضوع ، باستثناء مقدمة « التيارات الأجنبية في الشعر العربي » لعثمان مواني ، ونف وإشارات من كتاب « التيارات الأدبية بين الشرق والغرب » لإبراهيم سلامة . فالأول يمهّد لدراسة العصر العباسي ، بينما الثاني يؤرخ للدرس المقارن في الأدب الحديث إلا أنه لا الأول ولا الثاني يقيم دعائم درس التيارات الأدبية في العالم العربي ، ولا نعثر على تدريس منهجي للمادة في الجامعات العربية ، فالتعامل معها يكاد يقف عند حدود التقديم السريع : ( التاريخي / الاجتماعي / السياسي ) للدرس الأدبي أو الموضوع المقترح للمعالجة . وبذلك بقيت التيارات وسيلة من وسائل مقارنة ما قبل النص الأدبي ، وهي وسيلة لا ترقى إلى ترسيخ تقاليد وقواعد تقوم عليها في كل معالجة ، لأن الخائضين فيها ليسوا مؤرخي آداب عامة ولا فكر



فلسفي ، ومن هنا يغلب جميع الأحداث التاريخية ، وتبني معطيات لا تاريخية لسابقين يفتقدون المناهج الدقيقة والتحليل الضرورية لفهم الظواهر الأدبية ، مما يضعهم وجهاً لوجه أمام الإسقاطات والترصيفات المعرفية ، كيفما كانت جزئيتها .

إن الروسي جيرمونسكي يربط ( مشكل التيارات الأدبية كظاهرة عالمية ، قبل كل شيء ، بالتطور العالمي ، وحركة تبادل الآداب بجوهر وهدف الدراسات المقارنة للآداب نفسها ) .

فتعرف العالم العربي على الأدب المقارن كان متأخراً جداً على الدراسات التي أنجزت حول التيارات ، بل كانت فعالية هذا التعرف جد محدودة ولم تجب عن الأسئلة الملحة لدارس التيارات الأدبية عند العرب - الذين لم يستطيعوا لحد الان - رغم ظهور دراسات عديدة تحوم حول الموضوع - من اختراق الحواجز المنهجية التي تفصلهم عن مقارنة مشروعة لدرس التيارات الأدبية .

ومن هذا المنظور السابق فقد اخترنا التعرض لإشكالية التيارات الأدبية من خلال كل ما سبق معنا لحد الان بالإضافة إلى التوقف عند مستويين مباشرين ، يتعرض أولهما للجانب النظري من التيارات ، بينما تبسط عبر الجانب الثاني ممارسة هذه التيارات .

وقد اخترنا لتمثيل الجانب الأول نموذجين من المفاهيم عند كل من عثمان موافي وإبراهيم سلامة لاعتبارات تاريخية ، ترتبط بإرهاصات التيارات الأدبية في العالم العربي من جهة ، وبوضعيتها في إطار الأدب المقارن من جهة ثانية - عند إبراهيم سلامة - .

ففي مقدمة كتاب عثمان موافي ، يتساءل هذا الأخير عن معنى التيارات بصفة عامة ، ويحدد فهمه لها ، وهو بطبيعة الحال الفهم السائد في فترته كالتالي :

« ماذا نعني بالتيارات الأجنبية ؟ »

نعني بذلك الأفكار ، والنظم والعادات ، التي انتقلت من بيئات أجنبية

إلى البيئة العربية متخذة شكل موجات ، وإتجاهات عامة ، بدت معالمها بشكل واضح في الشعر العربي منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري .

ولسنا نهدف هنا إلى إحصاء كل الأفكار الأجنبية ، وكل العادات ، وكل النظم ، وإنما هدفنا أن نُعَيِّنَ بالعام منها لا بالخاص ، أي بالفكرة التي تأخذ شكل إتجاه وتكوّن تياراً . ونقصد بالفكرة هنا ، الفكرة بمعناها العلمي لا الفكرة بمعناها الفني أو الأدبي .

والفرق بين الإثنين واضح في أن الفكرة الفنية أو الأدبية ، فكرة متميزة بعاطفة ، وهي خاصة بأديب ما . أما الأخرى فهي مجردة عن العاطفة ، وتمثل الحقيقة أو الواقع كما هو . وقد لا تكون من إبتكار شخص ما ، بل ثمرة جهود أفراد وجماعات كثيرة . وهي بذلك تمثل رأياً عاماً ، أو عقيدة ، أو نظرية ، يقرها الجميع ، ويؤمن بها كثير من الناس . ومن ثم فقد تكون هذه الفكرة دينية ، أو خلقية ، أو فلسفية . وهذا النوع من الأفكار ، وإن كان الأدب يتخذ أداة للتعبير عنه ، فإنه ليس من موضوعاته ، بعكس النوع الآخر ، الذي يعد في الحقيقة من موضوعات الأدب » (77) .

ويميز عثمان موافي بين نوعين من الأفكار المكونة للتيارات وهي إما أفكار علمية أو أدبية ، تكون جسوراً بين القوميات المختلفة وتسمح بمد قنوات تواصل عبر مستويين من التأثيرات : التجريبية والملموسة ويعتمد عثمان موافي في بسطه للقنوات والمستويات على تجربة تاريخية عاينها العالم العربي عبر العصور ، وهي التي وصلت بينه وبين اليونان والفرس والهنود ، عبر العلوم والعادات والحضارات . فالتيارات الأدبية عند عثمان موافي تخضع بالضرورة إلى وجود الصلات التاريخية بين القوميات ، أكثر مما هي فاقدة لهذه الصلات على شاكلة ما يلوح به جيرمونسكي في وجود نفس التيارات دون

---

( 77 ) عثمان موافي ، التيارات الأجنبية في الشعر العربي / ط : مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية - 1973 ، ص 5 .

## حدوث علائق مباشرة :

« وإذا كان هذا النوع من الأفكار ليس من موضوعات الأدب ، فلماذا نعى به في بحث أدبي كهذا ؟ ذلك لأنه أسهل إنتقالاً ، وانتشاراً من النوع السابق » وربما يرجع هذا إلى أنه يعبر عن حقائق وقضايا كلية عامة يسهل على العقل الإنساني تقبلها ، فالأمم تتشابه في العقول بيد أنها تختلف في العواطف والأذواق . ومن هنا نجد أنها لا تستجيب بسرعة للفكرة الأدبية بينما على العكس من ذلك تستجيب للفكرة العلمية .

وهذا النوع من الأفكار قد لعب دوراً كبيراً في المبادلات الأدبية بين الشعوب المختلفة وهو الذي أثر في الأدب العربي شعره ونثره حتى هذه الفترة موضوع بحثنا . ولم يتأثر الأدب العربي كثيراً بالنوع الآخر ، مما دعا بعض الباحثين إلى القول بأن الأدب العربي في العصر العباسي ، لم يتأثر بموضوعات الآداب الأجنبية الأخرى ، كالأدب الفارسي ، والأدب اليوناني ولكنه تأثر بالحياة الاجتماعية للفرس ونظمهم في السياسة وإدارة الدولة ، كما تأثر بعقلية اليونان وفكرهم .

وقد انضج لي في هذا البحث صدق هذه النظرية . وعلى كل حال فالأفكار والعادات والنظم ، كالسلع تتبادلها الشعوب والأمم المختلفة ، وتنتقل بينهم وقد تشيع وتنتشر ولا يعرف في النهاية مصدرها الحقيقي الذي صدرت منه .

واتصال الشعوب ببعضها ببعض ، وتبادله الأفكار والنظم والعادات ، ظاهرة طبيعية لا تختص بعصر معين ، ولا بيئة معينة ، ولكنها تمتد عبر الأنهار والمحيطات ، وعلى مدى كثير من العصور والأزمان . وإنكار ذلك إنكار لحقيقة الكون ، وناموس الحياة وطبيعة البشر . فقد خلقنا الله سبحانه شعوباً وقبائل مختلفة ، لتتعارف<sup>(78)</sup> .

والمهم في تجربة عثمان موافي أنه يعي تمام الوعي بريادته ، بل

( 78 ) عثمان موافي ، السابق ، ص 6 .

يذهب إلى أبعد من هذا إلى انتقاد تجربة أحمد الحوفي في دراسة التيارات المذهبية ويصفها بمجرد محاولة ، ودراسة عامة . كما يدعي تفرد منهج بحث التيارات لأن ( إشارات ) السابقين تبقى دون المستوى المطلوب .

ورغم كلاسيكية الموضوع الذي يتطرق إليه عثمان موافي ، فقد اعتمدنا مقدمته لأن معالجة الموضوع من وجهة درس التيارات هو ما يهمنا أساساً ، إلا أن الكاتب فيها يظهر ورغم إشارة عابرة منه إلى طه ندا ، باعتباره مقارناً ، فإن مفهومه عن التيارات يظل حبيس نظرة مثقلة بحمولة تاريخية أفقية ، تخضع للأحداث ولا تخضعها إليها ، وهي معجبة بإنجازها وتفردا الوهمي ، لأن موضوعة التيارات في إطارها المنهجي عند روادها الحقيقيين غائبة تماماً ، بالإضافة إلى غرور غير مبرر بشيء ، سوى هذه المادة ، فليست المادة هي ما يمثل جدة الموضوع ، بل المنهجية الموظفة لبلورتها ، ومع ذلك تظل تجربة عثمان موافي مقياساً للإرهاصات التي أحاطت بالاهتمام بالتيارات الأدبية عند العرب ، خاصة أن عثمان موافي يكاد يكون مقتنعاً بهذا الدور :

« وأعتقد أن دراسة التيارات الأجنبية على هذا النحو ، وبهذا المنهج تعد محاولة جديدة . وصحيح أن كثيراً من الدارسين ، قد أشاروا في أكثر من موضع إلى التأثير الأجنبي في الأدب العربي شعره ونثره . ولكن لم يسبق لباحث في حقل الدراسات الأدبية ، أن درس هذه التيارات المختلفة على هذه الحقبة من الزمن وهذا المنهج قبلي ، اللهم إلا هذه المحاولة ، التي قام بها الدكتور أحمد الحوفي لدراسة التيارات المذهبية بين العرب والفرس . ولكن هذا الباحث حصر بحثه فيه بين العرب والفرس ، ولم يتجاوز ذلك إلى غيرهم من الأمور الأخرى ، التي انتقل عنها كثير من هذه التيارات . ولم يعن عناية واضحة باستخراج هذه التيارات من الشعر . ولكن الغالب عليه في ذلك ، الاعتماد على النصوص والروايات التاريخية . وأخيراً فبحثه دراسة عامة وسريعة للتأثيرات المتبادلة في شؤون الحياة المختلفة بين العرب والفرس »<sup>(79)</sup> .

( 79 ) عثمان موافي ، السابق ، ص 9

والنموذج الثاني الذي اخترناه لمعينة التيارات الأدبية هو عمل إبراهيم سلامة الذي يحمل نفس الاسم ، والذي كان على اتصال بموجة المقارنين الفرنسيين من الجيل الأول ، وهي مبزة يتفوق بها على عثمان موافي ، من ثمة سنلاحظ لديه منظوراً منسجماً مع الدرس إلى حد ما .

وقد اخترنا نموذجاً بسيطاً من معالجاته ، ألا وهو فكرة « العبقرية » التي نلاحظ كيف تتمحور حولها العصور وتواريخ الأدب الخاص والعام ومن هذا المنظور يقابل إبراهيم سلامة بين عبقریات اتسمت بها عصورها . كالمثني وأبي العلاء وشكسبير وبوالو . وإشارة هذه الظاهرة ذات دلالة خاصة على إحساس الباحث بتجسيد فكرة العصر وتكون التيارات ، رغم محدودية بعد المناقشة بالظاهرة ، فهي تمثل نضجاً بالنسبة لتجربة عثمان موافي .

ومن هذا المنظور إذن يرى إبراهيم سلامة أنه :

« إذا كان العبقري لا يقاس بغيره ، فهو لا يقاس في الزمن أيضاً ، أي في التاريخ بحيث تجده أو نجد مثله في التاريخ القومي ، أو في تاريخ الأدب ، لأنه هو الذي كتب لأمته تاريخها ، قبل أن تكتب له الأمة تاريخه ! ولأنه هو الذي دفع ناسه إلى ما يريد ، لا إلى ما يريدون !

هذا الإيراد لا يتوجه أيضاً إلى « الأدب المقارن » وحده بل هو - كما ترى - عام يتوجه إلى غيره من تاريخ الأدب بل ومن التاريخ العام : لأننا لو أخذنا به على ما هو عليه لما استطعنا أن نكتب تاريخ الأدب في أية أمة من الأمم فكل تاريخ له حقبة ، ولكل حقبة رجالها ، والأدباء هم رجال الحقب الأدبية ، فإذا كانوا لا يتلاقون تحت تأثير العبقرية المتفردة التي تذهب بكل منهم مذهباً خاصاً ، فكيف نؤرخ لرجال الحقبة في فترة واحدة ؟! بل كيف نؤرخ لهذه الحقبة في فترات متعددة ؟ سيقول المعارض « ولو » فما أحب إلينا أن يكون لكل عبقرية تاريخها الأدبي وحدها ! وما أصدقنا إذ ننسب الحقبة إلى واحد من أهلها ! وهذا ما عمدت إليه الآداب قديماً وحديثاً ، بل هو ما عليه الحال في القديم والحديث ، فقد تتجمع آداب الحقبة في ناحية

واحدة ، وتتجه نحو أديب بعينه ، فيقال عصر «شكسبير» وعصر «بوالو» كما يقال عصر «المتنبي» أو عصر «أبي العلاء»<sup>(80)</sup> .

وتأتي فكرة المقابلة بين عصور المتنبي وأبي العلاء وشكسبير وبوالو كدلالة على وحدة تكون العبري عبر جميع الأزمنة والأمكنة ، ودون اعتبارات عرقية ، وهي فكرة استهوت إبراهيم سلامة ، ودفعته إلى كثير من الإحالات على الأعلام الغربيين ، معتقداً في امتلاكه لسلطة التيارات ، التي أصبحت تكون عند محمد الكتاني إشكالية خاصة . فعلى حين نجد أن ظهورها كان خاضعاً لتسلسل تاريخي في تطوره عند الغربيين ، بينما هو عند العرب يمثل حالة شاذة يستقبل فيها هؤلاء كل التيارات والمذاهب دفعة واحدة ، مما يستعصي معه موضعتها أو تفسيرها على ضوء التجربة الأدبية إذ تظل علاقة التيار بالأدب علاقة غير مشروطة بالمقاييس الطبيعية للتطور بل بالإستجابة لإلحاح حاجات نهضوية ، تنزع إلى تحقيق تراكمات كمية ، على حساب الكيفي والمنهجي . من هنا يرى محمد الكتاني :

« إن الآداب الأوروبية التي تدخل في جملة الثقافة الغربية الحديثة كانت تحمل للمثقف العربي تليدها وطريفها وهو بفتح عليها في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن التي كانت تحمل إليه كل نتائج التطور الفكري والأدبي لثلاثة قرون خلت من تاريخ أوروبا ( . . . ) وعندما استقبل المثقف العربي هذه التيارات والمذاهب الأدبية دفعة واحدة ، فإنه لم يستطع أن يعيشها في جدليتها التاريخية ، بل عاشها تراثاً وعاشها منفصلة عن واقعها ، لذلك تزامنت مؤثراتها في أدبنا ، في حين لم تتزامن عناصرها وتياراتها في أدب الغرب »<sup>(81)</sup> .

وعلى حين يقرر محمد الكتاني استقبال المذاهب دفعة واحدة ،

---

( 80 ) إبراهيم سلامة ، تيارات بين الشرق والغرب ، ط : الأنجلو المصرية / القاهرة ، 1951 ، ص 56 .

( 81 ) محمد الكتاني ، الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي ، 1979 ، ( رسالة جامعية ) الرباط ، ص 194 .

يؤكد أنيس مقدسي على الجمع بين مذهبين معاً عند شاعر واحد ، وهي ظاهرة تناقض ، قام المذهب على أساس رفضها ، وبحث انسجامها .  
والواقع أن الظاهرة لا تخص الأديب العربي أو عملاً بعينه ، بل توجد عند غيره في آداب وطنية أخرى . ومن هذه الزاوية يقوم أنيس المقدسي بجرد للمذاهب الأدبية العربية ، منتهياً إلى خلاصته الفكرية :

« المذاهب الأدبية الحديثة : كثيرة منها المذهب الإنشائي ( الكلاسيكي )  
والمذهب الإبداعي ( لرومانتيكي ) والمذهب الواقعي ، والمذهب  
الإنشائي ، والمذهب الطبيعي ، وفوق الواقع والمذهب الرمزي  
والمذهب الوجودي وأكثر هذه المذاهب مقتبس عن الغرب ، إلا أن  
أكثر الشعراء المحدثين جمعوا في شعرهم بين مذهبين على الأقل »<sup>(82)</sup> .

وإذا كان درس التاريخ الأدبي وسيلة لمقاربة مقبولة لتأويل الأحداث  
الأدبية الوطنية / أو الوطنيات ، فإن التيارات الأدبية تعبر من جهتها عن  
واقع تاريخي ، إنطلاقاً من كون التيار الأدبي عند جيمونسكي هو كل ظاهرة  
أدبية ، ذات نظام تجاوزي يولد أنظمة أخرى تختلف .

ويتضح من المنظور السابق ضرورة تناول التيار الأدبي في إطار تاريخ  
الأدب وتاريخ الأفكار التي ألحنا إليها سابقاً ، والتي لا يمكن الإلمام بها إلا  
عبر المنظور الثلاثي ، الذي يقترحه جان إرهارد (JEAN ERHARD) ، في  
إحالاته إلى :

أ - التاريخ الفردي للأنظمة الكبرى للعالم .

ب - تاريخ الواقع الجماعي وبثه عبر الرأي العام .

ج - التاريخ البنوي لأشكال التفكير والحساسيات .

ويفسر جان إرهارد هذا المنظور ، إذ يبد :

« في الحالة الأولى يخاطر فيها تاريخ الأفكار بالتباسه بتاريخ الفلسفة ،  
وفي الحالة الثانية ، يصبح فيها تاريخ الأفكار من اختصاص مناهج

( 82 ) أنيس المقدسي ، التيارات الأدبية في العالم العربي ، جامعة سروت 1982 ، ص 317 .

السوسيولوجية الوضعية أما الحالة الثالثة ، وهي أكثر غنى إذ تتميز بنزوع تاريخ الأفكار إلى تاريخ الطبائع <sup>(83)</sup> .

وليس لتاريخ الأفكار مصادر خصوصية ، إذ تدن بمادتها إلى كل شعب الدراسات ، بينما يدن التيار الأدبي - الذي يعتمد التخيلي كمادة - إلى روح العصر بالكثير ، من هنا ، نلاحظ تأثير الأنظمة الكبرى والأحداث الدولية ، في الفكر والتيارات الأدبية العربية ، التي لا يمكنها بتاتاً التكر مثلاً ، لـ :

- أ - الثورة الفرنسية لسنة 1789 .
- ب - الموجات الاستعمارية ، منذ سنة 1830 .
- ج - الحرب الروسية لسنة 1878 .
- ح - الحرب اليونانية لسنة 1892 .
- خ - حرب طرابلس الغربية لسنة 1911 .
- د - الحرب البلقانية لسنة 1913 .
- ذ - الثورة الروسية لسنة 1917 .
- ر - الحربين العالميتين لسنتي 1914 / 1939 .
- ز - استقلال الدول العربية ، منذ الستينات .

فلا غرابة إذن أن يخصص رثيف الخوري كتاباً خاصاً بـ «الفكر العربي المعاصر وتأثير الثورة الفرنسية» ( 1945 ) الذي يتعزز بكتاب آخر لإلياس أبو شبكة حول «علاقات الفكر بين العرب والإفرنج» ( 1945 ) ، ويبين الكتابان معاً ، إلى أي حد يثير الخارج انتباه عالم عربي بقي منغلقاً على نفسه لمدة طويلة .

كما أن الظاهرة الاستعمارية - رغم جانبها الأحادي السلبي المثار غالباً - فهي تجمع حولها دراسات أدبية وسوسيولوجية ، وصورولوجية جدية بتتبعها من زاوية علاقة الأنا ( المستعمر ) بالآخر ( المستعمر ) ، إلا أن مؤرخ الفكر

---

Jean Erhard, Histoire des Idées et histoire littéraire, in Problèmes et méthode ( 83 ) de l'histoire littéraire, Ed A. Colin, 1974, P. 69



العربي كان مضطراً ، تحت عوامل قومية ووطنية إلى عدم الاعتراف للاستعمار بجميل ، باستثناء ملاحظة عبدالله العروي الذي يعتبر هذا الاستعمار قطيعة بين عصر فيودالي وبين عصر الحداثة .

كما كانت الحروب ، التي قلبت وضعيات العالم ، وسيلة عنف ، لعبت دوراً بارزاً في تطور التيارات الأدبية العربية ، بل كانت أساساً لتغير الكثير من القيم الأدبية المتعددة ، تبعاً للتغيرات الاجتماعية .

وقد خلف الواقع الأدبي الجماعي أثاره على عديد من الأعمال ، التي تمثلها مقدمة سليمان البستاني للليادة ، وكتاب « تاريخ الأدب عند الإفرنج والعرب » ( 1902 ) لروحي الخالدي ، و« علم النقد » ( 1907 ) لقسطاكي الحمصي ، و« البلاغة العربية » ( 1931 ) لأحمد ضيف ، وأخيراً مقالات المجلات العربية ما بين 1830 و1960 ، وقد انطبع هذا الواقع الأدبي الجماعي في ذاكرة الأدب العربي - القومي ، لهذه الفترة ، والذي نسج حول أصداء الآداب الأجنبية في الأدب العربي ، كما يعرض لها روجي الخالدي ، الذي يرى أن العلم الأدبي لا يمكن الإمام به إلا بعد الإنصال بآداب الدول المتحضرة ، كيفما كانت عموميتها عبر ترجمات الأعمال الكبرى ، التي تمنح فكرة عن الفكر الحر . كما تظهر البلاغة والأسلوب والشعر وتميز المناهج الحديثة عن القديمة .

ولا تخلو ملاحظات روجي الخالدي من دلالة عن مكونات التيارات الأدبية ، بل يذهب إلى أبعد من هذا في دعوة الكتاب العرب إلى معاينة التقنيات الأدبية الأجنبية ، كشرط مسبق ، لأي استيعاب أدبي .

ودور اتصال الأدب العربي بالآداب الأجنبية ، هام جداً في إبراز بنيات أدبية جديدة ، عبر عديد من ظواهر المقارنات الأدبية ، على غرار :

أ - مداخلة عبد الرحمن أفندي أحمد في المؤتمر الحادي عشر للاستشراق 1897 حول مقارنته بين المعري ودانتي .

ب - مقارنة الشعراء العرب والفرنسي عند نجيب الحداد في مقالاته بمجلة « البيان » لسنة 1898

ج - مقارنات أحمد أفندي كامل بن :

- كبلبك والمسي

- هيجو وابن الرومي

- هيجو وعبد توفيق البكر .

ج - مقارنة بين البلاغين العربية والفرنسية لسعيد الخوري الشرتوني  
في مجله « المتططف » لسنة 1902 .

ج - مقارنة بين أنظمة التعبير لأدوارد مرقص في مجله « سركس » لسنة  
1901

ورغم أن جل المقارنات هي مقارنات ساذجة ، فإن انتشارها على إمتداد  
فتره أولى منذ أواخر القرن 19 ، يعبر عن رغبة عميقة في إقتناء أدوات  
إجرائية ، والإنفاح على مطورات معايرة . وقد أعطى هذا النزوع الفكري  
ولادة لصراع خفي تجسد في تجدد تيارات أدبية بالعالم العربي ، رغم جميع  
موافق الحذر والشك والرفض .

وفي هذا الإطار تندرج تجربة روجي الخالدي ، التي تحاول المقاربة بين  
المذاهب الأدبية بين العالمين العربي والأوروبي ، مبينا أسباب ظهورها ، رابطا  
إياها بعناصر تاريخية ، تستهدف خلق علائق بين الاداب الخاصة كعامل من  
عوامل النهضة ، بحيث يصبح أخذ الأدب العربي بجديد الاداب الأجنبية  
ظاهرة طبيعية وحنسية في كل نزوعات النهضة .

من ثم فإن إعجاب روجي الخالدي بفكتور هيجو والرومانسيين  
الفرنسيين كان ينطلق من منظور يعتقد أن الشعر روح تسبطن الوجود وتعبر  
عن جوهر جماله .

ونصبح المعادلة الي بدور حولها كتاب روجي الخالدي هي تلك التي  
ترى في كل تطور أدبي مظهرا من مظاهر التطورات الاجتماعية والسياسية ،  
من هنا جاءت مقاربه روجي الخالدي لتفتح مجال المقارنة بين الأديين العربي  
والفرنسي ، بدعوى تقليص المسافات بينهما ، إذ :

« لا يكمل علم الأدب للمتبحر إلا بعد أن ينظر في أدب الأمم المتمدنة

ولونظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم ، فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الإدراك وبلاغة المعاني ، ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين طرق المتقدمين والمتأخرين ، فإذا أحاط بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم إصابته فيصوب نحوه القلم » .

ويفسر المواقف السابقة ظهور ذوق كلاسيكي يؤخذ المحدثين على خرق القواعد اللغوية وتشويهها عبر ترجمات الدوريات التي أساءت إلى اللغة العربية ، عبر ما تطلقه عليه بالتجديد . وقد تجسدت هذه المواقف في تأليف :

- أ - « لغة الجرائد » ( 1901 ) لإبراهيم اليازجي .
- ب - « تصحيح أخطاء لغة الجرائد » ( 1925 ) لسليم الجندي .
- ج - « أخطاؤنا في الجرائد والدواوين الشعرية » ( 1939 ) لصلاح الزعلاري .

وتكون هذه الكتب الثلاثة شهادات عن المناخ العام الذي سادته فترة ، عارض فيها الكلاسيكيون الحدائث المتهورة ، هذه الكلاسيكية التي يتصورها فهمي ماهر حسن عبارة عن وجه من أوجه الإنفاق بين النقيدين الكلاسيكيين : العربي والأوروبي بتبرير غريب يحيل على نبع مشترك بين العالمين ينتهي عند أرسطو ، ويتم تأثيره عبر قناتين يمثلها قدامة بن جعفر وهوارس .

ولا تهمنا قيمة هذا التأصيل والتفسير للكلاسيكية العربية في حد ذاتها بل يثيرنا فيها طريقة الإحالة على الغرب ، حتى في أشد المذاهب إرتباطاً بالهوية العربية ، إذ يرى فهمي ماهر حسن :

« وليس من العجيب أن يتفق النقد الكلاسيكي العربي والأوروبي هذا الاتفاق ، فنحن نعلم أثر الثقافة اليونانية في العقلية العربية ، وأثرها في كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » .

والعقلية الأوروبية أيضاً قد تأثرت بالفكر اليوناني ، فبالو قد اقتفى أثر الشاعر اللاتيني هوارس ، وهوارس ناقل عن أرسطو ، ومن هنا كان كثير من أوجه الإتفاق»<sup>(84)</sup> .

ويعود فهمي ماهر حسن لتأكيد على النبع المشترك للكلاسيكية العربية والغربية بالتركيز على حسين المرصفي كنموذج في كتابه « الوسيلة الأدبية » والذي يجد فيه استمراراً لتقاليد هذا المذهب في العصور السابقة على القرن 19 :

« نجد في القرن الماضي نفس نظرة الكلاسيكيين عند حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » الذي طبع الجزء الأول عام 1289 هـ والثاني عام 1292 هـ .

وجزوّه الأول خاص بأقسام البلاغة والثاني في فنون البلاغة . ويتناول الجزء الثاني إلى جانب الناحية النظرية جانباً علمياً ، فهو يتحدث عن مقاييس الجودة ، ويسوق أمثلة عديدة من شعر البارودي المعاصر له ومن شعر الشعراء القدماء ، ويعلق عليها»<sup>(85)</sup> .

أما النموذج الثاني في أطروحة فهمي ماهر حسن فهو مصطفى صادق الرافعي الذي يعلل لقوة المذهب الكلاسيكي وضعف ما عده ، بحكم الاعتماد على التيار الأجنبي ، الشيء الذي يضعف هذا الجديد لا لجدته أو قدمه ، بل لتغليب التيار الأجنبي وهكذا يرى مصطفى صادق الرافعي ، أن :

« العلة في الحقيقة لا ترجع إلى مذهب قديم أو جديد ، بل إلى الضعف في لغة والقوة في أخرى ، وأن صاحب المذهب الجديد أخذ بالحزم في واحدة وبالتضييع في الثانية ، وأكثر من الإقبال على شيء دون الآخر فتعلق به ، وأمضى أمره عليه ، وحسنت نيته فيه ،

( 84 ) فهمي ماهر حسن ، النقد الأدبي ، ص 58 .

( 85 ) فهمي ماهر حسن ، السابق ، ص 58 .

وإستمكنّت فصارت إلى نوع من العصبية للأدب الأجنبي وأهله» (86) .

وتعزز الفريق الكلاسيكي بكتب دافعت عن وجهة نظره بتأليف مصطفى صادق الرافعي : « على السفود » و« تحت راية القرآن » ، والزيات بـ « دفاع عن البلاغة » .

ومن العسير القول بتوقف التيار الكلاسيكي عند أسماء وأعمال بعينها ، لأن التيار الإحيائي لم يخطيء أغلب الأدباء ، بما فيهم المجددين الذين لم يتخلوا نهائياً عن الذوق والتراث الكلاسيكيين ، لحد أن اصطلاح النيو- كلاسيكيين كان أكثر ملاءمة من إطلاق اصطلاح الكلاسيكية .

وهذه النيو- كلاسيكية تكاد لا تكون حلقة لاحقة بالكلاسيكية ، بل مزمنة لها في نفس الوقت ، إذ نجد نماذج قديمة لها عند روجي الخالدي إلا أن الجديد في الظاهرة هو أن يجد لها جابر عصفور أصولاً عند أديسون في تبلور نظرية الخيال لديه .

والحق أن طابع الإصطفائية هو ما يغلب على هذا التيار النيو- كلاسيكي فهو لا يمتلك تصوراً مكتملاً ، بقدر ما تحفز دوافع نهضوية لتجاوز وضعية الإحباطات الذاتية :

« ومن الطبيعي ، والأمر كذلك ، أن يفيد الإحيائيون من تبلور نظرية الخيال النيوكلاسيكية عند أديسون - ( 1719 ) ( Joseph Addison ) ( 1672 ) وأن يفيدوا ، بالمثل ، من الصراع الذي دار بين الرومانسية والكلاسيكية في فرنسا ، في القرن التاسع عشر ، بحيث لا يفارق تعاطفهم الحقيقي المعطيات الكلاسيكية التي تتناسب ومعطياتهم التراثية التي تبنيها .

ولا عجب أن يكتب إحيائي ، مثل محمد روجي الخالدي كتاباً

---

( 86 ) مصطفى صادق الرافعي عن فهمي ماهر حس ، السابق ص 104 .

( 1902 ) ينتصف فيه للطريقة الرومانسية ( الرومانية ) فينتهي أمره إلى التحيز للطريقة الكلاسيكية ( المدرسية ) بل يختم كتابه بانقصاد شاعره الأثير ( فيكتور هوكو ) بسبب تعظيمه للأمور ، فيشبهه قريحة الشاعر الرومانسي بمرآة مكبرة ، تكبر الشيء المعكوس فيها ، وتجسمه تجسيماً خارجاً عن الحقيقة ، وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوكو - فيما يقول الخالدي - « إرخاؤه العنان للفة الواهمة والخيالية ، ولذا نجد في مؤلفاته مثل كازيمود » ومثل الرجل الضاحك من الأشخاص الموهومة التي لا توجد إلا في كتاب ألف ليلة وليلة وما كان على نسقه » . وانتقاد الخالدي للقوة الواهمة أو الخيالية التي لا تعمل على هدى من العقل إنما هو إنتقاد يتحرك منطقاً من تصورات أكبر ، جنحت به كناقذ إحيائي ، إلى الجوانب العقلانية من تراثه النقدي ، وشدته إلى المعطيات الكلاسيكية التي وجدها في فرنسا ، والتي لا تمثل تناقضاً أو تناقضاً مع معطيات تراثه الذي يتحرك منه . ولذلك يتقارب فيكتور هوكو مع أبي العلاء ، عندما تعمل خيلة الأول في رعاية العقل ، أما عندما تتجاوز هذه المخيلة منطقة التعقل ( الكلاسيكية ) فلإنها تقترب من معطيات تراثية تمحوها الريب فتصبح شخصية ( كازيمود ) ، مثلاً ، صورة أخرى من شخصيات كتاب ألف ليلة <sup>(87)</sup> .

وتعزز موقف روعي الخالدي بموقف الشدياق ، إذ تلعب النيو - كلاسيكية دوراً خاصاً في بلورة العلاقة بين التراثي والثقافة الإصطفائية ، في خدمتها لمبادئ مسبقة تساهم في تكوين تصور ثقافي عام عن مهمة النقد وصياغة الأسئلة .

ولا تقف تأثيرات الغربيين عند أديسون بل تتعداه إلى كولردج ووردزورث ووليام هازلت وهوبز وجون لوك .

ورغم إختلافات مشارب هؤلاء ، ما بين الوضعي والشاعري والفلسفي فإن جابر عصفور يعتمد عليها كإحدى مكونات اننيو - كلاسيكية عند الشدياق ،

( 87 ) جابر عصفور ، السو - كلاسيكية ، ص 56 .

الذي لا يتوانى عن مناقشة أديسون فيما يتعلق باعتماد فاعلية الخيال على حاسة البشر ، وهي مناقشة تركز على الموروث الثقافي الكلاسيكي .

وكيفما كانت الأهمية التي تحتلها مناقشة الأفكار الأجنبية في تحديد إنجازاتهم الأدبية فإن مجرد طرح هذه الإشكالية يعتبر كافياً في حد ذاته للتعرف على وجود تيار أدبي يحيل على حركة المد والجزر والأخذ والعطاء . . .

لهذا لا يرى جابر عصفور أي تناقض في توظيف جميع الإمكانات التي لا تتعارض مع قناعاته وتصوراته التراثية .

« لنقل أن المهم في الأمر كله هو أن يفيد الناقد الإحيائي من أي معطيات متاحة لا تمثل تنافراً مع تصوراته الأساسية أو معطياته التراثية . وما يقال عن الخالدي يقال عن سلفه الشدياق . لقد عاصر الشدياق ( 1804 - 1887 ) كولردج ( 1772 - 1834 ) ووردز ورث ( 1770 - 1850 ) ووليم هازلت ( 1778 - 1830 ) وغيرهم من أقطاب الرومانسية الإنجليزية ، ومن يدري لعله سمع عن نظرياتهم في الخيال . ولكنه لا يتوجه مباشرة إلا إلى النيو كلاسيين ، ويفيد منهم ، لأنهم في النهاية ، لا يمثلون تنافراً مع المعطيات التراثية التي يتبنها . ومن اللافت للانتباه أن نجد الشدياق ، في مقاله المبكر عن « التخيل ، يستعين بأديسون ، محرر مجلة المشاهد ( 1711 - 1712 ، Spectator ) التي صاغ فيها أفكاره المؤثرة عن مباحج الخيال في أوائل القرن الثامن عشر ، مستعيناً بفلسفة هوبز وجون لوك على وجه الخصوص .

بل من الطريف أن نجد الشدياق يناقش آراء أديسون ويفند بعضها على أساس من صلته بترائه الفلسفي . لقد ذهب أديسون ، مثلاً ، إلى أن كل فاعلية الخيال تعتمد على حاسة البصر ، لأن هذه الحاسة ، وحدها ، هي التي تمد المخيلة بالصور . وهذا هو ما يعترض عليه الشدياق الذي يقول : « زعم العلامة أديسون أن حاسة النظر هي وحدها المادة التي تمد المخيلة بالأفكار . وهذا القول ليس على إطلاقه فإن للحواس الأخرى إشتراكاً فيه ، فإن من ولد أعمى ، مثلاً ، لا يزال يسمى في

تخلينه تالف الأصوات التي انقطعت عند سماعه ، ولا يزال يعي في ذهنه وعقله الأشياء التي وقعت عليها حاسة لمسه . « وما يقوله الشدياق ، في إعراضه ، قائم على معطيات نراثية تؤكد أن التخيل ينشأ عن الصور التي نخزنها الذاكرة ، والتي نشارك فيها كل الحواس . صحيح أن التخيل متأثر بما بطراً على الحواس ، ولذلك يفقد الأعمى القدرة على التخيلات البصرية ، لكنه يظل قادراً على تخيل المسموعات والمشسومات وغيرها ، لأن التخيل ، في النهاية ، « تبع للإدراك الحسي » بكل مجالاته ، كما يقول إخوان الصفا وغيرهم .

إن الشدياق ، بصنيعه ذلك ، يجمع بين تقاليد متقاربة ، تتجانس فيها معطيات التراث العربي مع معطيات النيوكلاسية الغربية ، فيتدعم كل منهما بالآخر «<sup>(88)</sup> .

نلاحظ في شاهد جابر عصفور ندخل ثلاثة حدود أولها الشدياق ثانيها أديسون ثالثها إخوان الصفا ونكاد تستغرق هذه المعادله أغلب المعالجات التي نبحث عن إنقشائية لإفراز نظرتها المركبة ، في اعتمادها على سلطات رمزية متضاربة في تفاوتها الزمني بين التراثي والأوروبي والنهضوي ، وهي نظرة لا تستعصي على التفسير ، كما أنها تراهن على نظرة معرفية تحاول الخروج بمنطق وجود ثابت في الفكر وجدلية عصرية تجمع بين المتناثر فيها وما يتخلل عنه التاريخ وما يعود إليه ، إخوان الصفا الذين يعتفدون في تبعية التخيل للإدراك الحسي ، بما يقع من إخزان للصور في الذاكرة من جهة ، لا يختلفون تمام الاختلاف عن منظور أديسون الفلسفي في تصويره لإعتماد فاعلية الخيال على حاسة البصر .

وتعود أهمية شاهد جابر عصفور إلى تنبيهه إلى هذا الجانب الهام من معالجة النخيل عند الشدياق رغم استغراق جانب العرض له ، ومع هذا فاهتمامه بهذا النوع من المفارقة يعكس اهتمام جابر عصفور كذلك وإن كان

( 88 ) جابر عصفور ، السابق ، ص 56 .



لا يدخل في قناعاته ، إذ يظل الشرق وأوروبا موضوعاً مفضلاً لطرح إشكاليات تخيلية تؤكد بدورها على هذه الثنائية ، التي أصبحت شراً لا بد منه في نصوص وشواهد أغلب الدارسين العرب .

كما تظهر في نفس الوقت ردود فعل تنكر غامماً لمحاولات تكييف الوضعيات الثقافية الغربية سالتيارات الأدبية العربية . ويوظف ضمير الغائب للتحديث عن حركة هؤلاء الذين يتأقفون دون أخذ اعتبار للمعريين ، الذين يخلقون وسائل للتدعيم موافقهم ، دون تسلل سلطة الأدب منهم .

وطنت ظاهرة الشعور بالجيل الأدبي ، وكانت تقوم على تحولات القيم الأدبية ومحاولات التجاوز بين جيلين يدعيان تأصيل الحياة الأدبية ، من مرجع لها إلى عنصر مطابقة الذات المبدعة ، وآخر إلى إقتباس الحاجات والوسائل الأدبية ، التي تتفاوت بين ألفة وغرابة يعبر عنها عبد العزيز البشري :

« ولقد يطلعون علينا بألوان من البيان لا ندرکها ، لأنها لا تتصل منا بسبب ، ولقد يريدوننا على إتحاذ نماذج لا لون لها ، لأن طبيعتنا غير طبيعة أصحابها وببئنا غير بيئتهم ، ولساننا غير لسانهم ، وكل شيء فينا مغاير لكل شيء فيهم »<sup>(١٨٩)</sup> .

والإعلان عن هذه الفطبعة ، لا يعني إنقطاع خطوط الرجعة ، إذ غالباً ما نكون هذه المواقف مجرد وسائل دفاع- ذاتية عن وضعية ريادة ثقافية ، لا يخدمها الطرف التاريخي ، الذي كان لصالح المحدثين المدعمين بصحافه ودوريات حازت كل اهتمام جمهور خرج متعباً من نظام الإجازة وذاكرة الملوح المحفوظ .

ولم يغف الفتح عند الكلاسيكيين والنيو- كلاسيكيين ، بل إرتادت مدرسة الديوان موجه تأثرية ، إنطباعية ، تركت وراءها معارك أدبية وعديداً من الأصوات والخصوم ، لأن :

« صلنا القوية بالثقافة الأوروبية قد عجلت في بداية هذا القرن بظهور

( ١٨٩ ) عبد.عز. - بشري ، حجرة لأدب معري ( مقال ) ١٩٩٢ أنظر محمد الكناش ٦٥٥

تيار آخر ، أخذ بسري قوياً متدفقاً ، هو التيار التأثري الذي أسسه في نقدنا العربي العقاد وشكري والمازني وحاول مندور بعد أن يطبقه تطبيقاً عملياً<sup>(٩٠)</sup> .

وهذا التيار التأثري الذي مثله الجيل الناشيء بعد شوقي ؛ عن تيار لا يحيل على ما سبقه في تاريخ الأدب العربي الحديث ، لاسته القراءات الأنجلوساكسونية والفرانكوفونية على السواء ، بما اجتاحتها م وضعى روج له وليم هازلت وغيره .

وقد ثارت حول مقال « عبقرية العقاد » مسألة الوحدة العضوية نكرت نسبتها إليه ، لأن العقاد لم يفهم منها سوى الوحدة المعنوية .

وثار التأثريون على الكلاسيكيين ، كما ثار غيرهم عليهم معتبر نظرة التأثريين نظرة لا تحكم الذوق ، معتبرين أن الذوق وحده لا يمة يكون حكماً عادلاً ، إذ لا بد من تقنين للنقد بحيث تصبح له أصول .

وبصعب تحديد الجدل الذي دار حول التأثري والعقادي إذ تكا المعارك تستهدف الأشخاص أكثر مما تستهدف التيارات من هنا لا نسته حين نجد تناقضات وتناقضات لا تغطي عليها غير الشخصية القوية كالعقاد أو طه حسين أو مندور أو . . .

ولم يكن وراء التيار التأثري مدرسة الديوان وحدها ، بل ضمت بعض عناصر مدرسة المهجر كميخائيل نعيمة ، والرومانسيين كهبكل الظاهرة تكاد تكون عادية ، إذ أصبح من السهل موضعة كاتب وع إطار مذهبين بدل مذهب واحد . وهكذا ظهرت إنتاجات تأثريه عرض ماهر فهمي حسن كالتالي :

« وأما المذهب التأثري فأهم كتبه هي « الغربال » لميخائيل ؛ و« مجدودون ومجترون » و« جدد وقدماء » لمارون عبود و« ثورة الأ لهيكل » و« الديوان » للعقاد والمازني<sup>(٩١)</sup> .

٩٠ ) ماهر فهمي حسن ، السابق ص 103

٩١ ) السابق ، ص 103 .

ولا تعتبر هذه التصنيفات نهائية ، وهي أكثر من هذا نسبية ، حيث تتداخل التيارات ، فالنأثرية تقاطع والمهجرية والرومانسية ، وهو تقاطع ، يفسره الرصيد الثقافي الذي يعود إليه الأدباء :

« نعود إلى أدبنا العربي الرومانتيكي ونقدنا التأثري ، فنجد نفس هذه الاتجاهات نجدناها نفسها هذه المرة لأن الشعراء الرومانتيكيين العرب قد تغذوا مع نقادنا التأثريين على الثقافة الرومانتيكية »<sup>(92)</sup> .

ونسجل هنا أن العقاد كمدافع متحمس عن الإنطباعية يشير رد فعل أغلب معاصريه - بجزأته - بمن فيهم طه حسين ، كما واجهت معركته كلاسيكية مصطفى صادق الرافعي ، على امتداد 1914 إلى 1934 .

بينما يواجه طه حسين أغلب معاصريه كالرافعي والمازني وزكي مبارك وهبكل وسلامة موسى وتوفيق الحكيم والعقاد ، خلال معارك امتدت ما بين سنة 1911 و1954 لتستمر بعد وفاته .

ولبلورة وجه خفي من الصراع بين الأجيال نسير إلى صراع الفرانكوفونيين والأنجلوساكسونيين ، وهي ظاهرة مرت دون إثارة تأويلات نقدية فالمعركة الأدبية الأولى بين الفريقين كما يعلن عن بعض معالمها العام العقاد في مقدمته لديوان المازني تموضع الصراع في مفهوم الجيل من جهة ومفهوم الغرب من جهة ثانية .

ويظهر أن معركة الأنجلوساكسونيين والفرانكوفونيين كانت طريفة ، لا في معركتها ولكن في تأكيدها لمصادر تأثرها ، فقد بدأت المعركة بنقد لمقال أنطوان الجميل الذي يفترض فيه تمثيل الفرانكوفونية ، وقام بنقده العقاد كممثل للأنجلوساكسونيين ، إذ تعرض هذا الأخير للمدرسة اللاتينية الفرنسية ، مؤكداً على أسلوبها في المجاملة على عكس جدية مدرسته ، وتبدلت التهم بين العقاد وطه حسين ، واتهم الأخير بالتشيع للفرانكوفونية ، إلا أنه يرى أن ما يطلق عليه العقاد تشيعاً ليس سوى تأثراً لا ينسيه جذوره

( 92 ) السابق ، ص 87 .

العربية ، كما فند طه حسين إتهامات العقاد ، مدافعاً عن رواد  
الفرانكوفونية .

والغريب في الأمر أن يعود العقاد ليثبت دين طه حسين للمدرسة  
الأنجلوساكسونية ، أكثر مما يدين للفرانكوفونية ، مما أدخل في الصراع سلامة  
موسى ومحمد علي غريب .

ومن خلال المقالات المتبادلة بين طه حسين والعقاد يسنوقفنا بص هذا  
الأخير لطريقته الخاصة في عرض أطروحاته ففي صفحته الأدب بجريدة  
( الجهاد ) 17 يناير 1933 كتب العقاد ( شوقي أو أسلوبان في النقد للاستاذ  
أنطوان الجميل ) :

« تقرأ الناقد الفرنسي فكأنا تتخيل أمامك ظريفاً باريزياً يقدم رجلاً من  
معارفه إلى ( صالون ) أو جماعات الأندية ، فهو في وصفه لهم يعرفهم  
قيمتهم ( العرفية ) ولا يعنى كثيراً بتعريفهم قيمته الحقيقية ، أو هو  
يعرفهم قيمته على حسب الأوضاع والمراسيم الجارية ولا يتلفت كثيراً  
إلى ما وراء ذلك من القيم الخفية التي لا يعنى بها في المجالس  
والعلاقات الاجتماعية وقد يومىء إلى عيب من عيوبه لتكون الغمزة  
نكتة مستملحة أو معرضاً للباقة التعبير والتوربة البليغة ، أو ليكون  
الدفاع عنها براءة في المحاماة والتجريح وليس من الضروري أن يكون  
براءة في تقرير الواقع والنفاذ إلى الحقيقة .

وأنتك لتقرأ الناقد الساكسوني فكأنا تتخيل أمامك دليلاً يرشدك إلى  
رجل يعينك أن تعانیه على جميع شأنه ، أو يرشدك إليه وهو على سجيته  
كما يكون الإنسان في قافلة السفر أو بين خاصه أهله أو منفرداً بنفسه ،  
فلا يتكلف لللبسه ولا مأكله ولا مظهره ولا يبرز للمجتمع في أجمل  
أزبائه . وقد يتكلف التكليف الإنساني الذي يلزم الإنسان في جميع  
حالاته ولا يتكلف الكلف الاجتماعي الذي وضع له أصول مرسومة  
وقواعد معلومة »<sup>(93)</sup> .

( 93 ) أنظر : عباس محمود العقاد ، شوقي وأسلوبان في النقد ، جريدة الجهاد ، القاهرة 17 يناير

كما أن فكرة الجيل كانت أساسية في هذه الصراعات :

« لقد تبوأ منابر الأدب فتية لا عهد لهم بالجيل الماضي ، ونقلتهم التربية والمطالعة أجيالاً بعد جيلهم فهم يشعرون شعور الشرقي ، ويمثلون العالم كما يتمثله الغربي ، وهذا مزاج أول ما ظهر من ثمراته أن نزعت الأقلام إلى الاستقلال ورفع غشاوة الرياء ، والتحرر من القيود الصناعية »<sup>(١٤)</sup> .

ويعود صراع الفرنكوفونيين والأنجلوساكسونيين إلى مكونات ثقافية ، يحاول كل فريق تبيان تفوق تلك ، التي ينتمي إليها ، في مواجهتها بالثقافة الأخرى - هذا المجهول - بما في ذلك الدفاع عن امتياز نخبوي محض ، وكانت القطرة التي أفاضت الكأس ، هي مقال أنطوان الجميل حول شعر أحمد شوقي كشاعر بمكونات فرانكوفونية .

ويغتنم العقد الفرصة لمهاجمة عنيفة لهذا التكوين الثقافي ، مما يثير حنق طه حسين الذي يتدخل للرد على حجج العقد الأنجلوساكسونية ، محيياً بالمناسبة رائدي الأدب الفرنسي سانت بوف وأناطول فرانس .

وفي مقال ثانٍ للعقاد يكشف هذا الأخير عن تأثير الثقافة الأنجلوساكسونية في كتابات طه حسين في كتابيه - « في الصيف » / « الأيام » - وهما سر تفوقه في اعتبار العقد ، إلا أنه يستمر مع ذلك في اعتبار التكوين الفرنسي كتكوين أدنى من التكوين الأنجلوساكسوني .

وفي جميع الحالات . فإن هذه المجادلات لم تضع التأثير والتأثر موضع شك ، بل تؤكد على العكس ، ولا تنفيه .

واستعرت معركة أخرى على مستوى سيكولوجية الأدب ، حيث يهاجم أنصارها الإنطباعيين ، زاعمين أنهم أقرب إلى المعالجة العلمية في الأدب ، وكان وراء الحملة محمد خلف الله وأحمد أمين اللذان نعتا الإنطباعيين ، بإفساد الذوق بحكم أنهم يحطمون الكلاسيكية دون إعطاء بديل معادل لها .

( ١٤ ) مذهبهم حس ، ناسق ، ص ١٠٦ .

ويتزعم هذه المعركة محمد خلف الله في كتابه :

( من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ) الذي لا يناقش في الحقيقة علمية أو ذوقية الأدب بقدر ما يؤكد على عنصر التأثير الغربي ضمناً كخلفية فكرية ، إذ تصبح كل معركة مناسبة لتحديد دور الغرب في تكوين التيار الجديد مما يجعل الجدل يتحول عن موضوعه الأساسي إلى العناصر المؤثرة .

وتؤكد هذه الظاهرة على شخصيات متزعمي المارك الأدبية من جهة ، وعلى مصادر ثقافتهم الغربية من جهة ثانية .

وهكذا يصوغ محمد خلف الله هذه القضية من خلال تعرضه بالنقد للإنطباعيين :

« أصحاب هذه النظرة يتصورون الذوق شيئاً مستقلاً عن العلم ، بل شيئاً يجب أن يبقى مستقلاً عن المعرفة المنظمة وعن التعليل والتحقيق .

فإذا نزع مؤلف ما من مؤلفي النقد إلى تقرير أسس عامة في الموضوع أو إلى شيء من التفصيل والتقسيم أو تنبه إلى وجهة نظر عامة يحاول أن يطبقها في نقده العلمي ، فزع أصحاب النظر الجزئي من عمله هذا ، وعدوه بسطاً لسلطان العلم على وادي الذوق ، أو تفلسفاً في ميدان تأبي طبيعته النظر والفلسفة . . . وقد يقرأون نظرية ما من نظريات النقد الغربي الحديث تنادي بالاعتماد على الذوق في فهم فني . . . غير إن نقدهم في الغالب لا يشبع فينا حاسة الإنصاف والحكم الصحيح من الوجهة النفسية »<sup>(95)</sup> .

ويفصل محمد خلف في نظريته بموضوعة الصراع في إطار نفي تيار لتيار آخر إنطلاقاً من نظرة تجزئية للأدب ، وهي نظرة تحاول نفي النفسي والجمالي والاجتماعي ، أي أنها تنفي التيار الذي تزعمه محمد خلف الله ومصطفى سوييف ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب وغيرها فيما يخفق

---

( 95 ) محمد خلف الله ، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد ، ط : القاهرة 1960

توظيف التحليل النفسي في دراسة الأدب . ويتناسى محمد خلف الله أن تياره يقع في نفس ما يقع فيه الإتجاه المخالف إلا إذا كان يعتقد في تداخل الاختصاصات حيث يرى أن :

« من أعجب العجب أن يكون بعض باحثي الأدب أنفسهم عوناً على إنتشار هذه الفكرة بما يذيعون وينشرون من أن دراسة الأدب ونقده ، يجب أن تقوم على الذوق المحض ، وأن تنأى كل النأي عن العلم ونظرياته . فكل محاولة لتجديد طرائق الدراسة الأدبية ومصطلحاتها عندهم جناية على الأدب ، وكل دعوة إلى توسيع ثقافة الناقد ودارس الأدب بالإطلاع على نتائج الدراسات الإنسانية الأخرى من نفس وجمال واجتماع ، تعتبر عندهم إقحاماً للعلم في الأدب ، وخطراً على الإنتاج الأدبي الحر ، لا بد لهم من أن يتدبوا لمحاربة وتحذير الناس منه . . . تلك النظرة الجزئية الناقصة تقوم على خطأ أساسي في فهم طبيعة النقد وفهم طبيعة الذوق الإنساني .

ويستشهد بآراء « ريد » التي يقول فيها إن علم الذوق لا بد له من قيم اجتماعية وخلقية <sup>(٩٦)</sup> .

وتشمل المعركة محمد مندور الذي يخصصها بمقالين ( الشعراء النقاد ) و ( المعرفة والنقد ) ، ففي الأول يكتب :

« نشر زميلنا الأستاذ محمد خلف الله مقالاً لهذا العنوان في مجلة « الثقافة » ( 1941 ) وقد وجدت فيه آثاراً واضحة لمنهج عام في دراسة الأدب ونقده ، لمسته غير مرة في أوساطنا الجامعية وغير الجامعية . ولما كنت أخشى أن يصيب حيائنا الأدبية بالعقم ، فلإني أبادر إلى مناقشته .

ولباب هذا المنهج ، كما نستخلصه من مقدمة المقال هو الدعوة إلى نقد

---

( ٩٦ ) محمد خلف الله ، السابق ، ص 123

تقريره يقوم على أسس من علوم الجمال والنفس والتاريخ والاجتماع»<sup>(97)</sup> .

وخلال رده ، يرجع محمد مندور إلى قدامة والقرن 18 في أوروبا ويقف عند أنسون على الخصوص ، حيث إنه لا يمكن معرفة النيذ بتحليله تحليلاً كيماوياً . . . بل بتذوقه عند لانسون الذي يستشهد به ، ويصبح حجر الزاوية في ردوده منتهياً إلى خلاصة :

« لقد كتب الأستاذ خلف الله نفسه عن « الذاتية والموضوعية في الفن » بالثقافة منذ أعداد فماداً أفاد الأدب من ذلك . وإنه لأجدي علينا أن يحلل لنا الأستاذ نصاً نتذوقه ( . . . ) وعندئذ ستكون أصدق وأعمق من كل ما تستطيع أن تمنحنا علوم النفس والجمال والاجتماع من أفكار أساسية في الأدب »<sup>(98)</sup> .

والطريف في الأمر أن يجعل محمد مندور لانسون وسيطاً في المعركة بينه وبين خلف الله :

« هذه هي أقوال لانسون وهي عندي تفصل في الخصومة فصلاً نهائياً ، فالذي نستطيع أن نأخذه عن العلوم سواء في ذلك العلوم الطبيعية أو العلوم النفسية التي أصبحت اليوم تصطنع مناهج العلوم الطبيعية كما هو معروف - هوروحها - وإما أن نأخذ عنها مبادئ وآراء وقوانين ، فهذا خطأ بل كارثة على الأدب . . »<sup>(99)</sup> .

إلا أن الأمر لم يحسم بين الإتجاه الذوقي والإتجاه العلمي ، فالإتجاه الأول يعترض على الثاني بكون حقائق العلم تتردد بين الصواب والخطأ بمقدار موافقتها أو عدم موافقتها للشواهد ، بينما يلتجئ الإتجاه الثاني إلى ترير يجد أن الذوق يختلف باختلاف الأفراد ، مما يبعده عن القاعدة .

( 97 ) محمد مندور ، في الميزان الجديد ، ص 162 .

( 98 ) محمد مندور ، السابق ، ص 171 .

( 99 ) محمد مندور ، السابق ، ص 166 / 167 .



وقد كانت إحالات الإنجهاين معاً تكشف عن أوراقيها فالصراع هو صراع مصادر ثقافية تبحث عن سلطتها في الوسط الأدبي العربي ، ونكاد لا نبالغ إذا قلنا بأن النخبة الثقافية تريد أن تجعل من نفسها وسيطاً شرعياً بين تيارات أوروبية وبين نقلاها إلى العالم العربي .

- فهل هي معارك لإضفاء الشرعية على هذه الوساطة ؟ .
- فهل نستطيع بعد حصول هذا البعد الزمني والمعرفي موضوعة هذا الصراع من جديد ؟ .
- ماذا تبقى من كل هذه الزوابع والتوابع النقدية الحادة ؟ .

للإجابة عن كل هذه الأسئلة لا بد من قراءة جديدة تعتمد على مفاهيم إجرائية ، تميز بين الجدالي والجدلي والثابت والمتحول والاستراتيجي والتكتيكي في المعركة الأدبية وإذا كان كل هذا لا يمثل جوهر مقاربتنا ، فإننا نسجل خلاصة لمحمد خلف الله ، نجدها ذات دلالة هامة في موضوعنا المقارن ، ذلك أن محمد خلف الله يعتقد أن الإنطباعيين يخدمون أنفسهم حين يفكرون باستقلال الذوق الأدبي عن العلم ، لتأثرهم في ذلك بالنظريات الغربية للنقد الأدبي المعاصر ، والذي ينزع إلى استثمار الذوق في فهم الفن .

والغريب في موقف محمد خلف الله هو إتهامه الإنطباعيين بالتأثر بالنظريات الغربية ، وهو تأثر بنطبق عليه كذلك ، إلا أن نتيجة هذه المعركة كانت حصيلتها : « في الميزان الجديد » لمحمد مندور و « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد » لمحمد خلف الله .

وما يجب تسجيله هنا هو دخول النقد الأدبي العربي في معارك طويلة كلما تعلق الأمر بالغرب ، إذ تلاحقه صورته منذ ولادته ، حيث يلاحظ أن الغرب يسكن أعماقنا ومناهجنا ومفاهيمنا وتياراتنا الأدبية التي تمر عبر لغة الغرب .

من ثم ، إرتبطت إتجاهات عديدة بأعلام أدبية ، وهي ظاهرة ، سبق أن ركز عليها إبراهيم سلامة ، تحت اسم العبقرية ، وهي مزيج من الأفكار الغربية الليبرالية والاشتراكية والتي وجدت صداها في كثير من الكتابات .

وهكذا إرتبطت بالعقاد وهيكل وطه حسين وسلامة موسى توجهات عديدة ، كالتالي :

- 1 - العقاد الذي كان يدعو إلى أسلوب عضوي يعكس الفرد العربي .
- 2 - هيكل بإدعائه استهداف روح العصر .
- 3 - طه حسين الذي اختار الدوران في ثقافة ليبرالية .
- 4 - سلامة موسى بدفاعه عن أدب إشتراعي على الطريقة الفابية .

وإذا كنا قد تعمدنا التركيز على بعض مظاهر الصراع الأدبي بين الاتجاهات - على سبيل المثال لا الحصر - فإننا نريد أن ننتهي إلى غمط من تنظير هذا الصراع عند محمد حسين الأعرجي تحت عنوان ( الصراع بين القديم والجديد ) وهي رسالة جامعية قدمت في بغداد ، وهي تفضل مصطلح الصراع على المعارك الأدبية ، ذلك أن هذه الأخيرة قد تكون ناجمة عن قضية غير ذات أهمية كبيرة ، كالمعركة التي دارت حول كتاب ( ابن الرومي ) للعقاد ، على حين أن الصراع يمكن أن يعني ظاهرة تلفت نظر أدباء العصر ، لاستهدافها تحويل المفهومات ، إلا أن هذه النظرة لا تحول دون أن تكون المعركة الأدبية نواة صراع ، حين تتسع .

ويعتقد محمد حسين الأعرجي أن فريقي الصراع ربما لا يعانيان نتيجة صراعهما ، لإمتداد هذا الأخير إلى أكثر من جيل أدبي واحد .

ولا ينسى محمد حسين الأعرجي تنبيهنا لذلك - وهذا شيء هام في نظرينا إلى رجوعه لبعض المصادر الأجنبية التي تتعرض للمدارس الأدبية ، كظاهرة إنسانية ، على سبيل الاستشهاد والمقابلة بالأدب العربي ، من ثم نخلص إلى سيطرة المصادر الأجنبية ، لا فقط على المصارعين الأدبيين ، بل على المنظرين لهذه المصارعات الحرة .

ويقف محمد حسين الأعرجي عند ثورات الشعر ، لأن الصراع الحاد لم ينشب على شعر المازني وشكري والعقاد وإنما نشب على شعر محمود طه وناجي وأبي شادي .

ومع هذا فتعليل الدارس لصدور ( الديوان ) يستلقت الإلتباه إذ يرى :

« إن صدور « الديوان » كان تعجل إنفجار الصراع بين القديم والجديد ، دون تقديم بديل شعري حقيقي ، ويعني أيضاً أن صدره مدين لثقافة العقاد الأجنبية ، قبل أن يكون تلبية حاجة اجتماعية قائمة في مطلع العقد الثاني من هذا القرن »<sup>(100)</sup> .

ويمكن أن نجد نفس هذا التبرير ، القائم على إرجاع مصدر التجديد إلى الثقافة الأجنبية عند ناقد ( أبولو ) و ( المهجر ) ، وهي نظرة تكاد تلازم أغلب الدارسين ، ولا تفارقهم إلا لماماً ، فتغليب العنصر الأجنبي في ظهور التجديد ظاهرة تستحق كل تحليل ، لأن رواج ربط كل تجديد بمدى إرتباطه بالغرب ، نزعة لازمت نهضة الأدب العربي الحديث ، ولم يستطع لحد الآن التخلص النهائي منها ، بل لا زالت تتعمق في وعي الدارسين ، ولا يمكن أن تفسر بغير هذا البحث عن السهولة في رد الصراع والتجديد إلى مجرد الترويج لذوق النخبة الثقافية ، ونلاحظ هذا واضحاً عند محمد حسين الأعرجي حين يتعرض لظاهرة الشعر الحر وحين يناقش معاركة ، المتردد بين ناعتيه بالثرية والإبتذالية والتكرارية ، وبين الباحثين عن السهولة في التعبير ، لحد نفي إنتمائهم إلى الحقل الأدبي العربي وتشبيهه بلغة الترجمة غير الموفقة :

نلاحظ إذن أن خلفيات المعارك الأدبية مشدودة إلى ثنائية غربية ، فالإخفاق الشعري لا يمكن أن يكون وراءه سوى الغرب ، كما أن التجديد هو ذاك القادم من الغرب .

فالخطاب الأدبي في معارك القدماء والمحدثين يغلف التناقض مهما كان مستواه - سلبياً أو إيجابياً - كما لا يجرجه رد أسباب الإخفاق والنجاح معاً ، في التجديد إلى نفس الغرب الذي هو مصدر العطاء والإنتكاس ، إذ يعرض محمد حسين الأعرجي لهذه القضية من خلال سلبياتها :

(100) محمد حسين الأعرجي ، الصراع بين القديم والحديد ، ط : بغداد ، 1976 ، ص 66 .

« أما القضايا التي روج لها أنصار القديم يؤخذون بها الشعر الحر فهي أنه » يشبه النثر بتفصيلاته غير المتجانسة ، وغير المنضبطة في نظام موسيقي » ، وأن لغته وصوره شعبية مبتذلة ونماذجه متشابهة متكررة ، يشيع في بعضها « الإيهام التعبيري والغموض الفكري » مما يجعله شعراً خاصاً بصفوة المثقفين ، على أن العصر هو عصر سيادة الجماهير ، وهو - بعد ذلك - « ليس بعربي ، ولا فيه تعبير عربي ، وإنما هو شبيه بالترجمة غير الموفقة » ويتخذ من التجديد ستاراً لهدم التراث العربي » (101) .

ويؤخذ أنصار القديم المجددين في تسامحهم اللغوي وتساهلهم في الأسلوب ، مما لا يفضي بالقارئ إلى أية فكرة واضحة بسبب غرابة أحيته وتعسف استعاراته وتشبيهاته ، ويرجعون كل ذلك إلى تقمص للقبالب والأشكال الغربية ، مما قطع بينه وبين الشعر العربي ، وهذه القطيعة يجدها القدماء في جديد شعر المجددين ولا يردونها إلى جهلهم للمواضعات الثقافية والثورات الفكرية ، لأن إتهاماتهم تقوم مقام الدفاع عن وضعيتهم ورصيدهم الثقافي والاجتماعي ، إذ لم يعد الجمهور نفس الجمهور السابق ، ولا وسائل التواصل نفس الوسائل السابقة ، من ثم كان إعلان الحرب أسهل من تأمل الخلفيات الحقيقية للصراع الهش حول قضايا الشكل والبناء والأوزان والموضوعات والغموض والوضوح .

إلا أن ما ينيف عن قرن من المعارك الأدبية العربية لم يحسم في طبيعة هذا الصراع ، الذي ظل مفتوحاً ، يتردد بين استعادة نفس القضايا والسقوط في نفس الطروحات ، وربما كان ذلك راجعاً إلى الطرح الخاطيء ، الذي كون شبه سلطة مرجعية ، كما لا يستبعد أن يعود الأمر إلى طبيعة الثقافة التي لم تستطع استيعاب التطور بالقدر الكافي ، أو أن المعركة الأدبية لا تجد في الواقع الاجتماعي والسياسي والفلسفي والمادي ما يدعم أطروحاتها المعرفية ،

(101) محمد حسن الأعرجي ، السابق ، ص 72 / 73 .

ومن هنا كان عليها أن تستند إلى أنظمة مكتملة نسبياً حين تجعل من الغرب مرجعاً أساسياً في جل تصوراتها - بجوانبها السلبية والإيجابية - وإلا كيف يفسر حضور الغرب بهذه الطريقة في المعارك الأدبية العربية على مستوى الممارسة كما على مستوى النظر ، حيث يصبح البحث عن الأدب في الغرب بحثاً عن الشرعية الأدبية التي تمر تيارات التجديد والتحديث ، إذ يستحيل قراءة أحمد شوقي دون استحضار شكسبير ودريدن في دراسات عبد الحكيم حسان وجمال الدين الرمادي ، كما أن عبقرية طه حسين والعقاد مسندة من رموز مصادرها الخارجية وحركات الشعر منذ الديوان ومروراً بأبولو والمهجر والشعر الحر والمشور تدين بالولاء لأمهات المذاهب الغربية وهكذا لم يعد شعراؤنا مسكونين بجني واد عبقر بل بشيطان الغرب الحالم بالتقليعات والموضات الجديدة .

وتصبح مذاهبنا وتياراتنا الأدبية بذلك صورة مصغرة لتقبل التأثير الغربي عبر النثر والشعر ، أي عبر نوع من الكتابة كان أكثر تقبلاً للتأثير - أي النثر - ونوع آخر - أي الشعر - كان آخر من احتضنه ودافع عنه ، بل حمله في تسميته . الشعر الحر - فالحرية جاءت من مغامراته وعلاقته اللاشعرية بهذا الغرب .

ولم يقاوم النثر العربي افتتانه بالغرب على عكس الشعر الذي صار طويلاً هذا التأثير قبل أن يخضع له ، وهي ما تدل عليه وضعية المدارس الشعرية العربية عند :

1 - مدرسة الديوان .

2 - مدرسة المهجر .

3 - مدرسة أبولو .

ويجد الشعراء العرب أنفسهم مرغمين على قطيعتهم مع الكلاسيكية ، للإستجابة إلى طسوحات الفترة المعاصرة ، والنماذج كثيرة في أشعار بدر شاكر السياب ونازك الملائكة اللذين ساهما في تجديد الإنشاج الشعري الحديث وتنظيره .

وهذا التغيير هو ما دعى جمال الدين بنشيوخ إلى أن يستخلص : « مرة ثانية ، ندرك الرجة التي أحدثها الشعر الأوروبي والفرنسي على الخصوص ، ونعطي ( هنا ) مثلاً واحداً لمؤسس المدرسة الرمزية اللبناني سعيد عقل والذي لسا في حاجة إلى بحث مصادر إلهامه ، لأنه يعلنها ( مجسدة ) في : بودلير ، وفيرلان ، ورامبو ، ومالارمي ، وفاليري ، وكلوديل . . . وما يطلق عليه فانسان مونتي بقوة خفية : « إقحام البنية الديكارتية في الأدبيات العربية دون خيانة لصوفيته » . ولا يدل هذا على المقارنة فقط بل هو تنقيب عن حطام . . . »<sup>(102)</sup> .

والرجة التي إجتاحت الشعر العربي وألقت به في أحضان التيارات الأجنبية تكاد تكون نتيجة طبيعية لمراحل متعددة ومتشابهة ومعقدة . فالشعراء العرب واجهوا دفعة واحدة وفي زمن وجيز جماليات لا تقتصر على نظم بسيط لمصطلحات ولكنها رؤى عالم معقد ، وهو ما لم يدركه الكثير من الشعراء لأنهم سيجوا أنفسهم في محيط مترجمات شعرية بعيداً عن سياقاتها الفكرية والفلسفية ، مكتفين باقتباس بعض التقاليد الشعرية ، ومن هذا المنظور حاول مناف منصور ، أحد المقارنين الشباب إقتراح منهجية قراءة مقارنة تستهدف تفسير ميكانيزم الرمزية الفرنسية في الشعر العربي :

« يظهر أننا نحلل ونقرأ الحركة الأدبية المعاصرة ( 1925 - 1950 ) في معزل عن الحضور الغربي عموماً والفرنسي خصوصاً . وهكذا فكل مظاهر حركتنا الحديثة لا يمكن أن يلم بها إلا إذا بحثنا في أصولها داخل الموروث الأدبي العربي إن أمكن ، ثم محاولة الكشف موضوعياً كيف توجهت إلى التواصل الفرنسي إذا كان ذلك وارداً ، للوصول إلى تمييز طبيعة شخصية وحضور الحركة الأدبية العربية الحديثة ، وهذه هي المنهجية الأدبية المقارنة الفعالة »<sup>(103)</sup> .

J.E. Bencheikh, de l'imitation à la création de littérature de langue arabe Actes (102)

VI ( L.L.L.C. ) ; P. 122

Manal Mañçur: Influence du Symbolisme Français sur la Poésie Arabe Mod- (103)

erne, 1925, Thèse Paris. P. 1.

وإذا كان جمال الدين بنشيوخ ومناف منصور يركزان على التأثير الفرنسي في الشعر العربي فمحمد عبد الحى ويوسف سعد يكشفان عن التأثير الإنجليزي ، الذي سبق أن أشارت إليه « بليوغرافية الترجمات الشعرية العربية في القرن 19 » ، إذ يعتبر شيلي ملهما على كل نقد أن يقرأه قبل أي تحليل للشعر العربي وعلى الخصوص بدر شاكر السياب الذي اعتبر كمعبر عن استيعاب التأثير الشيلي .

وهكذا يجد محمد عبد الحى تقابلاً كبيراً بين « أنشودة ربح الغرب لشيلي » و« أنشودة المطر » عند السياب .

وتأثير التيارات الأجنبية في العالم العربي وارد وليست النصوص هي ما يعوزنا في بيان ذلك ، إلا أن الإشكال الكبير يطرح نفسه على شكل السؤال التالي : كيف يتم استقبال التيارات ولماذا انتشار تيارات دون أخرى ؟ هل هناك تعديلات تمس جوهر هذه التيارات في العالم العربي ، وكيف تتم ؟ .

هل على الأدب العربي أن يفتح على الأدب المقارن إذا أراد إيجاد تأويل مقبول لهذه القضايا أم عليه الإكتفاء بوجهة النظر الواحدة ؟ .

وكنموذج للإفتتاح على الأدب المقارن يقترح صفاء خلوصي - وهو من رواد المقارنة العراقيين - جدولاً للمذاهب الأدبية العربية ومقارنتها بالمذاهب الغربية ، إلا أن السؤال المطروح ، هو ، هل يكفي إنجاز ما قام به صفاء خلوصي لحصر إشكالية المذاهب الأدبية في جرد نهائي للمذاهب ؟ .

كما يمكن التساؤل إلى أي حد يمكن التعامل مع هذا الجدول الذي يفترض تعاملأ مع كبريات التيارات الأدبية : الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية ، التي يؤرخ لظهورها بتواريخها كما عرفت به بالغرب أي 1660 / 1789 / 1833 / 1857 - على التوالي - ، كما يحدد مصادرها وأنظمتها السياسية واعتماداتها ودلالاتها ومجالاتها وصلاتها الدينية وظواهرها وأعلامها .





## II - إشكالية التأثير والتأثر في المقارنات العربية

« لا تُتَذَوَّقُ ، ولا تحتفظ الفترة الأدبية ، - حين تكتشف ، وتلتحق بها الأفكار والأشكال الغرائبية - سوى بالعناصر التي تمخضت بها ، تبعاً لتطورها العضوي الخاص ، في خضوع إلى رغبة وحس ذاتيين » .

فيرديناند بالدينسبرجر

« لا يغير التأثير الأجنبي الروح ، بل يمسخها ويحجرها »

د . هليفي

« كل أدب يعكس حاجته مرحلياً في الالتفات إلى الخارج »

جوته

« لا يعرف العرب اليوم أنفسهم ، ولا يمكنهم أن يعرفوها إلا في علاقتهم بالغرب »

ع . العروي



## أ - سيميائية التأثير

تهيمن على الأدب المقارن بمفهومه العام ، في العالم العربي ، دراسة التأثير والتأثر ، حيث تسيطر ثلاثة إتجاهات على أغلب الإنتاج الأدبي :

( 1 ) - ما قبل التأثيرات ، وتمثلها كتب الرحلات وولادة الصورولوجية .

( 2 ) - التأثيرات المتبادلة ، بشقيها : الصغرى والكبرى .

( 3 ) - ما بعد التأثيرات ، وتنحون نحو نوع من الإستقلالية .

وقبل مناقشة هذه التصورات ، لا بد من موضعتها في إطار إشكالية التأثيرات ، كما استقرت عليها آخر الدراسات الحديثة ، بادىء ذي بدء ، يمكن اعتبار التأثيرات حركة أنطولوجية ، تستهدف بكونيتها الحفاظ على حس مشترك ، وكميات إنسانية تتفاوت قيمها عبر العصور والفضاءات .

» من ثمة تلاحظ أنا بالاكيان أن :

« أغلب أكبر الأعمال الأدبية . . . ليست أصيلة تماماً ، فهي تعتمد على مصادر أخرى أوجدها آخرون ، ولا تعتبر في نهاية الأمر سوى نماذج روجعت بطريقة تحويرية »<sup>(1)</sup> .

وتطرح ملاحظة أنا بالاكيان الأمريكية ، مسألة الشائبة في الإنتاج ، الذي لا تعتبر كذلك إلا في إعادة الإنتاج ، وهو إنشداد بالضرورة إلى تلاحق الحالي بالسابق ، فالذاكرة اللغوية والتراثية تكاد تنفي عن كل إبداع إدعاء الإستقلالية عن النماذج المؤثرة - كيفما كانت مستوياته وأصوله

( 1 ) Anna Balkian, L'Originel et l'original, Nuance linguistique, Distance poétique, Actes du Congrès de l'A.I.L.C., T2, Fribourg, 1964. P. 1267.

## القومية والأجنبية .

فلا غرابة أن يبحث عن مكونات الإنتاج الأدبي عند دانتي وشكسبير وطفه حسين خارج فضائهم الأدبية ، وهو بحث يبرره وجود حس مشترك وعلاقات تاريخية أو لا تاريخية تدخل في حكم الصدفة ، هيأت لها مواضع في ثقافة الكاتب الأدبي .

من هنا ، فالتأثيرات تتخذ عدة أشكال في ظهورها ، وهي مباشرة وتاريخية في فترة النهضة الأدبية ، وهي ضمنية في فترة ازدهار الآداب ومواجهاتها لأنماط معرفية وحضارية متشابهة في كل تطور أدبي .

ولا ينسي الأدب عن تذكيرنا ببعثه المستمر عن جمالية مفقودة ، تعود أصولها الجنينية إلى مفهوم المحاكات ، التي تعمل كتذكر مبهم أو اقتباس أو تكرار أو معرفة نصية .

ومن هذا المنظور تستدعي ظاهرة التأثيرات تحليلاً لإنتشارها وإبداعيتها كشرط أولي لكل إلمام بدناميكيتها ، التي تفترض معالجة لأربعة عناصر أساسية ، هي :

- أ - أسباب التأثيرات .
- ب - مضمونها المنقول .
- ج - الوسائل المعتمدة في التأثيرات .
- د - مردودية عملية التأثيرات .

من ثم ، تمثل التأثيرات مظاهر الأعمال ، على حين تهتم الدراسات الجيدة - ربما - بنجاح عمل ما دون عمل آخر بدل التوقف فقط عند حدود التأثيرات التي أصابتها ، إذ يجب أخذ هذا العنصر الأخير بعين الاعتبار ، ذلك أن علينا أن لا نذهب فقط ، إلى حد الاقتصار على تقييم دور « المرسل إليه » في التأثيرات .

كما تظهر ضرورة الاحتراس من الحد الممكن والصدفوي في التأثيرات التي تحيل عليه مفاهيم الإنتشار والوساطة ، مما يجعلنا سجناء سيكولوجية المظهر الإخباري الكمي لمكونات عمل كاتب ما .

ويقترح علينا بول كورنيا ( PAUL CORNEA ) للخروج من هذه المتاهات والسراديب ، القيام بـ دراسة للتأثيرات من الوجهة السوسولوجية ، مبرراً هذا الاختيار ، بطبيعة الدرس المقارن ، في تلاؤمه وهذا النوع من الدراسات ، بفضل أدوات التحليل المتوفرة لديه ، :

« تأمل مكونات تأثيرها ، هو توضيح في نفس الوقت لطبيعة « المرسل » و « المرسل إليه » .

وعلينا أن نقبل بـ « توافقي يقوم كوسيط بين الحدين السابقين ، إذا ما رغبتنا في تحقق تواصل وانتقال ما ، حيث يرجع الأساس التجريبي ، والأكثر عالمية في هذا « التوافق » إلى الوحدة الأنثروبولوجية للأشكال التخيلية »<sup>(2)</sup> .

وتمثل هذه الوحدة الأنثروبولوجية للأشكال التخيلية « المفتاح الأساسي في كل تحقق للتأثير الأدبي ، فوجود هذا الأخير خارج هذه الوحدة يجعله فاقداً لكل فعالية ، وهذا الإدراك يسقط كل الاعتقادات الخاطئة التي يعلقها دعاة التأثير الآلي ، الذي لا يأخذ في اعتباره هذه « الوحدة الأنثروبولوجية للأشكال التخيلية »<sup>(1)</sup> .

فالتأثير لا يقتضي فقط وجود « مرسل » فعال وحده ، أو « مرسل إليه » مستعد للاستقبال ومنفرد ، بل لا بد من وجود حد وسيط يلعب دوراً أساسياً في كل تأثير أنثروبولوجي ، يراعي معطيات الوضعيات الثقافية التي تدفع إلى التأثير أو إلى التأثير في الثقافة « المرسل » أو الثقافة « المرسل إليها » .

وقد أشيع في العالم العربي نزوع آلي في تفسير كل إبداع أدبي جديد بمدى استغراقه في التأثير بالأنماط الغربية ، دون أدنى اعتبار للوحدة الأنثروبولوجية للأشكال التخيلية ، التي وجدت تربتها الخصبة أو استبعدت تماماً عن هذه التربة لغياب الوحدة السابقة .

---

( 2 ) Paul Cornea, Contribution à une sociologie de l'influence en littérature comparée, Actes VI, (A.I.I.C.) Page 732

وباستثناء مداخله كمال أبو ديب - في موضوع الحداثة - حول اعتبار التأثير الغربي عنصراً من بين العناصر ، فإننا نجد أغلب المحدثين - بما فيهم أدونيس - يعتبر استلهم مناهج وتفكير وأشكال الغرب وحدها القمينة بتحقيق إبداعية الإبداع ويكاد نموذج نقاش « مستقبل الثقافة في مصر » لطف حسين يطنى على كل التحاليل إذ يحدد عمق الارتباط بالغرب عمق الإبداع العربي .

وتجتمع الوحدة المستهدفة عند بول كورنيا بين المصير التاريخي ورؤية العالم والميراث الثقافي حيث تصهرها جميعاً الغزوات والحروب والمبادلات ، ساعة بذلك لـ « المتلقي » بتفكيك تركيب الخطاب الأدبي ، واعتماده كنمط ، يعاد إنتاجه أو يتم استيعابه فقط .

كما يكشف بول كورنيا عن تأثيرات أخرى لا تخضع جميعها لـ « التوافق » بل تتوزع إلى حلقتين : تاريخية ونمطولوجية ، تنعكسان معاً في مستويين ، هما :

- أ ( ) - مستوى تطوري ، لتوازي تواصلين متجاورين .
- ب ( ) - مستوى يبرز الثابت في قدرة الإبداع التخيلي .

وتعتبر الحلقة التاريخية المنعكسة في المستوى التطوري على وجود علاقات بين أدبين أو ثقافتين ، نتيجة الصدى الذي تخلفه علاقات القوى بين أدب كبير وأدب صغير أو بين دولة كبرى ودولة صغرى أو بين سلطتين رمزيتين .

وتدل الحلقة النمطولوجية المنعكسة في المستوى الثالث عن « الكليات الإنسانية » التي نصادفها في الآداب والثقافات دون وجود صلات مادية أو معنوية ، بل لوجود توجهات إنسانية وحس مشترك ، يمثل الخيط الرابط بين الفضاءات الجغرافية وقدرات الإبداع التخيلية المتباعدة .

والحق أن الحلقتين معاً تتكاملان ، في عمليهما ، ولا توجد بينهما قطيعة معرفية تجعل التأثير يعمل بإحدهما دون الأخرى ، وكل غياب لطرف يسبب خللاً في فعالية التأثير الذي لا يمكن أن يكون مجرد حقنة صالحة لكل عصر وفضاء ، لضرورة توفر شروط ذاتية وموضعية للاستقبال والإرسال .



وتبرز التأثيرات ، في شقيها التكنولوجي والثقافي ، كإنتاج لنمط يستطيع نحو الاختلافات ويؤسس لإستيعاب روح العمل الأدبي .

ويكاد الطابع المؤسسي يجعل من المحاكاة مصدراً للفن في التقاليد الأدبية ، التي تحيل مرجعيتها الأولى على الطبيعة أو المميزي ( MIMESIS ) ، بينما تحيل الثانية على البلاغة والأشكال المقتبسة .

وقد دفعت هذه الإشكالية هاسكل بلوخ ( H.M.BLOCH ) إلى إعادة قراءة للمحاكاة في سياق تطوري ، حيث :

« يمكن لمفهوم المحاكاة في النقد الأدبي - كما يتردد منذ ثلاثمائة سنة - أن يدرس بطريقة غير دوغماتية ، ولكن من منظور تاريخي ، لا كفكرة مفردة أو عالمية ، بل كتجسيد مركب لتنوع المعايير والافتراضات ، فأحياناً نجد المحاكاة مترابطة وغالباً متناقضة .

والحق أن كل توجهات مفاهيم المحاكاة في النقد المعاصر أو المتصلة بمفهوم المميزي تقع خارج شاعرية أرسطو ، التي تتقاطع ومراوية نظرية الإنعكاس عند أفلاطون .

كما استعمل مفهوم المحاكاة كطريقة لوصف التجربة الأدبية . ومن السخرية أن تكون فوتوغرافية مفهوم المحاكاة « التي حاربها أرسطو بشدة في كتاب الشعر » هي ما يستغل كمصدر مبدئي لمفهوم التشويه خلال وبعد النهضة »<sup>(5)</sup> .

يتبين من خلال طروحات هاسكل بلوخ إلى أي حد يمكن أن تتداخل مفاهيم التأثير والتأثر بالمحاكاة عبر تطوراتها التاريخية ، أي تحولاتها وتحويراتها وتنويع معاييرها وافتراضاتها ، التي لا تجعل من التأثير والتأثر مجرد آليات للأخذ والعطاء أو للإنتاج وإعادة - الإنتاج أو الاستنساخ والإبداع ، بل حركة أنطولوجية تربط الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل .

---

( 5 ) Haskell M. The Concept of imitation in Modern criticism Actes IV du congrès (A.I.L.C) 1964, Fribourg, t2, P. 705.



فلا غرابة إذن أن تستغرق مناقشات المحاكاة جهود عصور ودراسات كاملة ، وتصبح ثابتاً في التحولات الأدبية ، على مستوى الأجناس والنظريات والإبداعات .

ويظهر أن المظهر الخارجي للمحاكاة يشد الاهتمام أكثر من غيره ، كجواهر للإبداع والتأثيرات الأدبية .

من هنا يصنف يونك ( YOUNG ) مبدأ الميميزي كعكاس للمحاكاة إلى :

أ - نوع طبيعي ، يمثل الأصل .

ب - نوع كتابي ، عبارة عن مجرد محاكاة .

ويقود التصنيف إلى بحث عنصر آخر يرتبط بهما هو عنصر الأصالة الأدبية ، وهي ظاهرة كانت موضوع دراسات الأدب طوال حقب متعددة من تاريخ الاداب الوطنية . وهو موضوع حظي باهتمام هاناجيشوفا ( HANA ) ( JICHIOVA ) في تمييزها بين « الأصالة » و « الجمالية » ، إذ يبين :

« من خلال استقراء للرأي العام التصاق قيمة العمل الفني بأصالته ، وهذا يعني بأن كل ما ليس بأصيل لا يعتبر مقبولا ، من الوجهة الجمالية . ونصادف نفس الدوافع والموضوعات في الأعمال التي لا تخضع للتأثيرات المتبادلة . إذ غالباً ما يستغل كاتب موهوب فكرة مأخوذة من كتاب هزيل في إبداعه لعمل نملك حمالية عالية . ويمكن التدليل على ذلك بتحليل لأعمال أغلب الكتاب الموهوبين ، أمثال دانتي وشكسبير وجوته . . . إلخ .

ومن البديهي أن لا تعني الأسبغية دائماً ، الأصالة من الوجهة الجمالية ، كما لا تبرر الأطروحة التي نعتمد فيها الأصالة على الشكل أكثر من الموضوع الأدبي ، لإغراقها في الإلهام ، وإسحالة تكوينها لإنطلاق تحاليل جمالية »<sup>(1)</sup> .

( 1 ) Hana Jichiova L'œuvre question et L'œuvre réponse, Actes IV du congrès

( A.T.T.C - 1964 - Toulouse - F.N.P. 97 )

فالتخيل دون الإحالة على نموذج في تعريف الأصالة يضعنا أمام أصالة مطلقة ، ودون جدوى . على عكس الأصالة ذات العلامة المميزة لها ، والتي تمثل تعريفاً نسبياً . من هنا استهدفت الآداب تحويل المادة المقتبسة ، عبر مواضع تعتبر كمقاييس لأصالة مقبولة في بحثها عن جمالية أدبية ، تلنزم برؤية العصر الذي تنتمي إليه ، مما يقيها من مخاطر الاستنساخ المجاني .

وإذا كان الأصل يكسر عادات التقليد ، فإن سبل هذا التكسير تفترض تبني العديد من العناصر ، من بينها :

- أ - اللف أو تشويه العرف .
- ب - القلب والتحويل .
- ج - نقد العرف والسائد .
- د - إتقان تقنية ما .

ويصبح التقليد والتأثير مصطلحين أساسيين في الأدب المقارن ، حيث يمثل التقليد نتيجة للتأثير ، إذ يحس الشاعر والناثر بنقص لغتهما الحديثة بالنسبة للغة الأدبية الكلاسيكية ، من ثم يصبح التقليد وسيلة لتحقيق هدف ، يسخر ضمناً من سلطة العرف ، بإقامة سُلة مضادة ، تعتمد على قوة الحدأة والمواضعة الثقافية ، التي تظهر عبرها .

كما يعمل قلب وتحويل القيم على زحزحة المعارف والرائج وتكييف الأذواق ، بقصد تبنيها لرؤية المغامرة الأدبية . ولا يقف التأصيل عند هذه الحدود ، بل يعمل على نقد عنيف للعرفي والسائد ، معتمداً في ذلك على تقنية الحديث .

## ب - ما قبل - التأثيرات

« يجب قراءة جل كتب الرحلات الواردة علينا من الدول البعيدة بروح متشككة ، إذ غالباً ما تؤخذ الحالة الخاصة كحالة عامة . ومن هنا تبرز جل افتراءات الكتاب الرحل . . . .  
اتكلم هنا عن أولئك الذين يغالطون ، معتقدين الكلام عن الحقيقي والذين حين يشاهدون شيئاً خارقاً في أمة ما أو تصرفاً مشيناً ، يسوقونه كما لو كان تقليداً وقانوناً . . . . » .

### فولتير : مقالة حول التقاليد

« يعتبر عدد كتاب الرحلات المتوجهين من الشرق نحو أوروبا قليلاً ما بين 1800 و 1900 ، بالمقارنة مع عدد كتب الرحلات المنجزة في الغرب ، هذا بالإضافة إلى أن قصد كتاب الرحلات المشاركة ، المتوجهين نحو الغرب هو النهل من ثقافة متقدمة بانبهار ساذج . . . . » .

إدوارد سعيد : المستشرقون

نتساءل في البداية هل في إمكاننا تحديد إرهاصات المقارنة في كتب الرحلات الأدبية ؟ وكيف يمكن الحدس بالنزعة التجريبية المقارنة الساذجة عبر سيكولوجية الرحلات ؟ .

للإجابة عن السؤالين ، علينا أن نعود إلى رؤية الرحالة العرب ، هذه الرؤية التي ارتبطت تاريخياً بحوافز دينية ( كالحج ) أو الغزوات ( كالحروب الصليبية ) أو ببعثات علمية ( دراسية ) أو بمغامرات الاكتشاف الجغرافية ( لرسم خرائط العالم ) .

ويعكس مفهوم الزمان والفضاء في كتب الرحلات - عموماً - عدة محاولات ساهمت في إعطاء هذا النوع الأدبي شكله النهائي . كما يسمح موضوع الرحلات في الأدب بتجسيد المتخيل ، عبر نظام الرموز ، حيث تصبح التجربة المعيشة تاريخاً ، بينما تلعب الكتابة بالتخيل والتاريخ ، مواجهة في ذلك تارة بميشة وتارة بنوع من الحقائق .

وتتمو رغبة المقارن عادة تبعاً لريادة أدبية ، ومن الطبيعي إذن أن يبحث هذا المقارن عن تواصلات تحكم العلائق بأفراد آخرين ، مولدة بذلك موازنات طبيعية بين رغبة الرحلات وموهبة الأديب المقارن .

تسكن المقارنة إذن كل رحلة ورحالة ، تواجه فيها « الأنا » بـ « الغير » والحق أن الرحلة ، حتى ولو كانت حربية على غرار رحلة بونابرت ، التي تعتبر تغريباً ، في الآفاق الأخرى ، ونوعاً من الهروب إلى الأمام ، وهو هروب يفترض شبه إندماج وتكيف مع بنيات وقيم إنسانية كيفما كانت ظرفيتها .

ويجرب التغرب - كرد فعل داخلي - في نظر ز. ل. زاليسكي إلى موازنة بين الفضاء الأصلي والفضاء المقترح ، وهي موازنة تستدعي ، بشكل يستحيل تلافيه مقارنة ، إذ :

« توجد بعض التقابلات بين تصرف تفكير الرحالة دون مصلحة معينة ، وبحث المقارن عن مواجهة الأفراد والجماعات الأجنبية .

وهكذا يمكن توالد « سرايات » نرتعش بالحياة الإنسانية ، في أحيان كثيرة ، وتكون واقعية أكثر من الواقع غالباً ، وهي التي ملأت عزلة جان ماري كاري ، العالم والفنان والرحالة »<sup>(7)</sup> .

ومن غير المستغرب أن يكون جان ماري كاري هذا ، هو المؤسس والأب الروحي للرحلة والرحالة إلى الشرق ، كما يعود إليه سبق إذكاء الرؤية عند المشاركة العرب ، بدفعهم إلى دراسة رحاليهم نحو الغرب - بواسطة تلميذه أنور لوقا الذي تابع خطاه إلى آخر فضاء .

ومن هذا المنظور ، يمكن التذكير ، أنه وإلى بداية القرن العشرين تحول رجال الأدب العربي عن المقامة وشعر المدح ، لتبني قوالب جديدة كالرحلة التي لم تكن نوعاً خالصاً عند أنور لوقا ، فهي :

« تمزج التسجيلات الوصفية والإنشائية التعليمية بالحكاية والتسجيلية ، كما يحاول أحمد زكي تقسيم هذه الأنواع .

كما تولدت عن كتب الرحلات : المقالة والرواية فعرضت المقالة في أساليب مختلفة كتأملات أخلاقية واجتماعية وسياسية وأدبية . فرحلة ( تلخيص الابريز ) تتوزع إلى عديد من المقالات التي تأكدت عبرها براعة رفاة ككاتب مقالات في كتابات لاحقة ، كان من بينها ( مناهج الألباب ) و( المرشد الأمين ) . . . »<sup>(8)</sup> .

( 7 ) Z.L. Zaleski La Psychologie du voyage et la vocation de comparatiste, Page 110.

( 8 ) A. Lauqa Voyageurs et écrivains Egyptiens en France, Collection Etudes de Littératures Etrangères, Ed. Didier, 1970, P. 241.

ولا يغيب عن بالنا أن الرحلة أو كتب الأسفار عامة ، لم تكن لتندرج في الأنواع الكبرى ، ومع تصنيفها ضمن الأنواع الصغرى فقد سمحت بولادة ظاهرة ما قبل - التأثيرات العربية ، بربطها الاتصال بالغرب من جهة ، وبفضل المبادرات الفردية والجماعية <sup>(9)</sup> .

فبعثات محمد علي ، ما بين 1805 و1848 ما تزال علامة على طريق الرحلة الأدبية .

وقد خصت الرحلة بدراسات كتلك التي أنجزها عثمان موافي حول ( لون من أدب الرحلات ) ( 1973 ) أو تلك التي اهتم بها الأدب الجغرافي عند كثير من المستشرقين ، إلا أن هذا النوع لا يدخل في حقل اهتمامنا مع استثنائنا به لمعرفة بعض الآثار التاريخية للرحلة .

أما بداية الرحلة الحديثة عند العرب فهي تلك التي يثير الفضول نحوها كتاب جان ماري كاري حول ( الرحل والكتاب الفرنسيين بمصر ) ( 1940 ) والتي صدرت بالقاهرة وأعيد نشرها بعد حوالي العقدين بفرنسا ، وهو نشر يصادف مناقشة رسالة جامعية لأنور لوقا بباريز حول ( الرحل والكتاب المصريين بفرنسا ) ( 1957 ) ، والتي ظهرت طبعتها الأولى سنة 1970 ، بإهداء ( إلى روح جان ماري كاري ) .

يتبين إذن كيفية تحوير أطروحة جان ماري كاري عند أنور لوقا الذي يستلهم العنونة والموضوع والنوع الأدبي ، ملتبساً بذلك نزوعاً نحو تحقيق رغبة أدبية ، كانت تلح على مثقفي العصر ، وسيعترف أنور لوقا نفسه بأن رسالته ليست سوى صدى - بعد ثلاثين سنة - لعمل كاتب كان يطلق عليه : « الفقيد والأستاذ الكبير » . والذي لا يعود إليه فضل استلهم عنوان كتابه ، بل الإشراف على توجيه رسالته بالسوربون .

ولم يفت أنور لوقا بأن يسجل مفارقات الرحالة العرب والغربيين : حيث « يميز خط رئيسي تيارين من الرحل ، فعلاوة على جدة الموضوع الذي

---

( 9 ) Ibid. P : 241.



« نجد بين الرحل كثيراً من الصحفيين ورجال الأدب ، ولا نجاه كاتباً كبيراً قبل نهاية القرن 19 ، إذ كانت مهمة الأجيال الأولى للقرن 19 بعد ركود طويل هي زعزعة هذا الفتور بنوع من النجاح النسبي ، إذ لا يمكننا الحديث عن أعمال كبرى ، إذ كان الاهتمام منصباً على الحياة الثقافية الجديدة ، وهو ما كان يبحث عنه الرحالة بفرنسا<sup>(12)</sup> .

وإذا كان رحالة جان ماري كاري يترددون على مصر للبحث عن منظورات غرائبية ، فرحالة أنور لوقا كانوا في فرنسا يبحثون عن معطيات ثقافية : نظرية وتطبيقية ، وهذا ما يجعل إشكالية الرحلات العربية تختلف تماماً عن غيرها مما يدفعنا إلى إدراجها في حقتين :

أ - الأولى ، وتكتفي بملاحظة تجريبية ساذجة ، تنهر بالمظاهر الخارجية للحضارة الغربية .

ب - الثانية ، وتلخص الأعمال الغربية ، إنطلاقاً من قراءات استطلاعية وتعريفية .

ولا تتلاحق الحقتان ، كما عند أنور لوقا ونازك سابيارد ، بل تنقاطعان وتتداخلان ، ويظهر هذا جلياً فيما تم لنا من تجميع بليوغرافيا كتب الرحلات الأدبية العربية ، التي تجاوزت الثمانين عنواناً ، وقد حصرناها في رحلات العرب إلى الغرب فقط ، مبعدين عنها كل رحلة استهدفت فضاءات أخرى ، كما اعتمدنا نشر الرحلة واستبعدنا المخطوطات ، وقد قمنا بمجرد هذه الأعمال ، من خلال ملاحقة طويلة للنوع الأدبي .

يمكن إذن اعتبار كتاب الرحلات العربية رواداً لإرهاصات الأدب المقارن ، إذ تكفي متابعة اتجاهات رحلاتهم نحو الغرب ، لتكوين فكرة عن مدى مساهمتهم في التحضير لأرضية وممارسة الأدب الحديث ، عبر اقتباساتهم للأفكار والأشكال والأنماط الجديدة ، التي كان لها الدور الحاسم في ظهور الصورولوجية .

(12) نازك سابيارد ، الرحالون العرب وحضاره العرب ، ط . مؤسسه نوفل بيروت ، 1970 .



## بيليو غرافيا تسجيلية لكتب الرحلات العربية الخاصة بالغرب ما بين latique

البلد أو القارة	مكان الطبع	العنوان	الكتاب	السنة
أوروبا	بيروت	مصباح الساري ونزهة القاريء	أبن التجار إبراهيم	1849
روسيا	قسطنطينية	تحفة الأذكاء بأخبار بلاد روسيا	الطهطاري محمد عباد	1850
فرنسا	الجزائر	كتاب الرحلة إلى بلاد فرنسا	هيام سليمان	1852
—	—	—	أفندي إبراهيم	1855
—	بيروت	النزهة المشاهية في الرحلة السلافية	سليم بك موسى	1856
أوروبا	تونس	كشف المغبا عن كنوز أوروبا	فارسي	1866
فرنسا	باريز	الرد على الأفرنج	سليمان	1867
فرنسا	بيروت	رحلة إلى باريز	فرنسيس	1867
أوروبا	تونس	أقوم المسالك في معرفة الممالك	الترنسي خير الدين باشا	1867
إيطاليا	—	عشرون يوماً في روما	يوسف حبيب	1870
أوروبا	القاهرة	الكنز في السياحة في أوروبا	سركيس يوسف	1876
فرنسا	الجزائر	الرحلة القاضية في ماضي فرنسا وتبصير أهل البادية الجزائر	القاضي أحمد	1878

مالطا	تركيا	الوساطة في معرفة أحوال مالطا	الشدياق فارس	1881
—	القاهرة	مستعمل المحمل	صاوق محمد باشا	1882
اسبانيا	الرباط	التحفة السنية للحضرة الحسنية بالملكة الاسبانية	الكرودوي أبو عباس أحمد	1885
فرنسا /	تونس	الرحلة الأندلسية في الحضرة التونسية	التونسي علي الورداني	1887
اسبانيا	القاهرة	الدرز البقية في الرحلة إلى أوروبا	الماجوري كمد عمر	1889
المانيا	—	الرحلة البيرلينية	حسن توفيق العدل	1889
فرنسا	باريز	رحلة إلى اسبانيا لسفير مغربي	—	1889
فرنسا	باريز	حاميد الغرنسيس ووصف باريز	أبو نظارة يعقوب صنوع	1890
أوروبا	القاهرة	رحلة إلى أوروبا	سليم محمد شريف	1890
أوروبا	القاهرة	سفر السفرة إلى معرفة الحضرة	ديميري خلاط	1891
المانيا	—	رسائل البشري في السياحة بالمانيا	توفيق حسن	1891
أوروبا	مصر	إرشاد الخليفة إلى عحاس أوروبا	المصري أمين فكري	1892
أوروبا	القاهرة	رحلة مدير اللسان إلى الاسنة	سركيس خليل بن	1892
أوروبا	القاهرة	وأوروبا وأمريكا	خطار	1893
أوروبا	القاهرة	صنعة لأعبد مستودع الأمصار والأقطار	يوز محمد أنثوسي	1893
فرنسا	القاهرة	رحلة سفارة عند نابليون	نسويي أبو عبد الله بن سعيد	1893
السويد /	القاهرة	المؤاهب النقية في علوم اللغة العربية	فتح الله حزة	1895
النمسا	—	—	—	—
فرنسا	تونس	رحلة باي تونس إلى فرنسا	الحيا محمد	1895

آسيا /	القاهرة	رحلة الشتاء وال الصيف	كيرت محمد بن عبدالله	1896
وأوروبا				
أوروبا	تخاخرة	كتب الكركب مسيرة في مناسبات	بو نقارة يعقوب صنوع	1896
فرنسا	—	بديع مغربية بيرلير	بو نقارة يعقوب صنوع	1899
أوروبا	—	بهاية ، سينحة مصري في أوروبا	بو نقارة علي بشا	1900
أوروبا /	بيروت	مشهد أوروبا وأمريكا	الينس ادوارد	1900
أمريكا				
أوروبا	القاهرة	رحلة الصيف إلى أوروبا	البطنوني محمد	1901
			لييب بك	
أوروبا	القاهرة	سياحة في أوروبا	خلاط نسيم	1901
أوروبا	—	رحلة إلى أوروبا وجزر صقلية	عبدو الشيخ محمد	1902
إيطاليا	القاهرة	من مصر إلى مصر	باي فريد محمد	1902
روسيا	سان بيترسبورغ	Recit de Voyage d'un Arabe	—	1902
اليونان	القاهرة	فترة من الزمان في السياحة ببلاد اليونان	حافظ إبراهيم	1906
أمريكا	بيروت	رحلة أول شرقي إلى أمريكا	الباس ابن صفا الموصلي	1906
أوروبا	القاس	السياحة المتصورة في الانصار الغربية	السماني بول	1907
فرنسا /	القاهرة	سهاريج اللؤلؤ	البكري محمد توفيق	1907
النمسا				
الأرجنتين	—	١٥	كامل مصطفى	1909

فرنسا	القاهرة	رسائل مصرية فرنسية	البرنوص محمد علي باشا	1910
اليابان	القاهرة	الرحلة اليابانية	البرنوص محمد علي باشا	1910
أوروبا	القاهرة	منظر أوروبا العجيب وملخص رحلة نجيب	الجندي نجيب حسين	1911
أوروبا	القاهرة	رحلة إلى معاهد	ناهل نجيب بك	1912
اسبانيا	_____	رحلة إلى الأندلس	روحي الخالدي محمد	1913
أمريكا	القاهرة	الرحلة الأمريكية	باشا علي محمد	1913
_____	بيروت	في بلاد الناس	كامل عبد المجيد	1913
فرنسا /	تونس	البرنوص في باريز	الوطاني محمد القماد	1914
سويسرا	القاهرة	سياحة في روسيا	رشاد محمد بك	1915
روسيا	القاهرة	رحلة	تيمور محمد	1918
فرنسا	القاهرة	رحلة إلى أوروبا	رضا محمد رشيد	1921
أوروبا	بيروت	حول الكرة الأرضية	حنا جبار	1922
_____	_____	غرائب الغرب	كرد محمد علي	1923
فرنسا	القاهرة	الدنيا في أمريكا	أمير بقطر	1926
أمريكا	القاهرة	الرحلة العلمية	_____	1927
أوروبا	القاهرة	رحلة إلى غرب أفريقيا وإنجلترا	مرغني	1927
أفريقيا /	_____	_____	_____	_____
إنجلترا	_____	_____	_____	_____
أوروبا	القاهرة	دليل الأسفار ومرشد الشرق في دول أوروبا	رياض جيد	1928

أوروبا	—	الرحلة العلمية إلى العواصم الشرقية والغربية	فؤاد ضمن	1929
أمريكا	القاهرة	الرحلة إلى أمريكا	البطنوني محمد لبيب بك	1930
فرنسا	القاهرة	باريز	زكي مبارك	1931
أوروبا	القاهرة	ولسلي	محمد حسين هيكل	1931
فرنسا	تونس	الرحلة الباريزية	عمر عبد الرحمان	1932
اسبانيا	تونس	دليل الأندلس والأندلسي	الترنسي أبو بكر سعيد	1933
أوروبا	القاهرة	رحلة إلى تركيا واليونان ويوغوزلافيا وإيطاليا	توفيق حبيب	1933
فرنسا	القاهرة	باريز	الصاوي محمد أحمد .	1933
فرنسا	القاهرة	ليالي باريز	نزوة مسعد	1934
إيطاليا	—	أمير سوري في إيطاليا	شفيق غريال	1934
أوروبا	القاهرة	سائح في أوروبا	سامي الكايالي	1935
أمريكا /	القاهرة	جول العالم ، أمريكا بلاد العجائب ، إيطاليا الفاشية	نجيب مسعد	1936
إيطاليا	القاهرة	جولة في ربوع أوروبا	تابت محمد	1936
أوروبا	القاهرة	بين مصر وإنجلترا يوم في أوروبا	عطية الله محمد	1937
أوروبا	القاهرة	سائح في دول الشمال	خانكي جميل	1938
اسبانيا	القاهرة			

اسبانيا	طنجة	رحلة إلى اسبانيا	غساني محمد ابن عبد الرحاب	1940
اسبانيا (13)	العرائش	رحلة إلى اسبانيا	الغزال محمد بن المهدي	1941

( 13 ) Voir bibliographie chronologique des voyages arabes concernant l'Occident P.P. 177- 182. Les sources qui nous on servi pour établir cette bibliographie sont:

- A - Dictionary catalogue of the oriental collection ( travellers ) New York Public Library - Boston, Massachusetts 1961. U.S.A.
- B - H Frès : Voyageurs musulmans en Europe aux XIXe et XXe siècle, in Melanges Maypero III. Orient Islamique, PP. 69- 134.
- C - B. Lewis : The Musliman Discovery of the West. Bul. Of the School of Oriental and African Studies Vol. XX - London 1975. PP. 407-419.
- D - Chejne : Travel Books in Modern Arabic Literature, in: Muslim World, 1962. PP 207-215
- E - N. Suba'iyadi : Les Voyageurs arabes et la civilisation occidentale. ED. Mu'assasat Nawfal, 1979. P. 560.
- F - A. Luga : Les Voyageurs et écrivains Egyptiens en France. ED. Didier. 1970. France.

الرحلات تكشف عن انبهار بالكتاب الغربيين - وخاصة الفرنسيين - والافتتان بأفكارهم الليبرالية .

وهكذا نجد إحالات عديدة في ( تلخيص باريكز ) لرفاعة رافع الطهطاوي ، على كوندياك ( Condillac ) وفولتير ( Voltaire ) ورسو ( Rousseau ) ومونتسكيو ( Montesquieu ) كونت ( A. Comte ) الذين كيفوا فكر الرحالة .

ويتردد نفس هؤلاء الكتاب عند رواد آخرين كخير الدين التونسي في ( أقوم المسالك في معرفة الممالك ) ، الذي يجمل بدوره على ديكارت ( Descartes ) ونيوتن ( Newton ) وكورنيلي ( Corneille ) وراسين ( Racine ) وفنون ( Fenelon ) وجوته ( Goethe ) وشكسبير .

أما فارس الشدياق في ( كشف المخبأ عن كنوز أوروبا ) فيوقفنا على شاتوبريان ( Chateaubriand ) ولامارتين ( Lamartine ) وسويفت ( Swift ) ورابلي ( Rabelais ) وكولد سميث ( Goldsmith ) .

وقد تعمدنا التوقف في هذه النماذج على إلتئاماتها لفضاءات عربية متباعدة ، وتمثيليتها لنمط معين من الثقافة .

يلاحظ إذن بأن ما استرعى انتباه رواد الرحلات العرب ينصب أساساً على الكلاسيكيين بالدرجة الأولى ، والذين سكنوا تخيل عالم الرحلات العربية ، إلى جانب أوصاف الحياة اليومية الاجتماعية الغربية .

لقد أثار كتاب عصر الأنوار بدعواتهم الإصلاحية والتغييرية الكثير من الآمال عند كتاب الرحلات العربية ، الذين لم يكن الأدب بالنسبة إليهم سوى وسيلة لنقل الأفكار والدعوة إليها في حقوقهم الثقافية ، مع أن الإشكالية ، التي يطرحها كتاب الرحلة الشرقية تتعارض إلى حد بعيد مع تلك التي يقوم عليها كتاب الرحلة الغربية .

وهكذا تكشف المقارنة بين الرحلتين العربية والغربية عند كل من رفاعة

مرحلة تاريخية محددة . وكل منها ، إذ ينقل لقرائه حضارة الغير الغربية ، أي يترجمها لحضارته ، يساهم بدوره في صياغة هذه التوقعات والاهتمامات . . . وعلى كثرة تقارير الرحالة عن مصر والشرق العربي في القرن الماضي لا نجد مؤلفاً يمكن أن نقارنه من حيث المنهج والنوعية والأثر بكتاب المستشرق أدوارد وليم لين : « آداب المصريين المحدثين وعاداتهم »<sup>(14)</sup> .

ويضيف الدارس المقارن للرحلتين الشرقية والغربية ، واجداً

أنا :

« نتبين من العرض السابق مدى التفاوت في الأسباب والدوافع بين « الرحلة إلى الغرب » و « الرحلة إلى الشرق » فرافعة يرحل إلى فرنسا « كعضو بعثة » طلباً للعلوم الحديثة وبحثاً عن أسباب الحضارة والقوة ، أما « لين » فإنه يشد الرحال إليها مدفوعاً في البداية بروح المغامرة والاستكشاف . . . فوجهة رفاة هي حضارة العصر الحية المتطورة ، أما « لين » فوجهته الماضي ، وجهته آثار الماضي وحضارة الشرق المنصرمة . . .

دوافع رحلة رفاة دوافع عقلانية عملية ودراسية ، أما دوافع « لين » فهي في الرحلة الأولى دوافع ذاتية ونفسية لا عقلانية . وفي الرحلة الثانية دوافع دراسية .

ويحتفظ رفاة طوال إقامته في فرنسا - كما يؤكد علي مبارك - بزيه الشرقي وعاداته الإسلامية ، أما « لين » فما أن يصل إلى أرض مصر في رحلته الأولى حتى يخلع عنه رداء المدنية الغربية ، ويتنكر في زي تركي ، ويتحلل عادات الشرق وآدابه . . .

---

(14) خ. نجيب : الشرق والغرب ، ( فكر وفن ) ص 44 .



... كما تختلف أسباب الرحلة تختلف أيضاً دوافع كتاب الرحلة ،  
 فرفاعه لا يضع مؤلفه من أجل التعريف « ببلاد الفرنسيين » فحسب ،  
 وإنما أيضاً لحث « ديار الإسلام » على الأخذ بأسباب الرقي والحضارة ،  
 أما لين فيهدف بكتابه إلى تقديم صورة شاملة لعادات وآداب  
 « الطبقات العربية المتحضرة » أو الطبقات الوسطى في القاهرة قبل أن  
 يصيبها التغيير تحت تأثير المدنية الغربية <sup>(15)</sup> .

يظهر من النص السابق نموذج الرحلة الشرقية والغربية فهذه  
 الرحلة بين العالمين يكاد يوهم بالقطيعة النهائية على جميع المستويات ، باستثناء  
 جوهر الرحلة ذاتها ، التي تظل هي هي في العالمين ، من حيث إثارتها لمناخ  
 الموازنة بين تقليدين وفضاءين ومنظورين .

وتصبح الرحلة من ثم ، نوعاً أدبياً يفسح المجال لترسيخ تقليد الموازنة  
 بين عالمين وقيمتين وصورتين ، حتى في الحالات التي يقتصر فيها الراحل على  
 مجرد وصف العالم الجديد ، لأن هذا الوصف يخضع عن وعي أولاً وعي  
 لمنظور وثقافة الواصف ، الذي يعمل على تحويل لغوي ومفهومي  
 للمنظورات ، فلكي تصبح قريبة من القارئ المتوهم العربي لا بد أن تخضع  
 لسيكولوجية وسوسيولوجية الآخر - هناك .

وبالفعل فإن ظهور فن الرحلة إلى الغرب عند العرب كان مقترناً  
 بإحساس وحاجة ملحتين إلى تقديم الآخر - هناك إلى الآخر - هنا ، مع  
 افتراض للأبعاد المعرفية والفضائية بين العالمين ، لذلك كانت توجهات كتاب  
 الرحلة إلى التركيز على تقديم الأفكار والأعلام الغربيين من جهة ، وإلى  
 اختزال معالم العمران والسلوك في مجموعة من الأوصاف التذكارية التي  
 تلنقظها نظرات سائح مستعجل .

ورغم ما أنجز لحد الآن في مجال الرحلة العربية ، فإنها تظل موضوعاً  
 بكرة بالنسبة لمكونات المقارنة الأدبية عند العرب .

---

( 15 ) السابق ، ص 54 / 55 .

## ج - ولادة الصورلوجية

« يستدعي مفهوم الصورة ، الأكثر إبهاماً تحديداً أو افتراضاً عملياً ، يمكن صياغته كالتالي : كل صورة ترتبط بوعي ، كيفما كان حجمها ، وكذا بـ « أنا » في علاقة بـ « الآخر » وبـ « هنا » في علاقته بالـ « هناك » . وتصبح الصورة من ثم نتيجة لبعد دال بين واقعين ثقافيين .

كما تمثل الصورة واقعاً ثقافياً أجنبياً ، يكشف عبره الفرد أو الجماعة المكونة له أو مروجته ومتقاسمته ، عن الفضاء الأيديولوجي الذي يتموضع داخله .

دانيال هنري باجو

الصورة الثقافية من منظور الدراسات الأدبية المقارنة

من الأكيد أن كتب الرحلات العربية قد هيأت بوعي أو عن لا وعي لولادة الصورلوجية ( Imageologie ) ، وهذا الإدراك هو ما يدفعنا إلى تحليل ظاهرة تكون هذا التقليد في الأدب العربي .

وننطلق بادئ ذي بدء من إفتراض كون الصورلوجية مصاحبة لإنشاق الوعي الوطني ، الذي أخذ في تأويل معنى الآخر ( الأجنبي ) بطريقة مغرقة في الميثية ، بحكم خلخلة الاصطدام الحاد بالغرب لرؤية العرب إلى الأشياء والكين والإنسان .

ونسجل في البداية بأن الأعمال الأولى في الميدان الصورلوجي لم تكن تملك طابعاً ثابتاً ، إذ كانت تهيمن أيديولوجية الدفاع الذاتي على المقارنين باستثناء محمد غنيمي هلال وعبد المنعم شحاته ، اللذين حاولا الترويج للإرهاصات الأولى ، وتطبيق مقاربات منهجية لماريوس فرانسوا غويار (M.F. Guyard) وم. روبول ( M. Reboul ) وكلود بيشوا ( Claude Pichois ) ويحدد ماريوس فرانسوا غويار هذه المقاربة باستهدافها :

« البحث عن فهم أحسن للكيفية التي تنجز وتعاش بها الميثات الوطنية الكبرى في الوعي الفردي والجماعي ، ولعل هذا هو ما أحدث التغير في المنظور ، الذي كان - منذ عشرين سنة في فرنسا - وراء تجديد حقيقي للأدب المقارن ، فاتحاً لهذا الأخير إتجهاً جديداً في البحث »<sup>(16)</sup> .

---

( 16 ) M.F. Guyard, La Littérature comparée, PUF, 1951, P. 111.

ويظهر أن تغير المنظور وتجديد الأدب المقارن ، كما يتحدث عنها ماريوس فرانسوا غويار يقدمان وجهة نظر جد متفائلة عند عبد الجليل الحجمري ، الذي يرى أن :

« دراسة صورة مجتمع في الوعي أو في العمل الأدبي لشعب ما ، تطرح مشاكل منهجية للباحث إذ من غير المفيد إحصاءها ، بعد الذي قامت به الأنسة سيلفان ماراندون ( Sylvaine Marandon ) في الفصل الجيد والمخصص لهذا المجال من أطروحتها حول : « صورة فرنسا في إنجلترا الفكتورية » ويسمح هذا التحديد بتأكيد أنه وفي هذا الفرع - ( الصورولوجية ) - من الأدب المقارن لا يوجد منهج علمي قائم الذات ، إذ توجد فرق البحث التي تطور طرق تقصيها بقصد تقديم تعريفات مرضية للميث ، وللصورة ، وللقالب ، والنمط - الأثني ، وهي مفاهيم جديدة تنحت لإعطاء هذا العلم - المقارن - أداة صلبة »<sup>(17)</sup> .

وتصادف ولادة الصورولوجية ظهور الوطنيات الأدبية وانتشار الكتابات الغرائبية ، التي تبحث عن ميثية الآخر ، كما تكون لديها عبر التاريخ ، أو كما يتكون لديها عبر رحلات ومغامرات وخرافات تراثية ، روج لها عند ابن فضلان وابن بطوطة ولكنها أصلت عند نيرفال ورفاعة ، وغير هؤلاء من متصيدي صور الشعوب الأخرى ومنصديها عبر تمريرها في رصيدهم الثقافي والمعرفي المخالف ويصبح الإشكال الصورولوجي من ثمة إشكالاً لتكون الميث والصورة المعارضة لانا الكائن .

كما يموضع كلود بيشوا الصورولوجية داخل منظور تداخل - الدراسات :

« فهذه الصورة التي تكشف عن مجموع أدب ما ، ما هو تأثير فعلها على الصورة العامة التي يكونها شعب عن شعب آخر ؟ وطرح هذا السؤال

---

Abdeljalil Fohjomyr L'Image du Maroc dans la littérature Française Alger. (17)

SN I D. 1973, P 9

يفترض الإجابة أولاً عن سؤال : أي تأثير يمارسه الأدب على الرأي العام ؟ اننا هنا في مفترق طرق الأدب والسوسولوجيا ، والتاريخ السياسي والانتروبولوجيا الاثنية . . . ويكون المظهر المميز والسيكولوجي الصورلوجيا ، فالأول أساسي ، شبه فزيولوجي لتكون البنية التحتية والثاني أكثر غنى ويكون البنية الفوقية للسيكولوجية الجماعية» (١٨) .

وتسمح الرموز الأولية التي يخترعها شعب ليشير بها إلى شعب آخر ، مستغلاً في ذلك معرفة فطرية بامتلاك صورة عامة عن هذا الشعب ، من هنا كان على هذه الرموز الأولية أن تدرس على مستوى الشعوب :

« فالصورة تمثيلية فردية أو جماعية ، حيث تدخل عناصر ثقافية وعاطفية ، موضوعية وذاتية . فلا أحد من الأجانب يرى أبداً شعباً كما يرى به هذا الشعب نفسه . أي إن العناصر العاطفية تتغلب على العناصر الموضوعية ، بحيث تنتقل الأخطاء بسرعة وبأحسن مما تنتقل به الحقائق ، لهذا ألا يكون التاريخ المقارن لما نعتبره تاريخاً للأفكار مجرد ميثية ، مع استثناءات نادرة» (١٩) .

وتفتن الصور ، والميثيات ، والأوهام الأرواح ، بما تمتلك من سلطة الإقناع الخاصة بالحقائق . ويكشف النمط الثقافي المعتمد بمساعدة الصور مكونات المقارنة المنجزة في فضاء جغرافي أو بين شعوب تفرق بينها مسافات . وهكذا كان من بين من تعرض لدراسة الصورلوجيا في الشرق العربي من الأوروبيين ، فقد خصص مارتينو Martino فصلاً كاملاً للشرق الروائي في كتابه عن ( الشرق في الأدب الفرنسي خلال القرنين 18 و 19 ) ( 1906 ) ،

---

( 18 ) Claude Pichois et Rousseau Andre. M, *La Litterature comparée* ed. A: Colin, 1967, P. 90.

( 19 ) Ibid, P. 88.

وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ ينشر كاتب أنجلو ساكسوني : ( الإسلام في الأدب الإنجليزي ) ( 1939 ) .

وتطلعنا معالجة الأنماط الثقافية المشككة في كل مجتمعات هذه الفترة ، على تاريخ وانتشار الصورولوجية ، التي كان من روادها ج. م. كاري ( J.M. Carré ) وفرانسوا جوست ( François Jost ) وروني ريمون ( René Remond ) وجورج اسكولي ( Georges Ascoli ) وميشال كادو ( Michel Cadot ) وم. ل. ديفورنوا ( M.L. Dufernoy ) وقد خصت هذه الأخيرة الشرق بعمل هام يعتبر ركيزة الأبحاث المقارنة في هذا المجال . وتنصب دراسته على الشكل السردى للروايات والحكايات والقصص ، كما يتقصى بداية وتطور الخيال الشرقي في الفكر والأدب الفرنسي للقرن 17 إذ :

« منذ بدايات ( هذا ) الأدب ، والشرق تغلفه الأسرار ، وتزينه جماليات غير محددة ، مارست إغراءاتها على تخيل الفرنسيين . فمفهوم الشرق الذي تجمله الأحلام الزمردية للجنة الأرضية ، يظل لمدة طويلة مبهماً ، مما يحول دون الإبداع الحر للخيال الفانتاستيكي والفضم في روح الفنانين والرومانسيين .

فالأعشاب الفاخرة ، والأشجار ذات الأوراق الذهبية أو العاجية ، والفاكهة العجيبة والإسراف في منح الأحجار الكريمة ، هو ما يكون الخزائن التي يحبل بها الشرق الخرافي للشرق الأدنى . ومع أن الوثائق فيما بعد ستسمح بتصحيح هذه المفاهيم وتدقيقها ، إلا أنها لم تقلل من النشاط التخيلي ، بل غدت الأحلام ودفعت إلى تطورها »<sup>(20)</sup> .

وقد اقترحت م. ل. ديفورنوا كذلك رسم تاريخ ولادة الصورة

---

( 20 ) M.L. Dufe - L'Orient romanesque en france ( 1704 - 1789 ) renoy, Montreal, Beauchemin, 1946, P.9.

الشرقية عند الأوروبيين ، وهي مبادرة تكللت إلى جانب مبادرات أخرى بتعزيز الدرس الإستشراقي .

وإذا كان اختيارنا وقع على عمل م. ل. ديفورنوا ، فلأنه يحيط بإشكالية الصورولوجية الشرقية عند الأوروبيين من جهة ، ولتأثيره الكبير على المقارنين العرب اللاحقين من جهة أخرى ، وتكفي الإشارة هنا إلى جمال شجيد وترجماته دون إحالة لديفورنوا ، بمجلة المعرفة السورية .

ويظهر لنا من جهة أخرى بأن الدارسين العرب يعد م. ل. ديفورنوا استنزفوا الموضوع ، ولونوه بوطنياتهم وقومية العرب ، دون أن يتميزوا راديكالياً عن الرواد الغربيين . . .

ويعطينا الجدول الذي رسمته م. ل. ديفورنوا للأعمال الشرقية التخيلية من 1700 إلى 1800<sup>(21)</sup> فكرة عن سعة الفضاء الذي تحتله الصورة الشرقية - عامة - في الذاكرة الغربية للقرن 18 ، كما يمثل حافظاً الفضول المقارنين العرب ، ودفعاً لهم إلى البحث عن صورههم الخاصة : الحقيقية أو الخاطئة في التخيل الأجنبي ، سواء في قصص الرحلات الطوباوية ، أو في رواية النقد العام ، أو في الكتابات الكنائية ، التي تمارس نقد الجزئيات :

### جدول الأعمال التخيلية للشرق والمنشورة سنوياً بالغرب من 1753 . . .

1703 -- 2	99-1695 -- 11
1704 -- 2 ... 13 ... 24	1700 -- 4
1705 -- 1	1701 -- 1
1706 -- 2	1702 -- 4
1747 -- 7	1707 -- 4

( 21 ) Ibid. P. 343.

13 -- 1748	6 -- 1708
349 ... 71 ... 7 -- 1749	40 ... 16 ... 3 -- 1709
12 -- 1750	8 -- 1710
10 -- 1751	5 -- 1711
13 -- 1752	0 -- 1712
11 -- 1753	24 ... 24 ... 4 -- 1713
403 ... 54 ... 8 -- 1754	5 -- 1715
9 -- 1755	5 -- 1716
7 -- 1756	3 -- 1717
... --- 1757	6 -- 1718
11 -- 1758	84 ... 20 ... 1 -- 1719
438 ... 35 ... 8 -- 1759	2 -- 1720
7 -- 1760	2 -- 1721
13 -- 1761	9 -- 1722
5 -- 1762	4 -- 1723
7 -- 1763	107 ... 23 ... 8 -- 1724
478 ... 40 ... 8 -- 1764	2 -- 1725
19 -- 1765	... --- 1726
8 -- 1766	8 -- 1727
9 -- 1767	7 -- 1728
14 -- 1768	6 -- 1729
542 ... 64 ... 14 -- 1769	9 -- 1730
7 -- 1770	9 -- 1731
10 -- 1771	9 -- 1732
8 -- 1772	2 -- 1733
7 -- 1773	169 ... 99 ... 10 -- 1734
577 ... 35 ... 3 -- 1774	13 -- 1735
4 -- 1775	10 -- 1736
12 -- 1776	11 -- 1737
7 -- 1777	13 -- 1738
3 -- 1778	227 ... 58 ... 11 -- 1739
609 ... 32 .. 6 -- 1779	17 -- 1740
3 -- 1780	7 -- 1741
3 -- 1781	10 -- 1742
4 -- 1782	8 -- 1743
3 -- 1783	278 ... 51 ... 9 --- 1744
631 ... 22 ... 9 -- 1784	20 -- 1745



2 -- 1785	24 -- 1746
2 -- 1793	3 -- 1786
677 ... 11 ... 1 -- 1794	6 -- 1787
2 -- 1795	11 -- 1788
1 -- 1796	666 ... 35 ... 13 -- 1789
1 -- 1797	6 -- 1790
3 -- 1798	1 -- 1791
687 ... 10 ... 3 -- 1799	1 -- 1792

احتك العرب بأعمال الصورلوجيا الغربية إذن إلا أنهم لم يتخلوا عن رؤية مستمدة من الوسط الشرقي ، وبالضبط من أيديولوجيته .

وهكذا نجد اللبناني جوزيف أسعد داغر يناقش في باريز أطروحة حول ( الشرق في الأدب الفرنسي لما بعد الحرب ) ( 1937 ) حيث يحيل فيها الدارس غالباً على المراجع الفرنسية ، وهي حقيقة لا يخفيها ، بل يجعلها إحدى مرتكزات عمله إذ :

« كان من الطبيعي أن تكون المراجع الفرنسية لتاريخ الشرق عامة ، ولبنان وسوريا خاصة ، وبالضبط فيما يتعلق بفترة غامضة من هذا التاريخ ، أي القرون 15 و 16 و 17 ، ( كان من الطبيعي إذن ) أن تشد اهتمامنا إليها بطريقة متفردة ، وأن تصبح حقلاً لإستثماراتها . وقد سمح لنا عمل الجرد هذا بالحصول على عدد كبير من القصاصات : أكثر من 5200 ، والتي تحيل على أعمال كاملة أو مقالات المجلات . . . وكانت هذه البليوغرافيا الحلقة الطبيعية والمكاملة الضرورية لعمل م . ب . ماسون ( M.P. Masson ) حول ( العناصر البليوغرافية الفرنسية لسوريا ) المنشورة سنة 1919 »<sup>(22)</sup> .

---

( 22 ) J A. Dagher L'Orient dans la littérature française d'après guerre, Thèse - Paris 1967 PP. II. IV. V.

لقد منح جوزيف أسعد داغر طويلاً من المصادر الفرنسية التي عابجت الصورولوجية ، معتبرا العمل الذي أنجزه سرآة عاكسة بإخلاص لردود الفعل وللشائعات التي كانت لأحداث الشرق ما بعد الحرب في فرنسا .

ويذهب إلى أبعد من هذا مدعيا إمكانية العثور بعمله على وجهة النظر الفرنسية بمختلف فروقاتها ، وكذا المسائل المتعددة التي كانت وراء إنتفاضة الوطنيات الشرقية .

وبعد ما ينيف على العقد يناقش حسن النوي بياريز وبدوره كذلك أطروحة حول : ( الشرق الأدنى في الأدب الفرنسي ) ( 1953 ) ، وكان مدفوعاً لإختيار موضوعه بفكرتين :

- ( 1 ) - تقييم الموضوع بكل تعقيداته وسعته .
- ( 2 ) - تأكيد الموضوع على الطابع الغرائبي للشرق الأدنى .

ويوضح حسن النوي تطور الموضوع في الأدب الفرنسي ، منذ بداية الرومانسية إلى حرب 1914 .

ويتبين من خلاله غلبة الخطاب الأيديولوجي على الخطاب الأدبي ، إذ يتكفل بتذكير المشاركة لمسؤوليتهم تجاه الغربيين :

« فمسألة تفوق بعض الاعتقادات القديمة على الأشكال الحالية والحياة للوحداية السامية ، والتي طرحها الفلاسفة تعود للظهور مجدداً في كامل صخبها ، بالإضافة إلى المسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتق التشرقيين ، الذين يوهمون بإحياء إرث الأجداد بشرط اختياريهم كأساتذة وقواد وهذه النفحة الروحية هي ما يحتاجها العالم المعاصر .

ومن الغريب أن يناقش رجال الغرب قضايا الشرق ، قبل أن يعي أصحابه بالروح العميقة ولدة طويلة في نوع من الغفلة . أما وقد

أخذوا في الصحو ، فنرى من المفيد أن ندلهم على عمل الفرنسيين  
الرحل »<sup>(23)</sup> .

وكيفما كان أمر ربط حقيقة الشرق بالماضي - من وجهة نظر الغربيين  
الذين لا يتخلون عن أحكامهم المسبقة عبر القرون - أو ببساطة الشرقيين ،  
فمن غير المقبول رفضه لأولية العلاقات التركية التي تركت بصماتها على  
غرائبية الشرق الأدنى ، بدعوى موضعه ظاهرة الصورة في سياق تاريخ  
العصور الوسطى : أي صورة للشرق الأبهة والغنى ، إذ ان معرفة الشرق لم  
تكن تحول بين إزدهار الميثاث الخارقة حول موضوعه ، معززة سلطته  
الإغرائية .

ويعترف حسن النوتي بأن هذه الصورة تحورت مع الزمن :  
« إذ يكفي مقارنة « عربي » أغاني الإشارات التي تشير إلى محمد وأبولون  
وتير فاجان بمسلمي مؤرخي الحروب الصليبية ، لتكوين فكرة عن  
التقدم المنجز في معرفة الشرق »<sup>(24)</sup> .

ويرتبط هذا التقدم الحاصل في معرفة الشرق ، والذي يتحدث  
عنه حسن النوتي ، بالتطور التاريخي العالمي ، وظهور وعي وطني لعب دوراً  
حاسماً في هذا الإتجاه .

ويختار مؤنس طه حسين نفس إتجاه حسن النوتي ، ولكنه يتميز عنه  
بتشديده على المظهر الإسلامي للصورة ، حيث يصف في أكثر من خمسمائة  
صفحة ( الرومانسية الفرنسية والإسلام ) ( 1961 ) صورة الإسلام في الدول

---

( 23 ) Hasan al Nuti Le Proche - Orient dans la littérature Française, Thèse, Paris  
IV, F2 1953 P. 463,

( 24 ) Ibid, P 1.

الإسلامية ، رافضاً تسميات ( الشرق الأدنى ) و( الشرق الأوسط ) و( العرب ) ، وهي تسميات لا تعبر عن فكرة الإسلام في رأيه .

وجوهر الصورة عند مؤنس طه حسين هو الدين ، لأنها تشكلت إنطلاقة من المعارك التاريخية التي واجهت المسيحيين بالمسلمين ويؤكد الباحث المقارن هنا على المظهر الديني لإشكالية الصورة ، مؤكداً أن :

« الإسلام ، خلال الفترة الرومانسية ، كان في نفس الوقت تيمناً ومصدر إلهام وتعلّة للتفكير ، وهذا ما يشدنا إلى ( هذا الطرح ) . وا يمكن كافياً أن تمنح الديانة الإسلامية بعض الألوان - كيفما كان وضوحها - للمشاركة أو إلى تاريخ عرش ماتان . . . Reine du Matin وقد راعنا على العكس أنها أجبرت شاتوبريان على النقاش ، ولامارتيز على التفكير في المصالحة ، وفيني Vigny على التنفيذ وهيجو على الاستيعاب ، ونيرفال Nerval على التفسير والدفاع والحب في النهاية .

وإذا كان الأدب المقارن يقصد - بحسب قوله ملائمة - دراسة تسرب أفكار حضارة ما إلى حضارة أخرى فإننا نتمنى مقتنعين وعبر عديد من الهنات والفجوات المتعددة في محاولتنا ( هذه ) - وبالرغم من كل هذا أن نصل إلى توضيح الممر الروحي للحضارة العربية والمسلمة إلى الحضارة الفرنسية والمسيحية من خلال بعض الكتاب الرومانسيين »<sup>(25)</sup> .

ومن البديهي أن ما يهم الكاتب في الدرجة الأولى هو الخلفية الأيديولوجية للعمل الأدبي : أي الكيفية التي ينظر فيها إلى الإسلام كدين ، ثم يأتي بعد ذلك الوصف الأدبي .

وما يؤاخذ به مؤنس طه حسين المقارنين : ج . م . كاري وحسن النوني

---

( 25 ) Mu'nis 'Taha Husain Le Romantisme français et l'Islam, Dar Al- Ma'arif,

Liban 1962, P. 481.

هو تبنيها لوجهة نظر إستشراقية ، أكثر منها إسلامية ، لهذا يفند رأيها ، ويحمل على المظهر الغرائبي للشرق الذي يركزان عليه ، على حساب إغفال المظهر الروحي ، لإعتقاد مؤنس طه حسين في هذا المظهر الأخير كموضوع للرومانسيين ، إلا أنه يعترف مع هذا باحترام المقارنين للسياق التاريخي لموضوعها .

ويعقب مؤنس طه حسين :

« إذا كانت ألف ليلة وليلة تشد دائماً المخيلات وتساهم في غو العجائية والغرائبية في فرنسا ، خلال النصف الثاني من القرن الأخير ، فمن المقبول أن يفقد الإسلام تأثيره ، ويربح الشرق هذا التأثير بسرعة ، وباستثناء الأبحاث المتقدمة للإسلامولوجيين الفرنسيين ، فإن إهتمامات الأدب الفرنسي خلال القرن 19 والنصف الأول للقرن 20 تتحول في إتجاه آخر ، وإذا ما استمر نظره إلى الشرق ، ففي إتجاه العرائبي والغريب وغير- المسموع ، إذ يندر أن يتم النظر إلى الإسلام المحض »<sup>(26)</sup> .

ويمكن القول بأن دراسة الصورولوجية عند الجامعيين العرب تتم عبر نمط ثقافي - نجده عند رواد استشراق الجيل الأول للمقارنين الفرنسيين - يخضع لأدلجة وطنية وإسلامية ، لحد أننا سنواكب إخفاء كلمة « الشرق » لتحل معها تسميات قومية . . . وإنطلاقاً من هذا الإدراك يمكن توضيح نقطة منهجية ، تواجهنا في اللاحق من هذا الفصل من خلال تسمية الدول العربية ، ليختفي « الشرق » و« الإسلام » و« العرب » .

وهكذا سنواجه سلسلة من الأطروحات الجامعية كالتالي :

- ( لبنان في الأدب الفرنسي للقرن 19 ) لجميل فارس .

---

( 26 ) Ibid. P. 477.

- ( صورة مصر في الرواية الفرنسية والإنجليزية في القرن 19 ) لعبد المنعم شحاتة .

- ( صورة المغرب في الأدب الفرنسي ) لعبد الجليل الحجمري .

- ( تونس في الآداب الفرنسية للقرن 19 ) لعبد الجليل القروي .

وتعطينا جل هذه الأطروحات الأكاديمية فكرة عن الصورولوجية الوطنية بالعالم العربي ، مما يدفعنا إلى التفكير في أن الوطنيات المستقلة أخذت في البحث عن هويتها الشخصية ونلاحظ بالإضافة إلى هذا توجهاً جماعياً للمقارنين العرب إلى القرن 19 . وهو توجه لا يتم بالصدفة . كما أنه توجه غير مجاني . فاختيارهم للفترة : الرومانسية والكولونيالية يحمل أكثر من دلالة .

ولا غرابة أن تزدهر في نفس الوقت الدراسات السوسيولوجية حول ( صورة المستعمر ) و( صورة المستعمر ) ، مشددة بذلك على التطور والتغير الحاصلين في الثقافة العالمية .

ويدفعنا بحث الصورة الوطنية عند جميل فارس ، بتكتمه عن الأنواع الأدبية الكلاسيكية المعروفة ، إلى الاعتقاد في أن لبنان القرن 19 لم ينتج سوى كتب الرحلات ، بينما تحتل صورة هذا البلد مكانة متميزة في أعمال الكتاب الأجانب .

ومع هذا يرى جميل فارس أن لبنان يمثل على المستوى الثقافي مصدر إلهام الأجانب بجمال طبيعته التي سحرت الكثير من الكتاب إذ :

« من المفيد البحث عن حصّة لبنان في الرصيد الأدبي الغرائبي ، لأن الرحّل الذين يتقلّون إلى بلد ( شجر ) الأرز ، يعودون بصورة وإنطباعات وذكريات ، تركوها على صفحات خالدة »<sup>(27)</sup> .

وما يقدمه لنا جميل فارس هنا ، ليس هو الصورة الصحيحة عن لبنان ، ولكنها صورة لبنان يلهم ويؤثر في الآداب الكبرى ، على إمتداد الحقب :

---

( 27 ) Jafil Faris, Le Liban dans la littérature Française du 19e siècle, thèse, Paris

« فتأثير لبنان في الأدب الفرنسي لا يتوقف عند نهاية القرن 19 ، بل نجد على العكس في القرن 20 كتب رحلات شهيرة وروايات مستلهمه فقط من تاريخ أو الحالة الاجتماعية للبنان كالأعمال الكبرى لموريس باريس Maurice Barres (نقصي في بلدان المشرق) ( 1924 ) ، وهنري بوردو Henry Bordeaux كاتب (رحل الشرق) ( 1926 ) ورواية (يا ميلي تحت الأرز) ( 1923 ) ، و(سيدة قصر لبنان) ( 1925 ) لبير بنوا Pierre Benoit ويذكر لبنان في أعمال كثيرة أخرى»<sup>(28)</sup> .

وصورة لبنان هنا صورة سطحية - لأن جميل فارس يقف عند حدود جرد الأعمال الشاهدة بمصدرية لبنان للإلهام الأجنبي ، دون تعدي ذلك . وبعبارة أخرى فالمقارن هنا لا يمتلك فكرة محددة لطبيعة هذا الإلهام أو لإبعاده .

وتفسير الظاهرة في نظرنا يعود إلى فقر المكونات النظرية التي تتعامل مع مادة كتب الرحلات .

وعلى العكس من هذا نجد تمين بطرس واعياً كل الوعي بأهمية وغنى ميمثله ميدان التبادلات بين الحضارات في الأدب المقارن ، وهو شيء لا غنى للمقارن عن الإقرار به .

لهذا بموضع تمين بطرس دراسته قبل أن يخوض في نفس ما يخوض فيه جميل فارس كالتالي :

« لقد سمحت لنا دراستنا للبنان وسوريا في ( الرسائل الحكيمة والفضولية ) بتقدير أهمية وقيمة هذه الرسائل ، التي تعتبر شهادة إضافية عن الثقافة الواسعة ليسوعي القرن 18 . وتهمنا كذلك حداثة

---

( 28 ) Ibid, P 242.

التيمنات التي تعالجها والأضواء التي تلقيها على عاداتنا وإعرافنا  
ومؤسساتنا . . . »<sup>(29)</sup> .

ومن بين المقارنين الذين سقنا بعض أسمائهم ، يستوقفنا عبد  
المنعم شحاته وعبد الجليل الحجمري اللذين عرفا كيف يحيط بإشكالية  
الصورولوجية ، منمين عن تأمل منهجي ، يدل على خبرة بالمقاربات  
الصورولوجية الحديثة .

وبالفعل نجد عبد المنعم شحاته يعرض في هذا المجال منهجية عمل  
واضحة بما فيه الكفاية لمساعدة الباحثين المقارنين ، وتحليل القواعد والمبادئ  
المنظمة ، التي يقوم عليها عالم القص الميثولوجي . وتظهر هذه المنهجية  
كممارسة تبحث عن بلوغ بنية الخبر الميثي الذي يشتمل عليه كل قص .

من هنا يرى عبد المنعم شحاته أن :

« استعمال المعطيات التي يمنحنا إياها العالم الميثولوجي - في إطار  
المقارنة - لبعض القصص الإنجليزي والفرنسي ، حول موضوع مصر  
لا يعد لأول وهلة سوى استغلال - مدرك تحت زاوية ما - لأخبار  
سياق .

ومن هذا المنظور ، سنبحث في توضيح المظهر الميثولوجي الذي يشتمل  
عليه قص ما في علاقته بالأجزاء الميثية العاملة داخل كل قص ، ثم  
نقارنها فيما بعد ببنيات ميثية أخرى مغلقة في قصص أخرى ، بحيث  
تصبح القراءة المقارنة لهذه الأخبار الميثية مفيدة لنا »<sup>(30)</sup> .

ويكاد عبد الجليل الحجمري ينطلق من نفس المقاربة المنهجية ،  
مع تشديد على توضيح ضروري فيما يخص المغرب ، إذ يجب التمييز  
بين الصورة والميث . فإذا ما اعتبر الميث كعنصر مكون للشرق ، فلا

( 29 ) Tamim Butrus, Le Liban et la Syrie dans lettres édifiantes et curieuses des  
missionnaires jésuites au 18<sup>e</sup> siècle, thèse, Paris IV, 1967, P. 220.

( 30 ) A.M. Shehata, L'Image de l'Égypte dans le roman Français et anglais au  
19<sup>e</sup> siècle, thèse, Paris IV, P. IV



يمكن أن ينطبق هذا على المغرب ، الذي لم يكون أبداً وحدة أكيدة مع الشرق ، على الرغم من العديد من الأعمال الميثية المنجزة في الموضوع ، والتي تنتهي غالباً إلى مسودات تكاد تكون ساذجة .  
لهذا يقول الكاتب :

« صورة المغرب ، بالتأكيد ، لا الميث ، لأن المصطلح المحمل بالمفاهيم العاطفية ، عليه أن يحتفظ به لهذا المجموع الواسع والمخيف ، الذي هو الشرق الإسلامي ، ولكل هذه الحضارة ، التي تتواجه دينياً وفي مجالات أخرى مع الحضارة الأوروبية ، والتي أثارت الحقد والحماس ولم تثر أبداً اللامبالاة »<sup>(31)</sup> .

وحين يميز الكاتب هنا بين مفهومين ، فهو يستهدف بالدرجة الأولى فرنسا التي زرعت الخلط بجمعها بين صورة المغرب وصورة الشرق الخرافي والسري .

ويحافظ :

« المغرب في الوعي الفرنسي على الخطوط الأساسية ، لهذا الشرق الروائي التي ساهمت فيه كتب الرحلات من العصور الوسطى إلى الرومانسية. وأبدعته في فرنسا .

وقد تغذت هذه الصورة واكتملت بواسطة الأعمال التي استلهمت الحضارة الإسبانية موركسية والتي إختزلت إلى صورة مغرب ثائر ، وعدائي ، كآخر معقل لحضارة ترفض الموت »<sup>(32)</sup> .

يسمح هذا التوضيح المنهجي بموضعة جيدة للميثات والأحكام المسبقة التي تحول غالباً دون الانسنة والرؤية الحقيقية للإنسان .

ومن نفس هذا المنظور ينطلق عبد الجليل القروي لبحث الصورة التونسية ، عبر نظام تسلسلي لمختلف الشهادات التي تركها كتاب فرنسيون ،

( 31 ) A. Lahjomri, op. cit, P. 17.

( 32 ) Ibid, P. 19

جذبتهم المغامرة وحاضرة الباي ، وترددوا على تونس قبيل الحماية .

وتعطينا دراسة عبد الجليل الفروي بدون أدق شك فكرة عن الدور الخاص والأصل لما لعبته تونس في الحقل الفرنسي . ويطرح الكاتب كذلك دور البعثات المسيحية في مختلف تكون هذه الصورة أي عبر : النقوش والأركيولوجيا والتاريخ العام ، والحضارة والأعمال التخيلية .

ونلاحظ أن أغلب مقارن الصورولوجيا يستشهدون بكتاب أمثال ب .

لوتي ( P. Loti ) ( و ) الكسندر ديا ( A. Dumas ) ( و ) شاتوبريان ( و ) لامارتين ( و ) تيوفيل جوتيي ( Teophile Gautier ) ( و ) برنادان دوسان بير ( Bernardin de St - Pierre ) ( و ) أ. سوفريون ( A. Chevrillon ) ( و ) ج. ج. ثارود ( J.J. Tharaud ) ( و ) م. لوكلي ( M. Le Clay ) ( و ) بونجان ( F. Bonjean ) ( و ) جيرار دونيرفال ( Gerard de Nerval ) ( و ) كزافيي مارمي ( Xavier Marmier ) ( و ) فلوير ( Flaubert ) ، وماكسيم دي كامب ( Maxime de Camp ) وأنتول فرانس ( A. France ) ، تشارل شارل ( Butcher Charles ) ( و ) ديدسي شارل ( Didier Charles ) والفونس دودي Alphonse Daudet ( و ) هنري ديفريي Henn Duveney ( و ) جي دوموبسان Guy de Maupassant ويحتل جيرار دونيرفال مكانة خاصة في دراسة جميل فارس وكذلك عند عبد المنعم شحاته بعملية : ( الرحلة إلى الشرق ) ( 1841 ) و ( نساء القاهرة ) ( 1844 ) اللذين يوضحان اهتماماً خاصاً بصورة لبنان ومصر ، كما أثار شاتوبريان اهتمام مؤنس طه حسين وعبد المنعم شحاته ، بفضل إنتاجاته ، وبالضبط : ( الشهداء ) ( 1809 ) و ( الرحلة من باريز إلى القدس ) ( 1811 )

وهكذا يعتبر عبد المنعم شحاته ( الشهداء ) نموذجاً للرحلة ، بينما يرى مؤنس طه حسين من خلال قراءته لأربعة أعمال من شاتوبريان غير ذلك إذ :

« تسمح القراءة المتأنية لـ ( الرحلة ) ( 1811 ) على ضوء الأعمال التالية الكبرى لـ شاتوبريان كـ ( عبقرية المسيحية ) و ( مغامرات الخسر Abencerage ) ( و ) ( الشهداء ) بالتعرف على شيء ممكن ، هو بعض

الحضور للإسلام في جزء مهم من عمل كاتبنا . كيف ظهر للقاريء إذن هذا الحضور ؟ إن علينا الاعتراف بأنه كان غريباً جداً<sup>(33)</sup> .

ويقترّب مؤنس طه حسين كثيراً من لامارتين ، الذي عرف من منظوره كيف يلم ببعض الوقائع في استلهامه للألوان الشرقية :

« لم يحس لامارتين حدسياً بطاقة الشعوب الإسلامية فقط ، بل كان يريد عبر نبيل بمجهوده الأخلاقي والسوسيولوجي معارضة الحياة العشائرية للشرق ، - والملائمة للتأمل - بالحياة الموزعة للغرب . وقد أحس بعمق بأن ما وراء المظاهر وبعض الأعراف ، بأن كل ما هو مرفوض في الشرق محمود في الغرب . . . »<sup>(34)</sup> .

ويجمل المقارنون العرب في تعرضهم للصورولوجية على كاتب فرنسي آخر لا يقل أهمية عن الآخرين ، وهو فلوير ، في أعماله ( محاولة سان أنطوان ) ( مدام بوفاري ) التي فكر فيها بمصر ، (و) (سالمبو) التي يتطرق موضوعها إلى تونس .

وقد أثارت أعمال فلوير الكثير من المقارنين العرب في مجال الصورولوجيا . فعبد الجليل القروي يرى أنه :

« بغض النظر عن مراسلاته التلقائية ، والمهمة ، فإن تسجيلات فلوير « حول سالمبو » المكتوبة على المخطوط الصغير ، والمعنونة بالذاكرة العاشرة من قبل الطابع ، تجعلنا نتابع يومياً الوجود المتنوع وغير المستقر للرحالة الشهير في المحمية »<sup>(35)</sup> .

ويرى عبد الجليل القروي بالإضافة إلى هذا بأن فلوير ساهم باسمه الكبير أكثر مما ساهم بمضمون عمله في تجلية صورة تونس في الأدب الفرنسي .

( 33 ) Mu'nis Taha Husain, op. cit., conclusion.

( 34 ) Ibid, P. 186.

( 35 ) Abdeljalil Alqatawi, La Tunisie dans les lettres Françaises du 19e siècle, These, Paris, IV, 1969 P. 26

ويتهى عملياً العصر الذهبي لكتب الرحلات برواية ب. لوتي الذي خصته تيريز فلاح نجمة ( Thérèse Fallah Najmeh ) بأطروحة جامعية تحت عنوان ( المرأة المسلمة من منظور لوتي ) ، ويعزى اختيار هذا الموضوع إلى سببين :

« الأول يتوجه مباشرة إلى الكاتب ، والحق أن شرق لوتي ليس هو شرق المشاركة ، إنه التخلي عبر الواقع . . . وقد كان يستحيل على « رجل أجنبي » يتنقل باستمرار بحكم مهنته كباحر ، أن يستطيع تعريف الأدب الفرنسي بحقيقة امرأة الحريم . وهو ما ينصب عليه عملنا بتوضيح النقط الغامضة وعدم الدقة الذي أغنى عمل لوتي ، بحكم أصلنا الشرقي وسهولة اتصالنا ببعض الأوساط العاملة في هذا الميدان . . .

أما الثاني ، فينبني على الخطوة التي كانت للمرأة المسلمة عند الكتاب الأجانب . . . »<sup>(36)</sup> .

والحق أن المرأة المحببة ساهمت بتغذية السر الذي أحيطت به المرأة الشرقية ، والذي يمكن الكشف عنه عند الكتاب المشهورين ، لأنهم بالذات من نعى هذا الجانب الميثي والخرافي من الحياة الشرقية .

ونستخلص إذن من استعراض المقارنين في مجال الصورولوجيا مساهم الباحثين العرب في تنمية وإزدهار الصورولوجيا ، بفضل مكوناتهم الثقافية الجامعية الفرنسية - لإزدهار الصورولوجيا بها أولاً - التي لعبت دوراً حاسماً في توجيههم ، وكذا في اختيار كتابهم الغربيين .

كما يمكن أن نستخلص أن هذا الإزدهار الصورولوجي - المنجز في أغلبه عبر أطروحات جامعية - يصادف تاريخياً يقظة وطنية عارمة شملت العالم العربي من المحيط إلى الخليج .

---

( 36 ) 'Thérèse Fallah La Femme Musulmane vue par P. LOTI, Thèse, Paris IV,

## د - التأثيرات المتبادلة

« أول ما يتناوله الباحث الذي يريد أن يدرس نجاح وتأثير كاتب أو كتاب أو نوع أو أدب بكامله في بلد أجنبي هو إطلاع البلد الأجنبي على هذه الكتابات . وذلك ما يسمى بالانتشار ، والانتشار يتم أحياناً بدون وسيط ، أي بانتشار النص الأصلي نفسه ، وهذا نادر في البلد التي تكون معرفة اللغات الأجنبية فيها وفقاً على عدد قليل من الناس » .

فان تبيجم : الأدب المقارن

## 1 - التأثيرات الصغرى

نقصد بالتأثيرات الصغرى نموذجاً من الدراسات الماضوية ، التي ظهرت ، كرد فعل إيديولوجي لتبرير وضعية خاصة بالأدب العربي الحديث : هذه الوضعية التي توجهت إلى الغرب ، نقبس عنه . أما الوضعية النقيض فهي هذه التأثيرات الصغرى التي توجهت بدورها إلى نفس هذا الغرب - لا لتأخذ منه ، مقتبسة - بل لتبحث فيه عن الآثار العربية التي يفترض أنها كانت وراء نهضة الغرب الأدبية ، بل وظهور بعض أجناسه الفنية .

والملاحظة الأولى التي يخرج بها القاريء - العادي والمتميز - لدراسات التأثيرات الصغرى ، هو أنها تلتجئ إلى نفس هذا الغرب الذي تريد توريطه في الأخذ عن العرب ، لتستمد منه حججها ، التي كان المستشرقون وراءها ، في فترة من فترات تاريخهم ، إلا أن دعواتهم ما لبثت أن وجدت صداها لا لما تمثله من مادة جاهزة ، بل لهذا السبب ، ولأسباب أخرى ، لعبت فيها النهضات الأدبية الوطنية للدول العربية دوراً بارزاً ، أصبحت معه ثنائية النظرة ( الغرب / الشرق ) ، وهي نفس ثنائية المقتبسين ولكن بشكل معكوس .

لهذا كانت المحاور الأساسية للتأثيرات الصغرى - التي نضعها في مقابل التأثيرات الكبرى : أي محاكاة الغرب - تدور حول :

- أ - العلاقات العربية الغربية الكلاسيكية .
- ب - مسألة الغنائية الأسبان - عربية .
- ج - المصادر العربية للكوميديا الإلهية .

د - الأصول العربية للبيكارسيك والحكي الغربي .  
ولا نزع من هنا الإمام بكل المحاور ، ولا إعادة دراستها من جديد ، أكثر مما نهتم بمجرد المحاور وكشف طريفة معالجتها من زاوية الأدب المقارن ، لأن العودة إلى دراسة الموضوع لا تهمنا في حد ذاتها ، بقدر ما يهمننا إعادة - قراءة للاستراتيجية التي يتبناها السلفيون - الجدد في تقويم الأدب العربي ، وموضعها في إطار الأدب العام .

## أ - العلاقات العربية الغربية الكلاسيكية

تقدم السلفية الجديدة كتبرير على تأثرها بالغرب ، سبق التأثير العربي في هذا الغرب . ومن هذا المنظور جاءت قوله محمد عبده :

« لا نصنع سوى استرجاع ما اقتبسه غرب العصر الرسيط منا » .

وتحمل القول طابعاً إيديولوجياً يأتي كرد فعل طبيعي على البحث عن الهوية العربية ، من جهة ، وكتبرير لدوافع النهضة الأدبية ، التي تقتضي البحث عن عناصر دينامية ومحفزة في الآداب الكبرى .

ومن هذه الوجهة نجد عزيز سوريال عطية / محمد حميدو الله / محمد مفيد الشوباشي / أحمد رضا بك / عبد الرحمان بدوي / حسن الخربوطي / هشام جعيط ، يخوضون في نقاشات تتراوح بين الأيديولوجي والعلماني في بحثهم للظاهرة من المنظور التاريخ - حضاري .

وأول ما يواجهنا في معالجة هؤلاء هو غياب الإطار النظري المقارن ، الذي لا يشار إليه بأي وجه من الوجوه ، وهو طابع لا يغلب عليهم وحدهم ، بل يتعداهم إلى غيرهم .

ومن هذه الزاوية يقوم عزيز سوريال عطية بموضعة ظاهرة العلاقات العربية الغربية في إطار تاريخي واسع ، يصبح وحده المبرر الوحيد لدراسته :

« وهكذا نجد أن قصة تاريخ العلاقات بين الشرق الأوسط والغرب

كانت طويلة ومتقلبة متغيرة . فكثير من فصولها كان مملوءاً بالعنف ، وبعضها هادئ سلمي تضمن إسهاماً في مسيرة البشر نحو التقدم . إنه صراع هائل بدأ في التاريخ القديم واستمر بحماس ونشاط إزداد عبر العصور الوسطى والعصر الحديث . برغم أن مركز الأحداث قد انتقل عبر القرون وأسباب الصراع قد تغيرت في مظهرها الخارجي فإن الأسس الأولى تظهر علامات واضحة للاستمرار .

فعندما ننظر إلى الصراع العنصري والثقافي بين اليونان القديمة والفرس ، وقيادة الامبراطورية الرومانية للشرق والغرب ، ونهضة الخلافة الإسلامية وامتدادها وتوسعها حول البحر الأبيض المتوسط ، واندفاع الصليبيين واختراقهم للشرق الإسلامي ، ثم مناهضة الصليبية ، والسلطنة التركية بنفوذها وسيطرتها التي عملت على الوحدة الإسلامية ، نجد أن كل هذه الفصول تؤدي بنا إلى عتبة التاريخ الحديث . فإذا ما وصلنا إلى القرن التاسع عشر فإننا نفتح صفحة جديدة في هذه القصة التي لا تنتهي وندخل فترة جديدة لها معانيها الجديدة للمناطق الحاسمة في الشرقين الأدنى والأوسط <sup>(37)</sup> .

وتصبح الدائرة الهرمونيكية رمزاً لما يخوض فيه باحث العلاقات الكلاسيكية ، فإذا كانت هنالك علامات تماس بين حضارات البحر الأبيض المتوسط ، فهي مدعاة لاستعادة الأحداث - وخاصة تلك التي تشير إلى العصور الذهبية العربية - ، إلا أن مناهج الباحثين تتعطل تماماً ، وهي تقف عند حدود البكاء على الأطلال ، أي أن المستوى التأويلي يظل غائباً عن معالجات الأحداث التاريخية والظواهر الأدبية التي تولدت عنها . إذ لا يتم التعرف عن كفية الأخذ والانتقال والتحويل للأفكار والأشكال والعلاقات ، خاصة إذا كان الأمر لا يتعدى استعادة أقوال الغربيين - المستشرقين - فيما

---

( 37 ) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب - دار الثقافة - لبنان ، 1972 ص



يخص مسألة العلاقات العربية الغربية . فالمجهودات ، ليست مجرد قيام بفرز للتقريب الذي يعد اعترافاً غربياً غالباً ، من جهة والرد على التنكر للعلاقات العربية ، بأشكال متفاوت بين باحث وآخر ، من جهة أخرى .

ويعود محمد حميدو الله إلى بعض الأحداث التاريخية التي تبرهن على الصلة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، سواء عبر المراسلات ، أو التبادلات الدبلوماسية ، وفي مقاله عن ( وثائق جديدة عن علاقات أوروبا بالشرق الإسلامي في العصر الوسيط ) ( 1960 ) يرسم جرداً بالتبادلات بين العالمين خلال الفترة ، والتي تدور حول المراسلات التالية : «

- 1 - من امبراطور بيزنطي إلى الخليفة الوليد .
- 2 - تبادل السفراء بين المأمون وتيوفيل .
- 3 - من امبراطور بيزنطي إلى الحاكم العباسي ابن أبي الساك .
- 4 - من بيرث طوسكان إلى المكتف بالله ، وجواب المكتفي .
- 5 - من رومان كونستانتان وستيفان إلى الخليفة الراضي بالله .
- 6 - من كوستانتان إلى الفاطمي المستنصر .
- 7 - من ميشال إلى الخليفة الفاطمي المستنصر .
- 8 - توغريل بيك إلى ميشال ستراتيكيوس .
- 9 - زيارة سيف الدولة للأراضي البيزنطية .
- 10 - من ميشال إلى والد المستنصر الفاطمي .
- 11 - من امبراطور بيزنطي إلى الفاطمي المعز .
- 12 - من بازيل إلى تاج الدولة بصقلية .
- 13 - من ناصر الدولة بن حمدان إلى رومان ديوجين .
- 14 - سفارة لقسطنطين VII إلى المقتدر .
- 15 - سفارة لبازيل II إلى الفاطمي الحكيم .
- 16 - سفارة الفاطمية إلى رومان ديوجين بالقسطنطينية<sup>(38)</sup> .

---

( 38 ) Muhammad Hamidullah, Nouveaux documents sur les rapports de l'Europe avec l'Orient musulman au Moyen - Age, in. Arabica, fasc 3, T vii, Sept, 1960, PP 284-298

وبترقيم هذه العلاقة يعتقد محمد حميدو الله في اكتشاف قنوات العلاقات التي سمحت باقتحام التأثير العربي للغرب ، إلا أن نفس الوقائع التاريخية تكاد تتردد لدى الكثير من الدارسين لتاريخ العلاقات العربية الأجنبية ، بهدف توضيح أصالة وتفوق العرب على الغرب ، وهذا النوع من الزعم هو الذي أسقط العرب في تيار ماضوي عقيم إلى مفارقة هي أن العرب يعترفون ضمناً للغرب بما يرفضون الاعتراف به مباشرة ، فيما يعتقدونه دفاعاً عنهم .

ويتعزز هذا التيار الماضوي على يد علي حسن الخربوطي الذي يذكرنا في كتاب ( العرب في أوروبا ) ( ١٩٦٤ ) بتأثير العرب في بعض الدول الأوروبية كإسبانيا وفرنسا وإيطاليا ليوضح لنا فضل الحضارة العربية في تأسيس الحضارة الأوروبية ، في تبسيطة واختزالية ساذجة ، وفي هذا النوع من التأكيدات يذهب في نفس اتجاه الأطروحات الاستشراقية ، وبعبارة أخرى يوظف على حسن الخربوطي نفس الحجج التي قدمها الغربيون من أمثال ارشيبالد لويس (Archibald Louis) (و) سنيث بوس (Sinith Boss) (و) سارتيون (Sartion) (و) لوبوان جوستاف (Le Point Jostave) (و) ادام ميتز (Adam Metz) ، وهكذا تتبنى الأطروحات الاستشراقية للدفاع عن أصالة شرقية ضد تطور الغرب ، بطريقة ساذجة .

ويدافع من جهته محمد مفيد الشوباشي في كتابه ( رحلة الأدب العربي إلى أوروبا ) عن التأثير العربي معتمداً في ذلك على مصادر أولئك الذين يتهمهم بسرقة تراثه ، ولا يكتفي الكاتب بتبيان ما قدمه العرب للنهضة الغربية ، بل يذهب إلى تصحيح بعض المفهومات التي قادت في نظره إلى « الإنحياز الخاطيء » و« الاختلال » و« التبعية للثقافة الغربية » وكل هذه الحجج يستمدّها من أعمال روبير بريفا ( Robert Privat ) ( و ) دوزي ( Dozy ) ( و ) فرانسيسكو جابرييلي ( Francesco Gabrieli ) ( و ) غاستون باري ( Gaston Paris ) ( و ) فيليب حتيّ ( Philippe Hitti ) ( و ) رينان ( Renan ) ( و ) ج. بيديه ( G. Bedieh ) ( و ) دوساسي ( De Saey ) ( و ) جيب ( Gibb ) ( و ) غرونباوم ( Grunebaum ) .

وهذه الشهادات الساخنة تفرض علينا البحث عن شرعية هذه المقارنات الحزينة ، إلا أننا لن نتقدم بعيداً قبل الإشارة إلى عبد الرحمن بدوي في كتابه ( دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ) ( 1979 ) ، والذي يلتقي مع الباحثين السابقين في حوافزهم .

ويثير جل الكتاب السابقين مشكلاً خاطئاً من الأساس ، لأنهم يكتفون بتكديس الأحداث المفرغة من دلالاتها الحقيقية ومن جدليتها التاريخية .

وهكذا يرسم محمد مفيد الشوباشي خريطة العلاقات عبر مسارين : غربي وشرقي ، مقررراً إحتزال العالم الأوروبي إلى لا شيء ، وهو منظور يفترض في التأثير العربي إكسيراً ، يحمل الدواء للعقم الأوروبي ، ولا يدعم هذا الرأي بأية حجة ، مفرغاً إياها من سياقها التاريخي الذي وردت فيه بالمصادر الغربية التي اعتمدتها ، كما يخونه أسلوبه الوصفي في طرح الإشكالية ، قائلاً :

« هب تيار هذا الأدب الجديد على أوروبا من ناحيتين ، من الشرق العربي ، والغرب العربي . . . من سوريا ومصر في الشرق ، ومن الأندلس في الغرب . . . ومر في أثناء هبوه على أصقاع كانت ميادين أدبها مقفرة ، إلا إذا إستثنينا آثار أميته من الأدب اللاتيني ، وبدعاً بدائية من الأساطير الوطنية »<sup>(39)</sup> .

ولا تختفي اليد الثانية - أو عمليات الإستشهاد - في عرض العلاقات العربية الغربية ، إذ لا يمتلك وثائق أصلية يعتمدها ، بل يتبنى النتائج التي توصل إليها غيره - بييرديكس - دون أن يتساءل عن الخلفيات الفكرية لهذه النتائج ، لأن ما يهيم أساساً ، هو الحصول على نصوص تخدم أطروحاته المسبقة في التأثير العربي على الغرب . ويدفعه هذا الاعتقاد إلى تبني

---

( 39 ) محمد مفيد الشوباشي ، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا . طبعة . دار المعارف مصر

مزدوج للسليبي والإيجابي في تشكل خطاب بيرديكس ، وهو شيء يصعب تلافيه لغياب الأصول التي أنبت عليها الأطروحة الغربية ، التي يقدمها محمد مفيد الشوباشي كالتالي :

« وأشار « بيرديكس » إلى إتصال العنلييين بالغرب وأثره في ميداني الاقتصاد والفكر إذ قال : « نحن لا نستطيع أن نحدد طبيعة اتصال العنلييين بالغرب ، واحتكاكهم بالحضارة العربية ، ولكن الذي لم يعد مجهولاً هو ما أسفر عنه ذلك الإتصال والإحتكاك من نتائج في عالم الاقتصاد والفكر ، وما تبع ذلك من تطور طرأ على ذوق الأوروبيين الحضاري ، وبهذه المناسبة نشير إلى إتجاه معاد للعرب يحاول في غير وعي أن يتحاشى ، عند التعرض لتاريخ الأدب الفرنسي في العصر الوسيط ، ذكر ما أفاده ذلك الأدب من مقومات الحضارة العربية الشرقية والأندلسية »<sup>(10)</sup> .

إلا أن ما يلفت الإنتباه في هذا النوع من الإحالات على الدارسين الأوروبيين هو أنها جميعاً تلتقي عند هدف واحد ، استغله أغلب المعالجين لموضوع العلاقات بدون إستثناء ، ويتجلى هذا في الإعتقاد الأعمى في حقيقة المعلومات وقديسيتها من جهة ، وفي طابع التباهي بالأبجد الزاهرة ، دون أدنى طرح للأبعاد الاستمولوجية للقضية ، من جهة ثانية .

وحين يعلن أحمد رضا بك عن كتبه القيمة التي تخص الموضوع ، فهو لا يوضح نوعيتها ، إلا أنها في الغالب كتب غربية تتحدث من وجهة مخالفة للمعهود في التنكر للتأثير العربي .

فكيف يمكن إذن البحث عن التأثير العربي في الإعتراقات الغربية وحدها ، دون عودة إلى مؤرخي الأدب العربي لتلك المرحلة .

ويلتقي محمد مفيد الشوباشي مع أحمد رضا بك في أنها - معاً - ينطلقان

( 40 ) محمد مفيد الشوباشي ، السامر ، ص 138 .

من نفس الايديولوجية التي تبحث عن إنتزاع الإعتراف بالتأثير العربي ، دون تحليله أو توظيفه في سياق فلسفي أو تاريخ فكري للتحويلات ، والعكس من كل هذا يتباهى أحمد رضا بك :

« أن لدي الآن بضع كتب قيمة تخص مدينة المسلمين وتأثيرها على أوروبا في وجوه شتى ولكني لا أعرف تأليفاً مفصلاً شاملاً لكل حركة ذلك العصر تعرض صاحبه لإنعكاسها في الخارج وكذا لعلاقتها بالنهضة الغربية إذ لا يخفى أن أوروبا المسيحية تمتنع دائماً من الإقرار بما تدين به لمدينة المسلمين وهي لهذا السبب أرخت بداية هذه النهضة من دخول الأتراك إلى الأستانة العلية ( 1453 ) لأنها ترى أن التجدد الأوروبي حصل بتأثير الرهبان اليونانيين الذين فروا من الأستانة حاملين معهم كنوز اليونان الأقدمين الأدبية والعلمية وأن أوروبا مدينة بالتالي برقيها للتأليف العتيقة لا لكتب العرب بحيث أن الخدمات التي قام بها الشرك عن غير قصد تنحصر في كونهم أيقظوا أولئك الرهبان من خلودهم العميق وإن كل ما أوجدته القرون الوسطى محتقر معاد بكونه بربرياً وغطوبياً لأنهم يزعمون أن البشر نام من يوم إضمحلال العالم الروماني وأخذ ينتعش بعد ذلك العهد وهي طريقة لنكران تأثير المسلمين على المدينة الغربية »<sup>(41)</sup> .

ويظهر أن أحمد رضا بك يهتم بالوقائع التاريخية أكثر مما يهتم بفعاليتها ، فعناصر الإثبات في أعمال الغربيين غير واردة ، كما أن النصوص التي ظهرت بها التأثيرات أو تحدثت عنها غائبة تماماً عن كتابة أحمد رضا بك ، فهو يساير الأحداث معتقداً في إكتشافها لأول مرة ، كما يقوده في ذلك دافع تلقين إكتشافه للقارئ المتوهم ، وهذه التلقينية التي تجعل منه وسيطاً ، يستمد شرعية عمله من هذه الوساطة التي لا تترك الأحداث مجهولة ، لا

---

( 41 ) أحمد رضا بك ، الحية الأدبية للسياسة الغربية في الشرق . طبعة . دار بوسلامة .

تونس ، 1977 ، ص 188 .

بالنسبة للذين يتكبرون لها ، ولا بالنسبة للذين لا وعي لهم بها .

ويقرر أحمد رضا بك لرحلة الغرب المعرفية ، عبر مرورهم بالتراث العربي إذ ، يصبح الفضاء المتوسطي علامة على طريق هذه الرحلة ، فسمية الفضاء هي تسمية للعلاقات :

« إن التقدم العقلي بالغرب ابتداءً في الجنوب وعلى الخصوص بإيطاليا من القرن التاسع مستمداً قوته من قرطبة وصقلية اللتين كانتا من القرن السابع مركزين للآداب والفنون والعلوم يضيء نورها جميع ساحل البحر المتوسط من نابلي إلى فينيزيا وذلك أيام كانت جزيرة الأندلس بأكملها تقريباً تحت سلطان المسلمين كالجزر الكبرى المعروفة بما جورك ومينورك وكورسيكا ومالطة وصقلية وكذلك بعض المواقع الكائنة على شواطئ إيطاليا مثل ترانت وبرانديزي التي تمكن العرب بفضل إحتلالهم لها من الوصول إلى روما وإكراه البابا على دفع الجزية وهكذا عاد البحر المتوسط الذي كان مقراً لحضارة اليونان تفوقه القديم وسادت فكرته من جديد على بقية الأقاليم وما ذلك إلا لأن تأثير المسلمين كان عظيماً وعلى الأخص بصقلية حيث كانت لهم حضارة لا تقل أهمية وهاء عن حضارة قرطبة وانحصرت فيهم الطبقات العالية من مفكرين وأرباب مصانع وغيرهم »<sup>(42)</sup> .

ويتوزع من ثمة أحمد رضا بك بين عمليتين أساسيتين في معالجته لمسألة العلاقات العربية الغربية الوسطوية ، فهو يتقرب عن النصوص الغربية التي تخدم أطروحاته في التأثير العربي ، كما يتعامل مع نصوص من الدرجة الثانية لتسفيه آرائها في التنكر لهذا التأثير ، لذلك فهو يدور بين استراتيجيتين وبالطبع فهو يمنح أهمية خاصة للأولى ، ويجعل من الثانية وسيلة لإبراز دونيتها .

نلاحظ هذا ، من خلال استغراض أحمد رضا بك كيف يجعل من

( 42 ) أحمد رضا بك ، السابق ، ص 102 .

معجم « ليتري » موضوعاً رسمياً لتمثيل وجهة نظر أكاديمية بالغرب حيث لا يعتبر الغرب أكثر من وسيط ظرفي في نقل كتب اليونان وهي وساطة يشك في فعاليتها كذلك لإنحرفها وعدم استيعابها للعلم اليوناني .

يظهر إذن في معالجة أحمد رضا بك تعمداً اختيار خطابات ذات طابع إيديولوجي ، لمواجهتها بإيديولوجية مخالفة مما يشد النقاش دائماً إلى مستوى جدالي سيطر على الخطاب النهضوي العربي مدة طويلة . وفي هذا الإطار يتموضع احتجاج أحمد رضا بك :

« أن نرى مؤلفاً من عليّة الكتاب مثل ليتري يقول « أي أهمية تعلقها على دخول كتب العلم العربي إلى أوروبا وأي شيء خاص استفدناه منها ؟ أن تلك الكتب وذلك العلم ليست إلا علم وكتب اليونان إذ تسنى للقرون الوسطى بهذه الطريقة المنحرفة أن تستقي ثمانية من ينابيع العلم عينها ومن ينابيع العلم ليس إلا ، لأن العرب لم يقدروا على هضم آداب اليونان وفنونهم المستظرفة ثم جاء فتح الآستانة وفرار أدباء اليونان بكتبهم »<sup>(43)</sup> .

وينتقل أحمد رضا بك من مستوى الإعتراف والتنكر إلى مستوى آخر هو المستوى الإحصائي للمؤشرات المعرفية التي تمثلها الكتب والمكتبات ، مقارناً بين خزانتي الحكم - بقرطبة - وملك - باريز - بعد أربعة قرون ، يخلص إلى الفوارق الهائلة بين فضاءين : فضاء الأندلس العربية وفضاء الغال الغربية ، مدعماً آراءه بسلطة الشاهد عند الدور في تاريخه لمدينة باريز وفياردو في تاريخه للغرب .

ويتجمع بخطاب أحمد رضا بك شاهدان توجه سلطة الأول إلى الوقائع وسلطة الثاني إلى صدى الإعلام الغربية ، ويصبح دور أحمد رضا بك ، من ثمة ، هو إعادة إنتاج الوقائع والإعلام وإخضاعها للأطروحة العربية في التأثير :

---

( 43 ) أحمد رضا بك ، السابق ، ص 193 .

« وهذا لا يخفى أن خلفاء قرطبة كانوا يعيشون كخلفاء بغداد عيشة النبلاء يمثلون الرفق والحنان زيادة على أن غالبهم كانوا من عظماء الرجال عشاق الرقي ومؤيديه . حتى إن قصورهم كانت مجامع علمية بأوسع معنى الكلمة يقصدها أهل الفن والشعراء وقد إشتملت مكتبة الحكم بقرطبة على 600 ألف مجلد منها 44 سفرًا لأسماء الكتب وأسماء مؤلفيها مع أنه لم يجمع بكتبخانة الملك بباريس وهي أول مكتبة أسست بفرنسا بعد ذلك التاريخ بأربعة قرون حسبا قاله دالور في تاريخه لمدينة باريس رغم المجهودات التي بذلها شارل الحكيم أكثر من 900 مجلد ثلثها خاص باللاهوت مع أن عدد المكاتب العمومية بأسبانيا الإسلامية بلغ 70 مكتبة ، حتى قال فياردو « إنه لم يكن في الإمكان أن يوجد مثل هذا العدد بجهات الغرب الأخرى ولو بعد مضي زمن على إشارة نيكولي في القرن الخامس عشر على الأمير كوسم دوميدسيس بتأسيس معهد أدبي مثل تلك المعاهد »<sup>(44)</sup> .

ويقف أحمد رضا بك عند قناة أساسية في دعم العلاقات العربية الغربية ، ألا وهي الترجمة التي لعبت فيها طليطلة دوراً خاصاً . كما يدخل الكاتب في حوار منفرد مع المنكرين للأثر العربي معتقداً في سلطة الوقائع ودورها في الإقناع وتحويل الرفض إلى قبول ، غير أن المشكل الذي يعترض هذا الدور التبشيري عند أحمد رضا بك لا يتمثل في مدى رفض وقبول أطروحاته ، بقدر ما يتمثل في تجاهله لسياق الإقبال على الترجمة ومدى توظيفها في الحركة العارمة التي كانت تمر بها أوروبا على مستويات متداخلة . فلم تكن الترجمة أكسيراً للحياة الغربية ، بل كانت عنصراً من بين العناصر ، كما أن مجرد الإقبال على الترجمة لا يعني الأخذ الحرفي بالعاليم العربية ، لأنها حركة تنوير عارمة يستحيل إختزالها من وجهة أحمد رضا بك ، الذي يقول :

« على أنهم وإن أنكروا تأثير علاقات الصليبيين مباشرة مع المسلمين

( 44 ) أحمد رضا بك ، السابق ، ص 197 .



مدة تربو على مائتي عام فمن المستحيل أن ينكروا وجود مجمع نشيط للترجمة بطليطلة تحت إشراف الأسقف ريموند، أسس بقصد ترجمة أهم الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية واشتغل بهذه المأمورية مدة ثلاثين سنة أي من 1130 إلى 1160 وهذه التراجم بالرغم من أنها كانت محفوظة عند الكهنة أو مدفونة بالديور كأمر منهي عنها أو خطيرة قد انتشرت بقدر كاف بين الناس وساعدت على تنمية معلومات الغرب الضعيفة وقد أنشأ شارلمان خلال القرن التاسع أي قبل تأسيس هذا المجمع بطليطلة مدرسة بساليرن تولت ترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية وحررت إدخالها في برامج التعليم ولم يكن شارلمان يجهل حضارة الممالك الخاضعة لصولجان عبد الرحمان العادل جاره الأوروبي ولا مدينة سلطنة صديقه هرون الرشيد كما أن إنشاء تلك المدرسة واختيار ساليرن لها بدل مدينة بأواسط فرنسا لا يخلو من معنى وقد انتهج الفريد الأكبر منهج شارلمان . أما الكتب التي ترجمت وانتشرت بمرور الزمن فإنها كشفت للعقول المفتوحة عالماً جديداً وبعثت فيها حب التعلم ولم يكن رقي العلوم والفنون بطيئاً ساكناً إلا لضعف تيار المنابع التي كان ينبعث منها ولأن نيران الحروب لم تنطفئ كما رأينا سابقاً وذلك من بداية القرن الحادي عشر على أن الحركة الفكرية استمرت عدة قرون بأسبانيا وبعرض العواصم<sup>(45)</sup> .

وإذا كنا قد تعمدنا التركيز على استراتيجية عرض الأطروحة عند أحمد رضا بك من خلال إعلان توفره على وثائق كاشفة / تحديد فضاء التأثير / شاهد الوجهة الأكاديمية الرسمية / جرد الوقائع والإعلام / قناة الترجمة ، فإنه لا يهمل الاستشراق الذي كان وراء هذا التأصيل للعلاقات . من ثم ، يصبح شاهد الغرب حاضراً في كتابة أحمد رضا بك ، لأنه ضمير استيقظ في وعي هذا الغرب ، ويفترض فيه معرفة بالعالمين ، وهذا ما يمنحه

( 45 ) أحمد رضا بك ، السابق ، ص 227 .

الدعامة والسلطة الرمزية ، لكي يتحدث للعالمين معاً بحصيلة نتائجه . وهذا بالضبط ما يدفع الباحث العربي ، أحمد رضا بك ، الذي كتب كتابه أصلاً باللغة الفرنسية ، لترجم فيما بعد ، مستهدفاً القارئ المتوهم في العالمين معاً ، وهي مهمة تحطيم الحدود القائمة بين لغتين وعالمين لتعلن الحقيقة التاريخية ، التي على الشرق والغرب أن يسلم بها إذا رغبا في تكوين حس حضاري مشترك .

ويصبح خطاب أحمد رضا بك خطاب برهنة منطقية ورياضية يستحيل الإنفلات من قوتها ، حيث يندمج خطابا أحمد رضا بك وسيدو :

« ومن جملة البراهين الواضحة التي استدل بها « سيدو » على فضل العرب على المدنية الغربية ما كتبه في الأسطر التالية : « وهكذا تسنى لتأثير العرب أن يظهر في جميع فروع المدنية حيث تكونت من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر آداب كانت من أوسع الآداب الموجودة ، كما أن التأليف المتتابعة والإكتشافات الثمينة أثبتت النشاط الفائق الذي كانت عليه عقول ذلك العصر ورجحت بمفعولها في أوروبا المسيحية فكرة من يرون أن العرب كانوا أساتذتنا في كل شيء وأن لدينا مواد لا تدخل تحت الحصر بخصوص تاريخ القرون الوسطى كقصص الاسفار والقواميس المفردة لتراجم أكابر الرجال كما نجد من جهة أخرى صناعة لا مثيل لها وأبنية فاقت سواها من حيث الفكرة والعظمة وكذا إكتشافات مهمة في الفنون المستظرفة ، وهذا كاف ليرفع في أعيننا مقام تلك الأمة التي طالما إزدروا بها واستخفوا بمواهبها العالية » (46) .

ولا ينفرد أحمد رضا بك بهذا التوجه ، بل يتكامل وعبد الرحمن بدوي على جميع المستويات : الأيديولوجية والاستراتيجية والاحتجاجية ، وهي وجه واحد لعملات متعددة ، يوسع عبد الرحمن مجالاتها لتسع العلوم

( 46 ) أحمد رضا بك ، السابق ، ص 228 .

المحضنة والإنسانية ، موضعاً إياها في فضاءين جغرافيين ، هما طليطلة وصقلية ، وفكرين يتراوح العربي فيهما بين الكمال والإزدهار والأوروبي بين اليقظة والنشوء ، كما أن التأثير حصل عند رجلين ، هما رجار الثاني وفريدريك الثاني .

وما يمكن أن نستخلصه من تقديم عبد الرحمان بدوي لكتابه ( دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ) هو عنف الثنائية التي لا تفارق خطابه ، إلا لتفسح المجال لتقريرية وسردية للأحداث الموظفة بنفس الطريقة التي عايناهما عند أحمد رضا بك . إذ يلتقيان في نفس الاستراتيجية ، ولا يختلفان إلا لتدعيم آرائهما بشواهد من النصوص الغربية ، لحد أنه من الممكن القول ان كتاب عبد الرحمان بدوي هو كتاب عربي جل مصادره غربية .

ويقدم عبد الرحمان بدوي في ( دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي ) كتابه كالتالي :

« قصدنا في هذه الدراسة أن نرسم خطوطاً إيجابية لدور الفكر العربي في تكوين الفكر الأوروبي ، لأن هذا الدور واسع المدى عميق الأثر ، شمل الصناعات ، ولم يقتصر على الفلسفة والعلوم الطبيعية والفيزيائية والرياضيات ، بل إمتد كذلك إلى الأدب : للشعر منه والقصص ، وإلى الفن : المعمار والموسيقى منه خاصة .

وقمت عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كماله وبين العقل الأوروبي ، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية ، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين : الأولى اسبانيا وفي مدينة طليطلة منها خاصة ، والثانية صقلية ، وجنوب إيطاليا ، خصوصاً في عهد ملوك النورماند وأشهرهم رجار الثاني المتوفي سنة 1157 وفريدريك الثاني المتوفي سنة 1250 ميلادية ، فقد كانت هاتان المنطقتان نقطتي التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوروبية الناشئة ، لأنها على الحدود بين دار الإسلام وبين أوروبا »<sup>(46)</sup> .

( 46 ) عبد الرحمن بدوي ، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي طبعة بيروت 1974 ص

يتبين من خلال هذه المقدمة نزعة موسوعية طموحة ، صاحبت رحلة عبد الرحمان بدوي ، بل وكونت السمة البارزة لكتابات ، وهي سمة تنحو إلى جمع المعلومات وترجمتها ، كما لو كانت مهمة الكاتب تنتهي عند هذا الحد ، فهو وسيط دون منازع بين فكرين : عربي وغربي .

ومن الطبيعي أن تندرج أعمال عبد الرحمان بدوي ومعاصريه في حركة نهضوية عارمة ، تبحث عن تبرير لممارساتها وهويتها الوطنية والقومية ، ومن هذه الزاوية العرقية كان استثمار الطاقة الأدبية والفكرية ، للحديث عن علاقات دون تحديد لأبعادها الفلسفية والمعرفية في تكوين التشابهات والإختلافات والتناقضات ، والبحث عن جميع الحدود الثلاثية الممكنة ، للخروج من هذه الثنائيات الضيقة .

وعلى عكس الكتاب السابقين يمنحنا هشام جعيط - بخصوصية عمله - في ( أوروبا والإسلام ) مقارنة تحليلية ومنهجية حول المحاور التالية :

- أ - من الرؤية الوسطوية إلى الرؤية المعاصرة .
- ب - العلم الأوروبي والإسلام .
- ج - المثقف الفرنسي والإسلام .
- د - الفكر الألماني والإسلام .

ومن منظور هشام جعيط تقوم مكونات المقارنة العربية أساساً على صراع ديني كان يعارض في القديم بين المسيحية والإسلام ، ومن هذا الإدراك :

« يتوجب الفصل بين رؤيتين : رؤية العالم الشعبي ورؤية السكولاستيكية ، فالأولى كانت تتغذى على الصليبية ، والثانية على المواجهة الإسلامية المسيحية باسبانيا ، الواحدة تنتشر على مستوى التخيل ، والأخرى على مستوى العقلانية . لقد كان المسلمون في الأدب الشعبي عبدة للأصنام ، وكان محمد ساحراً ، إنساناً ساقطاً ، ورئيس شعب ساقط . وتقدم أنشودة رولان من جهتها المسلمين كعبدة ( ال Tervagan ) يمزجون الملحمي بالخارق . وعلى العكس في الرؤية المعرفية ، كانت هنالك معرفة مسبقة ، بفضل مجموع كليني ( 1143 )

Cluny ، وترجمة القرآن من قبل كيتون Ketton ، إذ تغذت المجادلة السكولاستيكية بالمصدر ، لأن بيير لوفينيرابل Pierre Le Vénérable وجاك دو فيتري Jacques de Vitry وأخيراً رايغوندلول Raymond Lulle ( و ) نيكولاس دوكيل Nicolas de Culs كانوا جميعاً على علم تام بمجموع العقيدة الإسلامية <sup>(47)</sup> .

وقد قامت الرؤيتان - كما يراها هشام جعيط - خلال القرن 12 وتطورتا لتتوسعا إلى القرن 13 و 14 ، وتمتدا إلى القرن 18 . وقد تولدتا عن دعوة وأزمة أثرت حول النبوة الكاذبة لمحمد ، الذي أوقف تطور الإنسانية وانتشار المسيحية من المنظور المسيحي الحاقدا .

ويعزز ماكسيم رودانسون تحليل هشام جعيط ويتبنى منظوراً موازياً له ، يتعرض فيه للإسلام في أسسه العاطفية <sup>(48)</sup> .

كما تثير الإشارة إلى أسماء عربية عند الغربيين اهتمام أ. كورتاباريا باتيا ( A. Gortabarria Beitia ) إذ يتوقف عند الكندي الذي :

« يرد في عمل البيرلوكران ( Albert le Grand ) بشكل مباشر أكثر من 26 مرة ، إذ يظهر اسمه تحت أشكال مختلفة ، الكندي ، الكندوس ، الشيندوس ، يعقوب الشندي ، الشمادي ، يعقوب فيلوس الكندي ، يعقوب الكندي فيلوس ، وأخيراً أدامدين ، وبالإضافة إلى هذا فالبيرلوكران لا يسوق دائماً الفلاسفة والعلماء العرب بأسمائهم ، ولكنه يكتفي غالباً بسوق جماعي كـ ( العرب ... ) ( الفلاسفة العرب ) ... إلخ <sup>(49)</sup> .

( 47 ) Hicham Djant L'Europe et l'Islam, Ed Seuil, 1978 PP. 17- 18.

( 48 ) M. Rodinson La Fascination de L'Islam , ed. Maspéro, 1980, P. 12.

( 49 ) A. Cortabarría Beitia, O.P. Al Kindi vu par Albert le Grand, in: ( Mélanges 13 ). Institut Dominicain d'Études Orientales du Caire Dar Al-Ma'arif - 1977 - Égypte. P. 118.

ومن البديهي أن التأثير العربي كان موجوداً في فضاء البحر الأبيض المتوسط ، بما عرف عنه من تبادلات منذ قرون ، إلا أن الغريب ، هو أن سوق هذا التأثير من قبل بعض المقارنين يتم بنية جدالية ، كما لو كان مخاطبهم بيدي شكاً . مما يدفعهم إلى سوق حجج الإقناع . زيادة على أن الحجج التي ينافحون من أجلها تلعب دوراً عكسياً ، إذ تخوف وضعيتهم الضعيفة تجاه أوروبا التقدم .

ونموذج عبد الرحمان بدوي ينم عن شهوة تبرير الوضعية خوفاً من النسيان ، وهكذا يعتقد الكاتب باكتشاف خارق في التشديد على عمق التأثير العربي في الزمن .

« يعتبر الحديث عن التأثير الإسلامي على الأدب الفرنسي خلال الفترة الكلاسيكية أي الفترة التي تتراوح بين القرن 15 والقرن 17 شيئاً مفاجئاً ، والحق أنه لا أحد من المؤرخين لهذا الأدب خلال هذه الفترة تكلم عن هذا التأثير ، ولا يستطيع الشك في هذا الأدب بحكم تركيز اهتمامها على الأدب الإغريقي واللاتيني والآداب الأوروبية . . . ولم يبدأ الحديث عن التأثير المشرقي العربي . . . على الأدب الفرنسي إلا فيما يتعلق بالفترة التي تمتد من النصف الثاني من القرن 18 إلى أيامنا هذه »<sup>(50)</sup> .

أن إدعاء عبد الرحمان بدوي لإكتشاف التأثير العربي وتغلغله في الفترة الكلاسيكية لهو إدعاء باطل ، وحتى لو افترضنا صحة هذا الإدعاء ، فإن مثل هذا الإكتشاف لا يقدم أبحاث المقارن العربي في شيء ، بل على العكس يبقيه في دور المدافع - الذاتي وهو دور حرج وتبعي .

كما أن الموازنة بين أديب عربي وأديب فرنسي لا تخدم شيئاً ، ما دام ما يراد تبياناه ، ليس هو الجمالية الأدبية ، بل هو إدعاء الأصالة العربية ، وهذا

---

( 50 ) A. Badawi *Influence Islamique sur la littérature Française à l'époque classique* - Studia Islamica - XIV - 1977, P. 5.

الإدعاء هو الذي يسقط عبد الرحمان بدوي والشوباشي والخربوطي ضحيته في الحين الذي يعتقد فيه بإسداء خدمة لهذه الأصالة :

« ويعود تأثير الآداب الإسلامية في الآداب الفرنسية إلى ثلاثة قرون ، أي إلى القرن 15 ، وقد مارسه كاتب إسلامي كبير هو أبو عثمان الجاحظ ( 225 - 668 ) على عمل هام في المسرح الفرنسي القديم أي على فكاهة الأستاذ باتولان Pathelin . . . وفي مقارنتنا - الجاحظ - بجوهر الفكاهة عند الأستاذ باتولان ، نرى بوضوح أنها يتطابقان »<sup>(51)</sup> .

والمستغرب في تطابق بدوي هو كيف فاتته إستحالة التطابق الأدبي لأن التطابق جاز على المستوى الهندسي والرياضي والآلي ولكنه لغوياً وأدبياً يخضع لمنطق بلاغي وفلسفي يصعب معه إختزال الوضعيات الثقافية المختلفة ، فكيف بالوضعيات التي لحقها التأثير المباشر لا الافتراضي ، لأن حالات التشابه ليست تطابقاً ، كما أن التشابه لا يعني أخذ الواحد عن الآخر ، وهذه الحالات لا نهائية في الأدب . . .

## 2 - الغنائية الاسبان - عربية .

نال هذا المجال حظوته عند المقارنين العرب ، بسبب الصدى الذي خلفته الغنائية في الغرب ، وخاصة في الموشح والزجل ، كما انعكسا في أشعار التروبادور ، وأشعار الشعراء العرب .

والحق أن موضوع الغنائية خصه العديد من الجامعيين العرب بأطروحات ، دون الوصول إلى نتائج جديدة ، لا على مستوى التنظير الأدبي ، ولا على مستوى التحليل النقدي ، وعلى العكس من زوايا جديدة ، وبالضبط من زاوية الدرس المقارن ، كمنهج يمتلك كامل الصلاحيات والأدوات لطرح الإشكالية الغنائية .

---

( 51 ) Ibid, P. 6.

ولموضع الدراسات الغنائية العربية ، داخل إطار التخصص ونشير إلى أن أهم باحثي هذه الظاهرة هم محمود علي مكي / جودة الركابي / عبد العزيز الأهواني / احسان عباس / محمد غنيمي هلال / لطفي عبد البديع / عبد الهادي زاهر / محمود صبح / جلول عزونة / صلاح فضل أخيراً .

يعود الإهتمام الذي حظت به الظاهرة الغنائية في الأصل إلى فضول بعض المستشرقين ، وعلى رأسهم هامر بورجستال ( Hammer Purgstall ) الذي خصها بمقالين ظهرا ( بالمجلة الآسيوية ) ستي 1837 و 1849 ، ومارتان هارتمان ( Martin Hartman ) سنة 1897 .

ويعزى أصل الموشح إلى شاعر من كابرا Cabra يطلق عليه محمد بن محمود مرة ، ومقدم بن معافى (840 - 912) مرة .

لقد كانت نهاية إمارة عبدالله وبداية عهد عبد الرحمان الثالث فترة جنينية للظاهرة الأدبية عند شعراء من أمثال أحمد بن عبد الربيع / ابن عباد القزاز / أبو بكر ابن اللبانة الداني / أبو بكر ابن رفيع راسح / لسان الدين ابن الخطيب .

وإلى جانب الموشح كان الزجل خليطاً من العامية العربية والاسبانية ، وتأكدت ممارستها مع سعد ابن عبد الرحمان رابع ، أبو يوسف هارون الرمادي وعباد ابن معسمه وأبو بكر محمد ابن عبد المالك ابن قزمان ، ولشعر هذا الأخير تم تقديم جوليان ريبيرا Julien Ribera سنة 1912 ، معلماً بذلك على تحول هام في التطور التاريخي للنوع ، ويقوم إفتراض الباحث على محاكاة الغنائية الاسبانية - عربية لغنائية رومانية سابقة عنه معترفاً بممارسته لتأثير هام على الغنائية البروفانسية وعلى شعر التروبادور .

ويرى كوميذ ( E.G. Gomez ) من جهته أن الأطروحة التي تعزز التأثير الغنائي الإسلامي على الغنائية الأوروبية الوسطوية تأكدت خلال القرن 18 ، والتي جاملتها وأشارت إليها الرومانسية .

ولموضع الحديث عن الظاهرة ، قبل تقييم الأعمال العربية لا بد من



الإشارة إلى إسهامات أ. ر. نيكل ( A.R. Nykl ) الذي حلل ونشر سنة 1933 مجموعة شعرية لابن قزمان ، معلماً على الشعر الغنائي في منطقة البيري . وبعد خمس سنوات من ذلك قارن رامون منديز بيدال ( Ramon Mendez Pidal ) بين ( الشعر الأوروبي والشعر العربي ) ( 1938 ) ، كما يعود أ. ر. نيكل إلى الموضوع في كتابه ( الشعر الأسباني - عربي وعلاقته بالتروبادور البروفانسي القديم ) ( 1946 ) .

وبعد سنتين تنشر مجلة ( الأندلس ) ( الأبيات الختامية بالاسبانية في الموشح العربي ) ( 1948 ) للباحث س. م. ستيرن ( S.M. Stern ) ، ويصادف ذلك محاضرة في نفس السنة لليفي - بروفنسال ( Lévi Provençal ) ، حول الموضوع بالذات .

نستخلص من كل ما تقدم أن المقارنين الذين اهتموا بالظاهرة يتمون إلى ثلاثة تيارات أساسية :

- 1 - تيار ج. ريبيرا - 1912
- 2 - تيار ليفي بروفنسال - 1948
- 3 - تيار س. م. ستيرن - 1948 .

1 - وتتضمن نظرية ج. ريبيرا إدعاءات ، وأخطاء في حق الأطروحة العربية وتعتبر إستقرائاته في مجموعها ، محتملة ، بشرط ابعاد مسلمة الغنائية الرومانية لصالح ما كان موجوداً قبلها أي ، ( الدوييت ) أو ( التسميط ) اللذين أعطيا الإنطلاقة للإبداع الأندلسي للموشح والزجل .

2 - ويرى ليفي - بروفنسال بوجود أربعة أبيات عربية مقحمة بالأنشودة V لكيوم IX الاكيتاني ( Guillaume IX d'Aquitaine ) ( 1071 - 1127 ) ويوجد هذا الإدماج عند شعراء أوروبيين آخرين كسيرمون ( Cermon ) ( و ) ماركابرو ( Marcabru ) ( ق 12 ) ( و ) أرشيريست هيتا ( Archip- reste de Hita ) ( ق 14 ) ( و ) فياسودينو ( Villasaudino ) ( ق 15 ) ( و ) جوليان ديل انسينا ( Juan del Encina ) ( ق 16 ) .

والحق أن كيوم IX اعتبر أول مقتبس لأشكال وموضوعات الشعر الغنائي  
الاسباني - عربي ، كما تُزعم معرفته للعربية .

وينسب ج . فرانك الأبيات التي يشير إليها ليفي بروفانسال إلى أحد  
شعراء التروبادور السابقين على كيوم IX ، وهذا لا يلغي وجود هذه الأبيات  
التي يقدمها ليفي بروفانسال كالتالي :

( يزودنا مخطوط باريز بالمكتبة الوطنية تحت رقم 856 ، ف 230 بهذه  
الأبيات العربية ، بينما تقول المخطوطات الأخرى بنوع من  
( Galimatias ) .

والنص طبعه أ . جنروا ( A. Jeanroy ) :

« اعلّموا بأنني أحبته

ولم أقل له لا « الأسفل » ولا « الهدف »

ولم أكلمه لا عن الأداة ولا عن الخطوة .

ولكن قلت له فقط بارباريول ، بارباريول ، بارباريان » (52) .

كما يمنحنا ليفي - بروفانسال صيغتين متقاربتين ، ولكنها لا تقدماننا  
في شيء ، بل تنضاف هذه الأبيات إلى مجموع النصوص القابلة لإثارة  
إشكالية خاصة بالجمالية الأدبية ، بوجود التقليد أو غيابه .

3- ويكتشف س . م . ستيرن الخرجة الرومانسية في النصوص  
الكلاسيكية ، الشيء الذي يثير رد فعل عنيف عند داماسو لومسو Damaso  
Alonso سنة 1949 الذي يربط بين الخرجة وبعض الممارسات اليهودية .

ويخبر ج . س . كولان ( G.S. Colin ) سنة 1952 كوميّز بوجود مجموعة  
موشحات عربية في مخطوط يرجع إلى القرن 14 .

ويتبع هذا الإكتشاف بآخر ، يضع رهن إشارة الباحثين حوالي خمسين

---

( 52 ) E. Levi Provençal Les vers arabes de Guillaume IX d'Aquitaine, Arabica,

T1, fasc 2, 1954, PP. 208 - 209.

خرجة رومانية يحلل منها كوميز ثلاثة نصوص أساسية مستخرجة من الأعمال التالية :

- أ - ذخيرة ابن بسام ( ق 12 ) .
- ب - دار الطراز لابن سناء الملك ( آخر ق 12 ) .
- ج - مقدمة ابن خلدون ( ق 14 ) .

ويزودنا كوميز بعينات من تداخلات الخرجة العرب - اسبانية في أشكالها الشعرية المختلفة<sup>(53)</sup> ومن الصعب تبيان ما إذا كانت هناك إقتباسات أم لا ، إلا أن أهمية هذه التطورات تكمن في تكويننا لفكرة عن الإتصالات الأدبية بين العالم العربي والغرب .

وبالنسبة لصدى أنصار كل تيار أو نظرية حول الأطروحة العربية أو الرومانية ، فمن السابق لأوانه الإجابة عن هذا ، لأن الإشكالية لم تطرح تاريخياً في إطار الأدب المقارن ، كما أن الباحثين توجهوا منذ بداية أبحاثهم إلى طرح أصل التقليد الأدبي بدل طرح نظرية النوع مما قاد النتائج إلى الباب المسدود في غياب الطرح النظري المنسجم والقابل لتأويل الظواهر الأدبية بل تجميعها - لا العودة بنسبتها إلى مالك قار - في إطار جمالية أدبية عامة سواء ثبت التأثير أو خفي .

يلاحظ إذن كيف استغرقنا الجانب التاريخي لمسألة ظاهرة الغنائية الاسبان - عربية ، بالطريقة التي عرضت بها عند باحثي الإستشراق وقد تعمدنا هذا التقديم لنرى إلى أي حد استطاع الأكاديمي العربي التخلص من النظرة السابقة . وللأسف ، نلاحظ أن الأغلبية أعادت إنتاج معطيات وحجج الآخر ، مع بعض التطوير والتعديل المناسب لبعث التراث وهددهة لتساعد المد الوطني .

ومع هذا ، لا بد من إعطاء نماذج عن المساهمة العربية في هذا المجال ،

---

( 53 ) E.G. Gomez La Poésie hispano - arabe et l'apparition de la lyrique roman,  
Arabica, iv, 1958 pp. 141, 42, 43, 44.

على ضوء نصوص إخترتها من كتاب من بينهم عبد الهادي زاهر الذي يعود إلى سنة 1979 ، ويكاد يكون آخر ما صدر في الموضوع مخصصاً حيزاً كبيراً لمسألة العلاقة بين الموشح والزجل وشعر التروبادور هذه الحركة الشعرية - الغنائية ، التي إزدهرت جنوب فرنسا بين 1100 و1350 .

ويرى عبد الهادي زاهر أن هذه المسألة لم تحظ بمعالجة في العربية بدراسة مستقلة ، وإن الباحثين العرب الذين عالجوها قاموا بذلك في إطار عام ، استغلوا فيها معطيات الدارسين الغربيين : من مستشرقين وغيرهم لأن إلقاء نظرة خاطفة على كتابات المستشرقين الرومانسيين منهم ومؤرخي الآداب الأوروبية ، خلال العصر الوسيط والحديث ، كافية لتبين لنا اهتمام بعضهم بالمسألة بحمية ، مقدمين مجهودات هامة ، كان علينا القيام بها نحن كذلك .

ووجهة عبد الهادي زاهر ، هنا ، بتقاسمها التاريخ للظاهرة وانتقادها ، فهو يكشف عن بدايات الإهتمام بالفكرة الجنينية ، التي لاقت رواجاً خاصاً في سوق الأدب العربي وهو رواج يرضي الكثير من الغرور والبعض من العلمية .

ويضيف الكاتب أن دراسة القضية عند الباحثين الغربيين تختلف كثيراً ، يدافع بعض المستشرقين عن التراث العربي والأطروحة التي تزعم بالتأثير العربي في شعر التروبادور ، بينما يحارب البعض هذا التراث ويرفضون له هذا التأثير ويفتقر الفريقان معاً إلى نظرة شمولية في طرح هذه الإشكالية الأدبية أما فيما يخص الباحثين العرب الذين أثاروا القضية ، فهم يؤكدون تأثير الموشح والزجل في شكل ومضمون شعر التروبادور ، باحثين عن حججهم في ما سبق إليه المستشرقون .

والخطوط المشتركة بين حب التروبادور وحب الموشح والزجل هي خطوط ضعيفة ، الشيء الذي يدفعنا إلى التفكير في نفي أخذ التروبادور بالموشح وبالزجل معاً بل وبالتراث العربي. إذ كان التروبادور منشدين إلى الحضارة الأوروبية والبنيات المجتمعية لعصرهم ، التي كان لها مفهوماها الخاص للحب كما أفرزه التراث الأوروبي ، قبل وجود التروبادور .

ويظهر عبد الهادي زاهر بمظهر الراديكالي في فهم خاص للموشح والزجل ولقصية التأثير ، وهو بهذا يعكس أطروحة العرب في تأكيد التأثير من جهة ، كما يتبنى أطروحة غربيين في إنكاره من جهة ثانية .

ويعلق الكاتب على تأثير الغنائية الأسبان - عربية ، في انتشارها بالعالم العربي ، مقدماً نزعتيه كما لو كانت النزعة المحقة والحاسمة ، بينما هي سزعة أنصار الأطروحة الرومانية . وهكذا يسقط الكاتب ضحية ما أنتقده عند الآخرين في اعتمادهم حجج المستشرقين .

وفيما نخصنا ، نكرر مرة أخرى أن جوهر المسألة لا يقوم في التأكيد أو الرفض للتأثير العربي ، بل في التأويل الشعري للظاهرة ، وموضعها المنهجية في إطار الأدب المقارن بدل طرحها على المستوى الايديولوجي المحض .

ويتبين أن محمود صبح - العربي الأصل الاسباني الجنسية - يصيب عين الصواب عندما يطرح الظاهرة في سياقها المنطقي والمنسجم ، أي عندما ينظر إلى التأثير كصيغة للتفاعلات ، وإن إثباته ونفيه ليس هو ما يمنحه فعاليته ، والأساس كما نرى هو في كيفية تجاوز التأثير وتحقيق هرمونوتيكية نصه :

« فهذا التأثير ما زال قيد البحث والدراسة حتى يومنا هذا ، وقد تناوله الباحثون المختصون - وما نحن منهم - بالمعالجة العلمية المنهجية أحياناً وبالأهواء والآراء المسبقة أحياناً أخرى فتضاربت آراؤهم وتشعبت أبحاثهم ، فمن مبالغ في مدى هذا التأثير وأهميته إلى منكر له على الإطلاق ، إلى زاعم بأن العكس هو الصحيح أي إن ما هو « ايبيري » Ibérico من غناء وموسيقى وألحان وأوزان وغير ذلك من ضروب المعرفة والفنون والعلوم كان له التأثير الشامل العميق فيما ابتدعه العرب بالأندلس بعد فتحها ، نتيجة لإختلاطهم بشعوب شبه الجزيرة الايبيرية ( Peninsula Ibérica ) ونحن هنا لسنا في صدد تأييد هذا أو ذلك ، بيد أننا نقول إن التأثير والتأثر هما صيغة علمية محققة في جميع التفاعلات ضمن بوتقة واحدة المطلوب هو أن نعلم على وجه الدقة ما هو مدى تأثير كل عنصر في غيره من العناصر ، وما هي نسبة كل واحد

منها في حصيلة هذا التاج المادي أو الفكري أو الفني أو الاجتماعي» (54) .

وحيث يعالج محمود صبح ، مثلاً ، النوع الغنائي للفلامنكو فهو يعدد كل الأصول الممكنة للنوع ، دون الدخول في اللعبة الحرجة للدفاع عن أصل ما ، لأن في ذلك من الإغراق للنوع في الجزئي مما يحول دون الإلمام بأصل الفلامنكو المتعدد :

أ - إنه من أصل غجري Gitano

ب - إنه من أصل بيزنطي Bizantino

ج - إنه من أصل فلانديري Flamenco

ح - إنه من أصل عربي Arabigo

خ - إنه من أصل أندلسي Andaluz

ويمح هذا التعدد فضاءً شاسعاً للنظرية الأدبية دون أن يحبسها في النظرة العرقية الضيقة ، وهو تعدد يغتني معه النوع .

وهناك نموذج آخر وسيط بين تأثير العرب وتأثرهم يتميز عن نموذج المعالجة عند محمود صبح وعبد الهادي زاهر ، والذي نصادفه عند جلول عزونة والذي قدمه كأطروحة جامعية في فرنسا ، وهو يزاوج بين أخذ التروبادور لشكل الموشح وتركيبه ، وأخذ العرب للآلة هؤالء ، بما يستلزم ذلك من تحويل من البسيط إلى المعقد ، ومن الشعبي إلى الأرستقراطي ، ومن الملاءمة إلى الإحراج .

وتتميز معالجة جلول عزونة بجمعها بين الطابع الموسيقي والطابع الأدبي ، وهو شيء ظلت ممارسته غائبة ، لمدة طويلة ، عن مقاربات الباحثين العرب :

---

( 54 ) محمود صبح ، آراء شعراء إسبان معاصرين في الأصل العربي لغناء الفلامنكو ، مجلة : التراث الشعبي بغداد ، 1979 . ص 47 .

« فهناك تشابه شبه كامل في شكل القصائد المغناة من طرف Guil-laume IX أول شعراء التروبادور مع نظيرها من الموشحات التي لا طالع لها ( موشح أقرع ) .

- فقد أخذ التروبادور إذن في أول الأمر شكل الموشح وتركيبه الموسيقي .

- ثم أخذ العرب اللازمة التي يقع ترديدها إثر كل بيت شعري عن المسيحيين وغنائهم الجماعي فحولوا المطلع إلى لازمة وحولوا كذلك القفل إلى لازمة في حالات أخرى . فصار غناؤهم معقداً بعد أن كان بسيطاً مرتجلاً .

وهكذا نصل إلى شكل شعري موحد وطريقة موحدة في الأداء الموسيقي ابتداء من أواخر القرن الثاني عشر المسيحي وأوائل القرن الثالث عشر . أما التطور المسيحي فهو معاكس نوعاً ما لتطور الموسيقى العربية ، فبعد أن كان شعبياً وجماعياً صار شبه أرستقراطي وبرزت اللازمة فيه وتميزت بقصرها مما يجعلها تتلاقى مع الموسيقى العربية .

ونحن في تقييمنا لتأثير العرب على أوروبا في هذا الميدان لا يمكننا أن نقبل إلا بحذر كبير ما ذهب إليه بعض المختصين من الغربيين في الأدب حين يقول :

« لا أنكر أن هناك إتصالات أدبية بين الإسلام والغرب ولكني أعتقد أن تلك الإتصالات لم تتبعها أية نتيجة إلا إذا التقى الإنتاج الأجنبي المؤثر بجوانب من التراث القومي تتلاءم معه » .

فهذا الرأي يخذ كثيراً من عوامل التأثير والتأثر وينكر أسبقية العرب والمسلمين بأكثر من قرن على الأقل في ميداني الشعر والموسيقى .

ففي حين استقر شكل الموشح والزجل منذ القرنين التاسع والعاشر المسيحيين ظل الشكل الشعري متردداً متنوعاً من جانب الأوروبيين .

وهذه الأسبقية التاريخية للعرب تشكل نوعاً من الضيق والحرج

للإختصاصيين الغربيين خصوصاً ونحن نجد تأويلات مختلفة عندهم  
لبروز الأشكال الشعري في أوروبا وأحياناً نجد عندهم تأويلات  
متناقضة تماماً لهذا المظهر»<sup>(55)</sup> .

ولا يسقط خطاب جلّول عزونة في نزعة الدفاع عن التأثير العربي  
وتأكيد بل يشير إليه ، معتمداً في ذلك على عينات ومقاييس ، دون هذا  
الإلحاح العقيم على الأدب ، منعزلاً عن سياقه الموسيقي ، من ثمة كان إقحام  
الجاناب الموسيقي ، بمعناه التقني والآلي ، عاملاً فعالاً في إغناء التحليل  
الأدبي لظاهرة التأثير ، وهو جمع يخدم أطروحة جلّول عزونة ويخرج بها عن  
مجالات الإجتراح التي كانت الطريق الوحيد في رحلة الباحثين العرب السابقين  
عليه .

وبذلك تصبح معالجة المقامات الموسيقية في الشعر الغنائي العربي -  
الاسباني عنصراً جديداً وفعالاً في بلورة أشكال القصائد الغنائية :

« لقد أشرت منذ حين إلى تأثير الأدب العربي في الأدب الأوروبي  
وخصوصاً في ميدان الشعر الغنائي والحب العذري الذي لقي صدى  
بعيد الغور في أدب جنوب فرنسا عند التروبادور في أوائل القرن الثاني  
عشر مسيحي ( أواخر القرن الخامس الهجري ) ، وأريد أن أضيف أن  
هذا التأثير لم يقتصر على الأغراض الشعرية وعلى المعاني بل تعداه إلى  
شكل القصيد ، فنجد أن القصائد الأولى لأول شعراء التروبادور  
المسمى كيوم التاسع Guillaume IX ( 1071 - 1127 ) تذكرنا بشكل  
عجيب بالموشحات الأندلسية التي ظهرت منذ أكثر من قرن .

وحين نتحدث عن الشكل الشعري فإننا نعني المقامات الموسيقية  
والميدانان قريبان جداً من بعضهما ، إذ يصعب علينا أن نتصور  
إنفصالهما عن بعضهما في القرون الوسطى إذ كانت أغلب الموشحات  
وجل الأزجال تؤلف قصد تلحينها وغنائها»<sup>(56)</sup> .

( 55 ) جلّول عزونة ، الحياة الثقافية تونس ، 19 . . ص 22 / 23 .

( 56 ) جلّول عزونة ، السابق ، ص 16 .



والنموذج الأخير في معالجة الظاهرة الغنائية العربية - الأسبانية ، هي تلك التي تعتمد على إحصائية التأثير ، وهي إحصائية تنبئ على بعض المؤشرات المعجمية والتميمية ، دون إعتداد التأثير المباشر .

ومن هذا المنظور ، تذهب ناجية غافل المراتي في دراستها عن ( سيرة عنترية في الدراسات الاستشراقية ) إلى إفتراض إحصائية تأثر مفاهيم الرومانس الأوروبي بموضوع الفروسية عند عنترية ، ونلاحظ بعض الروابط الزمنية والفضائية بين العالمين ، ومع هذا تدخل معالجة ناجية غافل المراتي في نزع هام من درس الأدب المقارن ، ألا وهو دراسة التيمات كالمرأة والحب والفروسية والقتل ... إلخ .

وتركز ناجية غافل المراتي على هذا التشابه بين عالين : عربي وغربي ، وهو تشابه يضرب في عمق التاريخ ، إلا أننا نواجه أنواعاً ، كان عرب الأندلس جسراً لإنتقالها عبر قوالب ومستسخات قلصت المسافات والتباعدات المعرفية ، لتجعل من الأشكال والقضايا مستحدثات ، تجدد إستجاباتها في الأنواع الأوروبية ، وبذلك تكون القطيعة المستحيلة تواصلًا تحتسلا بين عالين من التخيل :

« إن هذا التشابه بين مفاهيم الرومانس الأوروبي وبين ما ورد في سيرة عنتر جعل المستشرقين والمتخصصين في هذه الدراسات يعتقدون بإحتمال تأثر أحد الجانبين بالآخر ، ومعظمهم يرجع تأثر الجانب الأوروبي بالجانب العربي ، فيقول بعضهم أن فروسية العصر الوسيط مأخوذة حتماً من العرب ويقول آخرون : كان العرب عظماء في الفروسية مشهورين في العالم بذلك ، ويعدد الكلمات العربية الداخلة في اللغة الأسبانية والدالة على الفروسية ، ويخصص ما ورد في حكايات الرومانس من كلمات عربية ، فالسيد موضوع الحكاية الأسبانية هي كلمة ( السيد ) العربية ، ومؤلف هذه الحكاية يفتتح بعض الأبيات بأداة النداء العربية ( يا ) ويستعمل كلمة ( حتى ) العربية وكلمة



« لم يكن لدانتي أي تقدير للإسلام ، ويرفض له أية حظوة ، ولا يعتبره ديناً ، ولا يعرفه بتاتاً . من هنا كيف يمكنه استقبال الخرافات الإسلامية ، والمعراج والسفر الليلي ، بالحد الأدنى من التعاطف الذي يفترض محاكاة أو موجة إلهام ؟ وهذا يدل على إهمالنا لشروط سيكولوجية »<sup>(60)</sup>

وبالنسبة للعرب يمكن الإشارة إلى المؤتمر الثاني عشر للاستشراق كهداية لربط المقارنات بين دانتي والمصري ، وترجمة المصري عثمان حسن ( للكونوميديا الإلهية ) - التي صادفت كذلك اهتماماً بتقصي وتحقيق ( رسالة الغفران ) .

ويظهر أن السلفيين والليبراليين معاً انطلقا للبحث عن الموازنة والمساواة والمعادلة بين العالمين - الغربي والشرقي - مستهدفين تحديد رؤية العالم السماوي من المتطور الأرضي ، دون أدنى موضوعة للإشكالية في إطار بحث منهجي متماسك .

وأنصب الإهتمام بمعرفة ما تشتمل عليه الكوميديا من اقتباسات عربية ، بحثاً عن الآخذ والمأخوذ .

ولم يقارن المعري وحده بدانتي بل قورن بسائي في كتابه ( سير العباد إلى المعاد ) ( ق 12 ) ، وبابن عربي في ( كتاب الاسراء الليلي ) ، الذي كتب قبل عشرين سنة على ولادة دانتي ، وأخيرا بشخصية أدبية أخرى هي ابن مسرة ( 883 - 931 ) .

ويسود الافتراض بأن الأفكار الشرقية إنتقلت إلى داني بوماسلة ساندينو ( Sandino ) وسيرولي ( Cirilli ) ، وكذا بواسطة غمطونديس

(46) Lucienne Poitier, A Propos des sources Islamiques de la Divine Comedie,

(A1C), No 1, 1966, P. 133.

عريبتين ترجمتا إلى الأسبانية الأولى ترجمها يهودي هو أبراهام ، قبل ولادة دانتي ، إلى اللاتينية والفرنسية وترجمها بون أفانتور ( Bon Afantor ) ( 1221 - 1274 ) . وتحيل قناة أخرى على قصص الفرسان الذين حاربوا العرب . كما لعب الكتاب اللاتيني لـ : رودريكو خيمينيز ( Rodrigo Jimenez ) من ( طوليد ) حول ( التاريخ العربي ) دوراً خاصاً ، لأنه يشتمل على الترجمة الحرفية لتاريخ المعراج ، الذي احتفظ به الملك الفونس X - ( Alfonse X ) ( 1260 - 1268 ) وتقود القناة الرابعة إلى برونو ( Bronto ) سفير قديم للملك الفونس X الذي كتب سنة 1260 قصيدة تحت عنوان ( تيسوريتو ) ( Tesoretto ) ، التي نافح فيها من أجل المصادر العربية الإسلامية للكوميديا الإلهية ، وهو ما دافع عنه أسين بالاسيوس .

وإنطلاقاً من وجود كل هذه القنوات الإخبارية ، التي تسمح لنا بتكوين معرفة ما عن الفكر السائد في العصر الوسيط ، والذي تتجاهله الأوساط إستجابة للتصلب الذي شاهده العالم المسيحي تجاه الإسلام والتي يمكن رصد تطورات إشكاليته . وبالنسبة للوسيان بورتير :

« إن ما عرفه دانتي عن الفكر الإسلامي يتمثل فيما تقدمه قراءة كبار الثيولوجيين الغربيين ، والحضارة والشخصيات المهمة في الإسلام ، وما قدمته القصص السيرة . ومن الممكن أن يكون معروفاً كتاب محمد . . . »<sup>(61)</sup> .

تفتح تأملات الغربيين حول دانتي فجوة في صرح المسكوت عنه لقرون عديدة ، فقد أحيط موضوع الرحلة السماوية في التراثين العربي والغربي بنوع من الهالة التي تحاول إستكشاف عالم غير بشري بأدوات وتصورات بشرية ، تقوم على معطيات الكتب السماوية والوضعيات الانثروبولوجية الخاصة بكل مجتمع وعصر وتحيل .

---

( 61 ) Ibid, P. 138.

فمن الممكن أن لا تكون أدنى علاقة بين دانتي والمعري وإبن عربي وإبن مسرة وسنائي كما يحتمل أن يكون التأثير موجوداً ، وليس نفس وضعيات كتاب الأخرويات ، ولكن الإشكال هو ما يقوم في تحويل الموضوع إلى موضوع السبق والتأثير ، لا موضوع للتعرف والتحليل للكيفيات التي تكونت بها صياغات عالم الأخرويات ، بكل خلفياتها وأبعادها الفلسفية .

ونعتقد أن طبيعة موضوع الأخرويات ، تستدعي أكثر من معالجة في الشرق والغرب على السواء ، ولم ينقطع هذا السيل العام عن مد الخيال الشعري والنثري - على السواء - في عصرنا . بل وسيستمر مخترقاً حواجب المستقبلات ، لأن هذا الحس الميتافيزيقي والحدسي في الخيال الأدبي ، لا يمكن أن ينقطع لا بغياب الدين ولا بتقدم الاكتشافات العلمية ، لأن إختفائه رهين بإختفاء الخيال الأدبي .

ويلاحظ من خلال قراءة للمعالجات التي خص بها الدارسون موضوع التأثير والتأثر ، أنها تفوق بكثير حجم الأعمال الأخروية عند دانتي والمعري وإبن مسرة وسنائي ، فقد استغرق البحث عن عناصر الأخذ والعطاء جهود الكثير من هؤلاء الدارسين ، وحال بينهم وبين طرح إشكالية الموضوع ، بطريقة تستجيب لبحث جمالي ، وتصور فلسفي في أغلب الكتابات الأخروية ، بدل تحويل المعالجات إلى مجرد نسبة الخيال إلى عرقية ضيقة . تخفي المعالم الفنية لهذه الكتابات عبر أبعادها التاريخية والفضائية .

ومع كل هذا ، توجد إستثناءات ، استطاعت تلافي الطروحات السابقة ، وتحملت من الأحكام المسبقة ، بانطلاقها من بنية الخيال في العمل الأخروي . نجد نموذجاً حياً لهذه المعالجة في الدراسة القصيرة لمحمد جابر عصفور ، الذي يقترح موضوعة العمل الأخروي في إطار ثنائية الخيال والحقيقة :

« ولكن ثنائية الخيال والحقيقة تظل قائمة وراء النظر إلى هذا المسلك كله ، ويظل الخيال مقبولاً طالما يقودنا إلى الحقيقي ، ولم يتعارض معه في النهاية . ومن هنا تتأسس موازنة طريفة بين الكوميديا الإلهية لدانتي

ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري . وهي موازنة لافتة ، تستحق وقفة ، لأنها تكشف عن صفحة مجهولة من بدايات الدراسات المقارنة في نقدنا الحديث ، وعلى مستوى القصص ، كما تكشف ، في نفس الوقت ، عن هذه الثنائية الأساسية بين الخيالي والحقيقي .

لقد بدأت هذه الموازنة في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما كشف عبد الرحيم أفندي أحمد ، ممثل مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر الذي عقد في باريس عام 1897 ، النقاب عن الصلة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية . وعلى أساس من هذا الكشف إنتهى عبد الرحيم أحمد إلى أسبقية رسالة الغفران وتأثيرها في الكوميديا الإلهية ووعده بنشر رسالة الغفران التي كانت مخطوطة في ذلك الوقت . ومنذ أن ألقى الرجل بحثه ، الذي لم يطبع للأسف ، بدأت الموازنة بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية . ولقد تحركت هذه المقارنة منذ البداية ، على أساس أن العملين قدما أحداثاً خيالية مختزعة ، يراد بها تمثيل مجموعة من الحقائق والأفكار .

ومن هذه الزاوية تحدث البستاني ( 1856 - 1925 ) في مقدمة ترجمة الألياذة ( 1904 ) عن رسالة الغفران وعن أبي العلاء الذي « أوغل في التصور حتى سبق دانتي الشاعر الإيطالي وملتن الإنجليزي إلى بعض تخيلاتهما » . ومن نفس المنطلق تحدث جرجي زيدان ( 1816 - 1914 ) عن رسالة الغفران التي كتبها أبو العلاء « على أسلوب روائي خيالي لم يسبقه إليه أحد ، فتخيل رجلاً يصعد إلى السماء ، ووصف ما شاهده هناك ، وكما فعل ملتن الإنكليزي في الفردوس المفقود ، ولكن أبا العلاء سبقها ببضعة قرون » . أما قسطنطين الحمصي فيقوم بدراسة مقارنة مسهبة بين الكوميديا الإلهية ( أو « الألعبوة الإلهية » كما يسميها متابعاً سابقيه ) منطلقاً من مبدأ هو « جمال التخيل » الذي لا يتحقق إلا عندما يقترن بالتعقل<sup>(62)</sup> .

( 62 ) حابر عصفور ص 63 .

ويلاحظ أن عصفور يفضل الحديث عن الموازنة لا المقارنة ، باعتبارها بداية لهذه الأخيرة ، محدداً بداية هذا الفضول عند العرب ، من خلال عبد الرحيم أفندي وسليمان البستاني وجرجي زيدان وقسطنطي الحمصي ، وتعتبر الإشارة إلى هؤلاء إعادة لقراءة إنتقائية تستهدف إفتراض منظور يتميز بجذته وطرحه الخاص - ضمن انطولوجية الخيال والحقيقة .

ولإدراك هذا التميز يكفي مقابلة نص عصفور بنص عزيز سوريال عطية وطريقته التقريرية السردية ، التي لا تخلو من أهمية لأنها تغطي جانباً وصفيّاً ، يستطيع أن يقدم أرضية للمحلل الأدبي .

ويمثل عزيز سوريال عطية ، من ثم نموذج الدراسات السائدة التي تعرضت لموضوع الأخريات في الكوميديا الإلهية من الوجهة التاريخية :

« مرت مدة طويلة كان النقاد يعتبرون دانتي فيلسوف النهضة وشاعرها الخالد من تلاميذ أرسطو وتوماس . وفي عام 1919 نشر أحد اللاهوتيين المسيحيين الاسبان الذين يجيدون اللغة العربية وهو ميغيل اسن بالاسيوس « الإسلام والكوميديا الإلهية » وقد تشكك بالآسيوس في أن يكون لدانتي أصالة في تأليف الكوميديا واستعرض الشبه الواضح بين الكوميديا الإلهية والقصة الإسلامية ، والاتفاق الواضح بينهما في الخطة وفي تفاصيل كثيرة . فقد اتضح أن الحركة ، والغرض الرمزي ، والفكر عن الهندسة الفلكية للسماء وطبقات الجو ، والفكرة الأخلاقية ، وكثيراً من الاستنباطات الأدبية - ظهر أنها كلها متشابهة تماماً وتكاد تكون واحدة في كل من دانتي والقصة الإسلامية .

وقد رويت القصة مرتين في اللغة العربية أولاً : عندما رواها الزاهد الضرير في القرنين التاسع والعاشر ، أي أبو العلاء المعري ( 1057 ) ( 973 ) وكان يسمى فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة . ففي رسالته « رسالة الغفران » يستعرض بمهارة وفصاحة الرحلة السماوية للنبي محمد وأكد عناصر رحمة الله الواسعة في مقابلة ما له من سخط وجبروت . وثانياً : بعد ذلك بنحو قرنين أعيدت رواية القصة بروح

تختلف كل الإختلاف وبطريقة أطول من طريقة أبي العلاء ، قام بذلك الإشرافي الصوفي « ابن عربي » الذي تعزى فلسفته خطأ إلى الاميدولية وتلميذ الافلاطونية الحديثة من مدرسة ابن مسرة ( 883 - 931 ) بقرطبة ، وقد أتم هذا العمل في كتابين نشر أحدهما وهو « كتاب الفتوحات المكية » أما الآخر فلم ينشر ولا زال مخطوطاً وهو « كتاب الاسرا إلى المقام الاسرى »<sup>(63)</sup> .

وهكذا تفتتح أغلب المقاربات على الجوانب التاريخية ، التي يصعب فيها البحث عن داني العري محور الكثير من المناهات ، فداني التجأ إلى وسطاء الترجمة عند أحد رضا بك وعبد الرحمان بدوي ، مما يرفع عنه براءة تجاهل التراث العري ، وينبني على ذلك تحديد الحقول المعرفية التي استهوتته في هذا التراث . فهو عند أحد رضا بك لا يهتم بالمناخ العام ، بل يذهب إلى أبعد من هذا ، من نزوع إلى معرفة للفكر الإسلامي الذي تعكسه بعض الفرق الشيعية ، كما تحدث عنها مارينو سنييتو وكل هذه الإحتمالات والإفتراضات لا تقدم في شيء كيفية سريان التأثير والتأثر ، لأن النص المعني يغيب على حساب التاريخ له ، أو ما قبل النص ، فالكوميديا الإلهية كنص تكاد تتردد كمجرد اسم يلتصق بداني ، ومن هذا المنظور فأحد رضا بك يعتبر :

« أن داني الشاعر المتكلم عنه لم يكن يحسن العربية ولكنه كان يطالع المصنفات العربية العديدة التي ترجمت إلى اللاتينية . وقد قال فعلاً أنه قرأها في نسخة البير الكبير ، وقد بلغ به الولوع بمعرفة كل شيء ، حتى قال عنه أوزنام إنه كان يبحث عن إعتقادات التتر والإسماعيلية ٢٢ وأنه كان يميل كثيراً إلى الإسلام وإلى مفكري المسلمين . وكان كذلك يهتم إهتماماً عظيماً بغرائب الشرق التي أخذ الكتاب يتناولونها في تأليفهم وكان أحسن ما كتب في هذا الموضوع الكتاب الذي ألفه في

63 (عزيز سوريال : العلاقات بين الشرق والغرب . طبعة . دار الثقافة 1972 ، ص 251 .



بداية القرن الرابع عشر ، أي في عصر « دانتي » الفيزي الشهير مارينو سنيو . وهو والحق يقال شاهد صادق على أن صاحبه كان يعرف في الشرق معرفة جيدة<sup>(64)</sup> .

وقد تأثر إلى مدى بعيد عميق وهو يؤلف « الكوميديا الإلهية » بالإسلام والتصورات الإسلامية للآخرة . ويستوي بعد هذا أن يكون تأثره بأدب « صغير » أو أدب « كبير » المهم أن المادة التي أودعها « الكوميديا الإلهية » قد دخلت في تركيبها عناصر إسلامية<sup>(65)</sup> .

وينطلق عبد الرحمان بدوي من مسلمة ، فهو لا يفترض فيها الخطأ على الإطلاق ، بل ولا يهيمه تحديد تأثر دانتي بأدب صغير أو كبير بقدر ما يهيمه وجود هذا التأثير ، كما لو كان هذا الأخير كافياً في حد ذاته ، ويكاد يهيم هذا التصور في جل المعالجات من هذا القبيل والتي تغيب التحليل وتفسح المجال لظاهرة نهضوية ، كان عليها أن تتطور لإفراز مقاربات جديدة ، إلا أنها استطالت أكثر من اللازم ، وسيطرت على مناهج التدريس الجامعي ، ولا يمكن القول بوقوع التخلي عنها الآن .

الغريب في الأمر أنه وإلى حدود 1980 نجد أن ما بدأ العرب في معالجته منذ عقود يعود ليظهر في صياغة جديدة للمعلومات كما لو كانت اللحظة التاريخية تستدعي عودة ظهور الظاهرة في مقال لداوود سلوم سنة 1980 ، وليست استعادة الظاهرة هي المستغربة ، بل المستغرب هو عدم إضافة جديد للمعالجة التي خاض فيها أكثر من جيل بنفس الأدوات والمناهج والخلفيات الفكرية المتشابهة . وإلا فما الداعي إلى عودة داوود سلوم إلى تلخيص آراء بلوشيه / بلاتوس / بللور / ساندينو / تشيرلي ، حول الكوميديا فهل جد جديد في هذه الآراء ؟ أم حدث اختلاف في معالجتها عند داوود سلوم ؟ .

( 64 ) أحمد رضا بك ، الحية الأدبية للسياسة الغربية في الشرق . دار بوسلامة . تونس .

1977 ، ص 204 / 205 .

( 65 ) عبد الرحمن بدوي ، دور العرب في حضارة الغرب ص 65 .

نعتقد غير كل هذا ، لأن داوود سلوم لم يصنع أكثر من التجميع للآراء المبعثرة كما تظهر من خلال عرضه التاريخي :

« وكان من أول الباحثين هو المؤرخ الفرنسي أ. بلوشيه في كتابه المسمى المصادر الشرقية للكوميديا الإلهية المنشور عام 1901 » .

والغريب في معالجة أحمد رضا بك أنه يميل إلى القطع في أحكامه بحدوث التأثير بناءً على اليد الثانية لكتابات غربية ، فهو لا يباشر النصوص الفعلية ، من معراج وغفران وكوميديا ولكنه يقتنع مسبقاً بالتأثير ، ويبحث عن الاحتجاج له ، من منظور ما قبل النص ، مما يسيء إلى النص ذاته وإلى الأطروحة التي يريد إثباتها .

ويؤكد عبد الرحمان بدوي هذا الاتجاه السائد في دراسة الأصول العربية للأخرويات في الكوميديا الإلهية بتوسيع مجال معلوماتنا أما بالإشارة إلى المصادر المفترضة أو إلى تاريخها وترجمتها وإما بالإحالة على أهم المستشرقين الذين ارتبطت أطروحة التأثير بأسمائهم كاسين بلاتيوس .

والظاهر أن عبد الرحمان بدوي ينهج في أغلب كتبه طريقة وصفية وسردية للأحداث مكتفياً بعرض آراء الغربيين في الموضوع كما لو كانت نتائج لأبحاثه الخاصة ، وهي ظاهرة لا يتفرد بها ، ولكنه من أهم المروجين لها في العالم العربي على الإطلاق ، حيث يظهر باستمرار ملخصاً لآراء سابقه .

« فإذا أردت تلخيص الموقف لقلت إن مسألة المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية » تتعلق خصوصاً بكتاب « المعراج » وبـ « المجموعة الطليطلية » وبسائر الأخبار الأوروبية عن الأخرويات الإسلامية ، أي إن المسألة تتعلق بكتب عربية غير علمية دخلت في الثروة الثقافية لأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق اسبانيا . . .

وهكذا ، وبفضل نشر « كتاب المعراج » والنصوص المتعلقة بالروايات الإسلامية عن الآخرة مما ترجم إلى الإسبانية والفرنسية واللاتينية في

القرنين الثاني عشر والثالث عشر تأيد الفرض الرائع الذي افترضه اسين بلاتيوس وأيده بشواهد أخرى ، وأصبح من الثابت الآن أن دنتي ، شاعر أوروبا الأكبر يرى بلوشيه أن قصتين في كتابين منفصلين من قصة المعراج كانتا توجدان في الشرق وقد كتبتا في فارس ، كتب الأولى كاتب مزدكي في عصر غير محدد ، ويرى احتمال كتابتها في نهاية حكم الأسرة الساسانية وهي النسخة المسماة اردافيراف .

والثانية هي قصة معراج النبي محمد ( ص ) التي كتبت في حدود القرن الثاني وهو يرى أن أساس الكوميديا الإلهية هي القصة المزدكية وليست قصة معراج النبي محمد ومهما كان الأمر ، فإن بلوشيه لم يحاول أن يبحث عن جذور قصة المعراج المزدكية واحتمال تأثرها بآداب أقدم منها . إذ إن فكرة النزول إلى الجحيم أو الذهاب إلى العالم الآخر كان حدثاً معروفاً للآداب العراقية القديمة وأن الفرس كانوا قد احتلوا بابل وقضوا عليها وأسسوا حكمهم هناك .

ولعل الغرض الوحيد الذي افترضه بلوشيه أن جذر قصة المعراج كان من أصل هندي - فارسي .

وهو كما يبدو كان على جهل تام بالنصوص السومرية والبابلية القديمة . ويرى بلوشيه أن قصة معراج النبي محمد ( ص ) كانت مصدراً ثانوياً ربما استمع إليه دانتي عن حكايات الفرسان الذين ذهبوا لمقاتلة العرب وعن طريق مؤلفات المؤرخين بالعالم الشرقي .

وإن المستشرق الأسباني ميكيل بلاتيوس في كتابه « قصة المعراج في الكوميديا الإلهية » هو الذي قرر عام 1919 عن الأثر الفعلي الذي تركته قصة المعراج العربية على ملحمة دانتي .

وإن الدراسات التي تلت بعد نشر كتاب بلاتيوس قد أكدت أثر العنصر العربي في الملحمة .

ومن ذلك دراسة بللور الذي قال عن الكوميديا الإلهية « إن الكوميديا الإلهية كانت الخلاصة الشعرية للقرون الوسطى ، بل إنها كانت أكثر

ما نتصور . إذ إنها تحتفظ بانعكاس الحضارة الإسلامية وطابعها التي كانت القرون الوسطى عصرها الكبير »  
ويقول بللور في مكان آخر :

إن الفلاسفة الفرنسيين ودانتي قد تبنا المذاهب الأفلاطونية الجديدة ومذاهب الفلسفة الرمزية للفيلسوف الإسلامي ( ابن مسرة ) فضلاً عن ذلك فإن فيلسوفاً مسلماً آخر هو ( ابن عربي ) قد أعطى قصة المعراج يشبه بصورة فريدة معراج دانتي وبياتريس عبر مجالات الفردوس وهذه الاستعارة الخيالية ما هي في نظر ( بلاثيوس ) عبر التأثير بالمعراج المحمدي المشهور .

وقد أكدت مسألة تأثر دانتي بالكفر العربي بعد أن ذكر المستشرق الاسباني ( ساندينو ) والمستشرق الإيطالي ( تشيرلي ) عن وجود مخطوطتين لقصة المعراج قد ترجمتا إلى الفرنسية واللاتينية قبل مولد دانتي بفترة قصيرة وإن الترجمة الأولى للمعراج النبي محمد ( ص ) قام بها عالم يهودي اسمه براهام ترجمها إلى اللغة القشتالية بناء على طلب لفرانسوا الحكيم . وبعد ذلك قام بون افانتور ( 221 - 1274 م ) بنقل الترجمة الاسبانية لكتاب المعراج إلى اللغة الفرنسية واللاتينية التي كان يحسنها دانتي وبذلك يكون قد أطلع على فكرة المعراج العربية دون الحاجة إلى معرفة اللغة العربية أو العبرية .

وإضافة إلى ذلك فإن ابن عربي ألف قبل مولد دانتي بعشرين أو خمس وعشرين سنة كتابين أولهما كتاب الإسراء الليلي . والآخر إحياءات ( كذا ) مكة وكان لهما بعض الأثر على مفكري عصر دانتي <sup>(66)</sup> .

ويتبين من خلال الخطاب الأدبي للأخرويات عدم التمييز بين الكليات الإنسانية بثوابتها المتعددة وخصوصيات التأثير المباشر فحين يركز

---

( 66 ) دود سلوم ، أثر قصة المعراج والثقافة الشرقية في ملحمة دانتي ، مجلة الجامعة ، الموصل ، العراق . ع 8 ص 1980 ص 28 .

داوود سلوم على كتب المعراج عند العرب والفرس والغربيين فهو لا يفعل أكثر من تحديد لتكرار الظواهر عبر فضاءات متنوعة دون تبيان للآفاق التي يريدونها من ذلك ، أي تحديد أبعاد البحث ، والخروج من ضيق رأس الزجاجة ، التي تحبس فيها هذه المعالجات نفسها .

ويظهر أن أقرب الدراسات إلى الصواب هي تلك التي تعالج إشكالياتها من خلال النصوص ، أي استقراء الخطابات المقارنة ومواجهتها على مستوى البناء والتحويلات والمضامين .

ومن هذه الزاوية يتوقف عزيز سوريال عطية في بلورة الجوانب الممكنة ، والتي تمثل حداً مشتركاً بين رحلة دانتي السماوية ورحلة المعراج على مستويات ، منها :

- القصص
- الرحلة الليلية
- حيوانات الرحلة
- أدوار خايطور وفرجل
- التحذير من الجحيم
- طبقات الجحيم
- المقابلة بين بياتريس وجبريل
- الصعود إلى السماء
- الانبهار بالأضواء العلوية .

وإذا كانت هذه المستويات لا تلم بجميع المكونات ، فهي صالحة لأن تكون مرتكزات لتحليل النصوص المعنية ، لأنها تنطلق من معطيات صالحة لمعرفة البنيات والأدوار التي تكون المقارنة .

وييني ، من ثم ، عزيز سوريال عطية أطروحته على مجموعة من التشابهات القائمة بين نصي ابن عربي ودانتي ، دون أن يعتمد على شواهد من عمليهما ، ولكنه ، يتوقف مع ذلك في تقليص المسافة بين النصين ، ناقلًا المعالجة من ما قبل النص إلى النص كالتالي :

« ويمكن توضيح التشابه بين روايتي ابن عربي ودانتي ببعض الأمثلة المحسوسة . ففي كل من الكتاتين يقص النبي محمد ، ودانتي تجربتهما في العالم الآخر . ويبدأ كلاهما رحلته ليلاً . وفي القصة الإسلامية يعترض أسد وذئب الطريق إلى الجحيم ، وفي شعر دانتي يعترض الطريق فهد وأسد وذئبة . ونجد خايطور رئيس الجن الذي يخاطب النبي في قصة ابن عربي على حين نجد فرجل في شعر دانتي زعيم الكلاسيكيين هو الذي يصاحب دانتي . وفي كل من الروايتين نجد التحذير واحد من الاقتراب من الجحيم : أصوات مختلفة ، وإنفجار لهب . كما نلاحظ أن بناء الجحيم في كلتا الروايتين واحد ، فهو تنور كبير يتكون من عدة طبقات مختلفة على حسب الطبقات المختلفة من الخاطئين .

وبعد عبور جيل التطهير نجد اللجنة الإسلامية والمسيحية واحدة . فتترك بياتريس دانتي كما يترك جبرائيل محمد عند اقترابهما من الحضرة الإلهية . والملك العملاق في الرواية الإسلامية يمثل ديك ويحل محله نسر سماوي في رواية دانتي . ويرى دانتي الكوكب زحل وله سلم ذهبي يصل به آخر السماوات . ويصعد محمد سلماً من بيت المقدس إلى أعلى السماوات . والصعود إلى الله في كلتا الروايتين واحد ، فكلاهما يصف الرؤيا الإلهية كأنها بؤرة نور قوي تحيط بها تسع دوائر متمركزة من الأرواح الملائكية تزيدها إشعاعاً وفي الوسط « الشاروبيم » ونجد الإستجابة عند كلا الحاجين [ محمد ودانتي ] للرؤيا العظيمة واحدة . فكلاهما إنبهر بضوء خاطف للبصر حتى إنها يعتقدان أن بصريهما قد ضاعا وأنها قد أصابها العمى . وتدرجياً يسترجعان قوتيهما على الأبصار ويستطيعان أن ينظرا إلى المنظر الإبداعي الإعجازي ثم يفقدان الوعي في نشوة .

والسؤال الآن الذي يحتاج إلى إجابة هو كيف نربط معاً هاتين الطريقتين المختلفتين للتفكير إحداهما شرقية باللغة العربية والأخرى

غربية ، بلغة أهل فلورنسا ( الإيطالية ) « (67)

ويتعزز هذا الاتجاه في دراسة الكوميديا الإلهية بعمل رجاء عبد المنعم جبر في عمله ( رحلة الروح بين ابن سينا وسنائي ودانتي ) ، وهكذا يوسع مجال المقارنة ليشمل الآخر التي لم تكن تخطر على بال المقارنين للموضوع ، في بداية الإهتمامات الأولية به ، إذ يجد رجاء عبد المنعم جبر ، ان :

« . . . الكوميديا الإلهية بمجلداتها الثلاثة التي تحتوي على ( 14233 ) بيتا - نحن مدعوون إلى أن نقارن بينها وبين « سير العباد » الذي لا يتجاوز عدد أبياته (800) بما فيه الجزء المدحي المخصص لقاضي سرخس والذي أهديت إليه المنظومة . . . » (68) .

كما يبسط نفس الكاتب حوافزه للمقارنة بين دانتي والأدب الإسلامي الفارسي من خلال سنائي الغزنوي وابن سينا ، وبذلك يعود رجاء عبد المنعم جبر بالموضوع إلى أصوله الفلسفية الصوفية ، وهو شيء أساسي في موضوع كهذا ، لا تتوقف فيه الإحالة على الأخريات باستمرار . ورغم إن الإشارة الأولى إلى عمل سنائي قام بها نكلسون في مقالة ظهرت سنة 1943 ، فإن رجاء عبد المنعم جبر يطورها عبر توضيح لمقاصده منها :

« وقد قصدت في هذا البحث إلى هدف محدد هو أن أقدم إلى القارئ العربي منظومة هامة للشاعر الفارسي الفيلسوف سنائي الغزنوي ( 525 / 1031 ) يحمل عنوان ( سير العباد إلى المعاد ) وأن أجعلها محور الدراسة المقارنة ابين فيها مصدرها ، والعلاقة التأثيرية المفترضة بينها وبين « الكوميديا الإلهية » هذا الأثر الأدبي العالمي الذي ما زالت مسألة

( 67 ) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص 252 .

( 68 ) رجاء عبد المنعم جبر ، رحلة الروح بين ابن سينا وسنائي ودانتي ، 1900 ، ص 85 .

مصادره موضوعاً يشغل أذهان كثير من العلماء والباحثين ، منذ نشر أسين بلاثيوس بحثه الشهير عن المصادر الشرقية للكوميديا ( 1919 ) .

3 / ... . سلكت مسلكاً آخر ، يتناول علاقة الكوميديا بالمصادر الشرقية التي تناولت موضوع الرحلة إلى العالم الغيبي تناولاً فلسفياً صورياً ، مثل هذه المنظومة بالذات لسنائي الغزنوي ، المتأثرة بدورها تأثراً مباشراً برسالة « حي بن يقظان لابن سينا »<sup>(69)</sup> .

كما يوضح رجاء عبد المنعم جبر الإتفاق في الخطة العامة للرحلة عند سنائي ودانتي من خلال احتمال التأثير المباشر الذي تدعمه الأسبقية التاريخية من جهة والتأثير المشترك لابن سينا على العاملين من جهة ثانية .

ولا يفوت رجاء عبد المنعم جبر أن يبرر لمقارنته بين العاملين ، اللذين يظهر تباعدهما الجغرافي والزمني :

« قد يبدو عجباً أن نقارن بين منظومة الكوميديا ، هذه الملحمة الطويلة من الشعر ... . والتي طبعت ... . خمسمائة مرة وبين منظومة متواضعة لم تطبع سوى ثلاث مرات وأول ما نلاحظه من وجوه التشابه بين المنظومتين هو الإتفاق في الخطة العامة للرحلة . وجود تأثير مباشر بين المنظومتين وبأن سنائي كان رائداً فارسياً لدانتي ( و ) سير العباد المكتوب في بداية القرن ( 12 ) ، والكوميديا الإلهية المكتوبة في بداية القرن ( 14 ) أعظم الإحتمالات إلى وجود المصدر المشترك هو التراث الفلسفي الديني الذي وصل إلى سنائي عن طريق ابن سينا كما وصل إلى دانتي عن طريق القديس توماس الأكويني ، ومن الواضح أن الشعارين يتشابهان أساساً في روحهما الشعري وفكرهما المنطقي الفلسفي ... »<sup>(70)</sup> .

( 69 ) رجاء عبد المنعم جبر ، السابق ، ص 3 .

( 70 ) رجاء عبد المنعم جبر ، السابق ، ص 85 .



ويعود بنا رجاء عبد المنعم جبر إلى تداخل اليد الثانية بالثالثة ، حين يورد شاهد نيكلسون حول زيارة الشاعر الفارسي سنائي لدانتي ، مما يوحي بأنه لم يكن يتعامل مباشرة مع النص الأصلي ، بل يتبنى في ذلك أطروحات نيكلسون ، ويكفي لتوضيح ذلك موازنة بين شاهد نيكلسون التالي والشواهد السابقة لرجاء عبد المنعم جبر ، وهو شاهد يوجد بكتابه نفسه ، رغم الأوصاف التي قام بها لتقديم عمل سنائي الغزنوي المتميزة .

فحين يقرر نيكلسون أن منظومة سنائي مثل منظومة دانتي تماماً ، يرى رجاء عبد المنعم جبر ضرورة الإلمام بالعلاقة المفترضة ، كما أنه حين يقر الأول بلا عرضية التشابه في العملين ، يجزم الثاني بأن هذا التشابه يقوم أساساً في روحها الشعري وفكرها المنطقي الفلسفي ، فالتكامل موجود بين المعالجين . وهكذا يدرك نيكلسون .

« إن سنائي الغزنوي يحكي في منظومته المسماة ( سير العباد إلى الميعاد ) مثل دانتي تماماً كيف وجد في الظلمة التي ظل طريقه فيها مرشداً صاحبه عبر طرقات الخوف والفرع التي كان عليه أن يقطعها قبل أن يصل إلى غايته .

ويضيف : إن من الصعب أن يقر الإنسان هذه المنظومة الفارسية دون أن يتذكر بشدة المنظومة الإيطالية ، فالتشابه بينهما لا يمكن أن يكون عرضياً حيث توجد تفصيلات تبعت على الدهشة وحب الاستطلاع وتدل على أن هناك مصدراً مشتركاً للشاعرين أو تؤكد الفكرة السائدة من أن دانتي استعان في كتابته لمنظومته بمادة موجودة في الروايات الإسلامية إياً كانت القنوات التي تم عن طريقها وصول هذه المادة إليه »<sup>(71)</sup> .

وكما قابلنا بين رجاء عبد المنعم جبر ونيكلسون يمكن المقابلة بين

---

( 71 ) رجاء عبد المنعم جبر ، السابق ، ص 4 .

كثير من المستشرقين والدارسين العرب ، لأن الظاهرة ليست محض صدفة ، بل إنها تتعدى ذلك إلى وجود علاقة للأسباب بالمسيبات ، والتي إن كان يعتقد أنها فرضت تاريخياً على هؤلاء ، نظراً لظروف سوسيو - ثقافية ، إلا أن التحلل من هذه الظروف لم يتم رغم البعد المعرفي والزمني اللذين كان من الممكن أن يحققا أثرهما في معالجات هؤلاء الدارسين في تمييزهم عن إعادة إنتاج اليد الثانية للإنتاجات السابقة .

ويفتح بديع محمد جمعة أبواباً أخرى في عالم الأخريات :

- أ - بإضافته أعمالاً أخرى في التراث الفارسي .
- ب - بموازنته بين الأعمال دون مقارنتها بالغرب .

وهكذا يقترح علينا دراسة الأعمال التالية :

- 1 - معراج ابن زيد السبطامي .
- 2 - رسالة الطير لابن سينا .
- 3 - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .
- 4 - رسالة الطير للغزالي .
- 5 - سير العباد إلى الميعاد لسنائي الغزنوي .
- 6 - جاويدنامه للعلامة محمد إقبال .
- 7 - منطق الطير للعطار .

ويعقب على مواطن الإتفاق والإختلاف بين رسالة الطير للغزالي ومنطق الطير للعطار قائلاً :

« هكذا كان فريد العطار مبدعاً في تناوله لفكرة المعراج في منظومته « منطق الطير » وقد كان عالمه الفكري أغنى بكثير من عالم الغزالي الفكري في « رسالة الطير » ولعل ذلك راجع إلى قصر رسالة الطير ، وطول منطق الطير ، وليس راجعاً إلى تفوق العطار على الغزالي في عالم الفكر عامة ، فهذا ما لا يستطيع أي باحث أن يدعيه ، بل لم يكن في

مقدور العطار نفسه أن يدعي ذلك» (72) .

ونعتقد أن المقارنة لا يمكن إنجازها إلا بعد تحقيق ودراسة الأعمال العربية والفارسية والتركية ( التراثية الأدبية ) كأدب قومي أولاً وتحديد خصائصها ومكوناتها ثانياً .

ونظن أن الإشكال الذي يقع فيه أغلب المقارنين هو طفرتهم و / أو إفتقارهم للدراسات الخاصة على مستوى الأدب الوطني والقومي ، فدرجة معرفة القارئ برسالة الطير للغزالي أو منطق الطير للعطار ضئيلة ، إن لم تكن منعدمة ، لغياب النصوص الأصلية والدراسات حولها على المستوى القومي ، مما يحول دون تحقيق مرحلة أولية ضرورية هي ما قبل - المقارنة ، التي تلزم لتحقيق مقارنة ما .

إن موضوع الأخرويات في الأدب العربي لمن المواضيع المتعددة والمتشعبة والتي سار فيها محقق ودارس رسالة الغفران بعيداً في بحث التأثير الإسلامي على ضوء العلاقات ( الإسلامية / المسيحية ) الدينية .

كما أحال فيها التراقيون على ملحمة جلجامس عند البابليين وأرفيوس عند اليونانيين وارتاك فيراز عند الزرادشتيين .

وتشعبت الدراسات إلى تناول الخيال الشعبي في الانتروبولوجية الثقافية للشعوب ، لتنتهي إلى الدرس المقارن ، كما يحاول ذلك صلاح فضل في آخر دراسة ظهرت عن الأخرويات سنة 1984 ، حين يقارن الكاتب بين الكوميديا الإلهية وبين مصادرها ، في تأكيد لإستقلالية النص المتأثر ، لوضع عناصر التأثير في بناء جديد باعد بين الأصل والعمل المؤثر .

ويضع بذلك صلاح فضل دراسة في الأدب المقارن ، تعطي مكانة خاصة لبنية العمل المدرّوس ، متجاوزاً بذلك المعالجات التقليدية ، ليموضع العمل في إطار الدرس المقارن .

---

( 72 ) بديع محمد جمعة ، دراسات في الأدب المقارن ، دار النهضة ، بيروت 1971 ، ص 146 .

#### 4 - المصادر العربية لليكارسيك والقصة الغربية

( يعتبر المؤرخون والأدباء بتأثير الأنواع العربية في الغرب ، ويذهبون إلى حد أنها كانت وراء إزدهاره الأدبي ) هذه المقولة ترددت بأشكال مختلفة في أعمال ترى في أن قناة التأثير الأولى كانت هي الترجمة اللاتينية والاسبانية والفرنسية والإنجليزية عن العربية ، وأن القصة الثانية هي التي تمثلها التبادلات الاقتصادية والدبلوماسية ، بالإضافة إلى الحروب والغزوات حول البحر الأبيض المتوسط ، والتي ساعدت على ترسيخ التأثيرات .

ونجد من القصص المترجمة ( كليلة ودمنة ) ، وترجمتها إلى الاسبانية في عهد ألفونس لوساج ( Alphonse le Sage ) ( 1250 ) ، و ( رحلات السندباد ) المترجمة من العبرية إلى اللاتينية . كما ترجم اليهودي بدرو ألفونسو ( Pedro Alphonse ) إلى اللاتينية ثلاثين قصة تحت عنوان ( التنظيم الإكليريكي ) ( ق 12 ) .

ويعود أصل أربع قصص من مجموعته - من وجهة نظر جوزيف بدير ( Joseph Bedier ) - إلى العرب ويؤكد هذا الرأي باسيت Basset في ( ألف حكاية وحكاية ، قصص وخرافات ) ( 1924 ) .

كما ألف خوان مانويل ( Join Manuel ) ( 1282 - 1349 ) خمسين قصة ذات أصل عربي تركت صدًى عند بوكاش ( Boccace ) ورايموند لول ( Raymond Lulle ) ( 1235 - 1315 ) وكذا عند لافونتين ( La Fontaine ) ( 1626 - 1693 ) .

ويعود تدشين هذا النوع من الأبحاث إلى ماري لوي ديفورنوا (و) ث . شوفان ( V. Chauvin ) بفضل ( بيلوغرافيته حول الأدب العربي ) ( 1903 ) ( المجلد 9 ) .

أما فيما يخص المقارنين العرب في هذا المجال ، فإنهم تحمسوا لجانِب التأثيرات ، للحد الذي استنزفت فيه جل ذكائهم لهذا كان الإهتمام بالتأثير العربي في القصة والرواية الغربية رائجاً عند عبد الرحمان بدوي وجمال شحيد

وأبو العيد دود وعبد المنعم محمد ياسين وجرير عبده حيدر وخلدون الشمعة .  
فجرد الأعمال الغربية التي نعمل آثاراً شرقية كما يقدمه جمال شحيد ليس  
سوى محاولة لتلخيص جدول العمل الكبير لما رأي لوي ديفورنوا ، كما أن  
الحصيلة التي ينجزها عبد الرحمان بدوي عن الترجمات عربية في الغرب ،  
ليست سوى أجزاء منتفاة من قراءة سريعة لبليوغرافيا فيكتور شوفان .  
ومع هذا نجد بعض الأعمال الجادة ، من مثل تلك التي يقدمها هيام  
أبو حسين وتشال بيللا ( Ch. Pellat ) من الوجهة المقارنة ، والتي حاولت  
بالفعل موضوعة الإشكالية في الإطار التاريخي :

« لقد اهتم المقارن بما فيه الكفاية بالأعمال الأدبية المستلهمة لألف ليلة  
وليلة ، خلال القرنين الأخيرين ، أما إذا بحث المختصون عن آثار  
التأثير العربي على الأدب الأوروبي قبل القرن 17 ، فإن بإمكانهم العثور  
بالتأكيد على إكتشافات تشفي الفضول . وعلى جهود المقارن أن تتوجه  
نحو إيطاليا وإسبانيا ، حيث إن إحتلالها خلال ثمانية قرون لا يمكن أن  
يكون بدون أثر عميق ودائم . ونعرف بواسطة مؤلف عربي من القرن  
17 وهو المقرئ ( 1592 - 1632 ) بأن نصاً من ألف ليلة وليلة كان  
معروفاً منذ مدة طويلة بهذا البلد ، ومن المحتمل أن يكون الجزء  
المترجم قد تنقل كتابة أو شفوية ، ويزودنا راييموند لول ( 1315 - 1235 )  
بالدليل في كتابه عن الحيوانات ، كما أن إطار La ( 1600 - 1687 )  
( Vida es sueño de calderon ) مأخوذ بشكل ظاهر من النائم اليقظ  
ويمكن سوق أمثلة أخرى ، ففي إيطاليا تحمل الديكاميرون لبوكاش  
( 1315 - 1373 ) آثار الألف ليلة ، وترتبط قصة استولفو دوجيوفاني  
سيركامبي ( Astolfo de Giovanni Sercambi ) ( 1424 - 1357 )  
وفصل من نشيد XXVIII أولاندو فيريوزو دولاريوست ( 1530 )  
( Orlando Furioso de l'Arioste ) - بالحكاية - الإطار ، ومن  
الصعب معرفة كيف وصلت بعض هذه القصص إلى إنجلترا حيث تأثر  
بها جيوفري شانسر ( Geoffrey Chancer ) ( 1400 - 1340 )

وشکسپیر ( Shakespeare ) ( 1564 - 1616 ) بشکل ظاہر بہا «<sup>(73)</sup> .

ولا تكاد معالجة المصادر العربية لليكارسيك والقصة الغربية تتميز عن باقي المعالجات السابقة ، من حيث تحديد قناة التأثير وقناة ما قبل النص القصصي ، إلا أن الاختلاف هو في طبيعة النوع الحكائي ومضامينه التي يزعم أنها شرقية ، في إستلهاMATها وهي حجج تنبني على مجموعة من الوقائع التاريخية والأعمال التي عرفت نوعاً من الراج في الغرب .

ويظهر أن ترجمات أولية سابقة عن ترجمات ألف ليلة وليلة<sup>(7)</sup> كانت الحافظ الأول على تتبع أعمال مؤرخي الآداب الغربية والإبداعات المتأخرة للرومانسيين الذين كانوا يبحثون عن الغرائبية الشرقية : أي ما يستهويهم وما يلاقي إقبالاً عند جمهور تكونت لديه صورة عن الحكايات العربية من خلال العلائق التاريخية .

كما يظهر أن الوعي الوطني والقومي النهضوي حفز الدارسين العرب على تجميع الإشارات والإعترافات والمحاكاة لأنماط من الحكيم مهما كانت تحريفاته للواقع ، ما دام المجال التخيلي يسمح بالتهويمات والأسطرة .

ومن هذا المنظور كان استدعاء الدارسين وإجماعهم على الأصالة وعلى الإطار التاريخي وتغليبه على النصوص المعنية ، مما أصبح معه هذا الإستدعاء تقليداً متداولاً في جل مناهج المقاربات الأدبية المقارنة .

ويربط كاظم سعد الدين موضوع رحلة الحكايات العربية إلى أوروبا  
برحلة العرب أنفسهم إلى إيرلندا وإسكتلندا وبريطانيا بعد سقوط الأندلس  
معتمداً في ذلك على كراب ، دون ذكر للنصوص التي وقع عليها التأثير أو

( 73 ) Hiçam Abu al- Husain, *Les mille et une nuit dans le théâtre égyptien, inspiration arabe et influence française*, thèse du 3è cycle, Paris Sorbonne, 1968 (ex. dactylographiés).

( 74 ) Hiyam Abul - Husain, Charles Pellat , **Shehrazade, personnage littéraire** - SNEID - Alger - 1976; P. 19.

الكيفية التي تم بها اللقاء بين الجالية العربية والفضاءات الجديدة ، حيث نظل دائماً خاضعين لتبنيات الأفكار الجاهزة ، دون تعرف على أبعادها .

وهكذا يقرر كاظم سعد الدين بسط أطروحته كالتالي :

« القسم الثاني من بحثنا هذا يخص رحلة الحكايات العراقية خاصة والعربية عامة إلى بلاد أوروبا عن طريق الأندلس وإلى إرلندة وإسبلندة وهذه النقطة لم يفها أحد حقها فالعرب عندما حلت بهم المصيبة في الأندلس إرتحل منهم من إرتحل إلى بريطانيا وإلى إيرلندا بالذات هذا المركز الوسيط بين شمال أوروبا وبين أوروبا نفسها وقد انتقلت إليها كثير من المعتقدات والحكايات التي لم تكن قد ظهرت في أوروبا في عصرها الوسيط ، كما سنرى في الشذرات التي سأوردها هنا ولعل الوقت سيسعفنا لنفيه حقه من الدرس الأكمل . فلم تكن ملاحم الحيوان في أساسها من إنشاء العصور الوسطى الأوروبية فقد عرفها العالم القديم في إطار بدائي ثم ذاعت أثناء النهضة خاصة إسبانيا ، بإطارها الفني حسبما يرى كراب »<sup>(74)</sup> .

وتصبح إسبانيا مركزاً تتوزع وتنطلق منه التأثيرات العربية عبر كليلية ودمنة وكتاب السندباد وفلسفة الشرق والإغريق لتخترق أوروبا . إلا أننا لا نعرف كيفية الانتقال عبر النصوص الأدبية ولا نوعية الاستقبال الذي حظت به لدى القراء العاديين والتميزين مما يبقينا داخل حدود سلطة التاريخ ، عاجزين عن تكوين سلطة أدبية مقارنة ، لأن كاظم سعد الدين يستمر في عرضه التاريخي :

« فقد كانت إسبانيا إحدى تلك الطرق ، في غضون القرون السبعة من الحكم العربي ملتقى الشرق والغرب ، بلغت الحضارة العربية أوج سناها في طليطلة وقرطبة وغرناطة إلى جنب فلسفة الشرق والإغريق وعلومها التي جلبها العرب معهم ونفذت من إسبانيا إلى أوروبا ، أثناء القرون الوسطى ، هذا وانهم جلبوا معهم مجموعات كثيرة من الحكايات الشرقية .

أمر الفونسو الحكيم عام 1261 أن يترجم كليلة ودمنة إلى القشتالية ، وكانت تلك أول ترجمة له إلى أي لسان حديث ، وترجم كتاب السندباد بعد ذلك بستين ، وتبعها عدد كبير غيرها ، قصص تلك المؤلفات حكايات موزعة سدسة تتضمن عبراً وأمثالاً ، وهو ما كان يطلق على تلك الأقاصيص والأسباب التي دعت إلى سعة إنتشارها وتألقها المستديم واضحة وهي الملاحظة الثابتة والاقتصاد في الشكل ، والطلاوة في الأسلوب الذي ما زالت تتمتع به <sup>(75)</sup> .

وينقلنا عبد الرزاق حميدة إلى جرد للإنتاج الحكائي على لسان الحيوانات في أوروبا ، ويختزله في بعض الأعمال الإغريقية ، التي لم تكن كافية لدفع هذا النوع إلى الإنتاج بمعنى الكلمة ، وينبني على ذلك عند عبد الرزاق حميدة خلوه هذا الفضاء واستعداده لتقبل التأثير العربي الذي عرف عند العرب ، من خلال كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة .

ولا يهمننا تقدير صحة أو قيمة هذا الجرد ، بقدر ما يهمننا ميكانيزم العرض للإشكالية عند هذا الباحث الذي يفترض أنه بنطلق من منظور مقارن ، لتأليفه كتاباً مستقلاً عن الدرس المقارن ، من ثم ، يتموضع عمله في هذا الإطار ، يعتبر أن :

« كل ما وصل من العصر اللاتيني إلى العصور الوسطى من آثار هذا الفن هو مجموع من الفصوص دون بعضها بالإغريقية نثراً ، لادبيب أفثونيوس Aphthonius الذي عاش في القرن الرابع الميلادي ، ونظم بعضها باللاتينية أفيانوس Avianus وكانت هذه المجموعة بمثابة كتاب للمطالعة في اللغتين المذكورتين . وقد استمر استعمالها في المدارس حقبة طويلة خلال القرون الوسطى ..

وقد اشتهر من بين هذه الحكايات حكاية الثعلب رينالد التي نقلت من

---

( 75 ) كاظم سعد الدين ، الحكاية الشعبية العراقية وعلاقتها بالحكاية الأسبوعية ، السراة الشعبي بغداد . ص 44



اللاتينية إلى الألمانية ثم إلى الفرنسية . وأدق نظم لهذه الحكاية ، بل أشد المؤلفات القصصية دلالة على براعة المؤلف ، وأبلغها تأثيراً في النفس تلك المنظومة التي ألفها «جوته» ( 1749 - 1832م ) شاعر الألمان الأشهر ، وفيلسوفهم »<sup>(77)</sup> .

وينبغي على رسم هذا الإطار عند عبد الرزاق حميدة<sup>(77)</sup> فسح مجال للتأثير العربي الحكائي على ألسنة الحيوانات ، وهي حلقة دائرية تبدأ بترجمة كليلة ودمنة وإقتباسها عند لافونتين ثم محمد عثمان جلال .

أما ألف ليلة التي عرفت منها حكايات متعددة خلال القرون 12 / 13 / 14 فقد كانت بدورها مشار جدالات لاحقت أغلب التآليف الغربية التي فسحت المجال بشكل رسمي لتأويل التأثير مع ترجمة انتوان جالان لألف ليلة وليلة وظهور « الخزانة الشرقية » وهو شيء أصبح رائجاً في الدراسات الحكائية كما يعرض لها فردريش فون ديرلاين في ( الحكاية الخرافية ) مؤكداً كيف :

« تدين أوروبا في معرفتها بألف ليلة وليلة للمستشرق الفرنسي الشهير « انتوان جالان » الذي أخذ منذ عام 1704 في ترجمة الحكايات العربية إلى الفرنسية ، مغيراً فيها مرات عدة ، ومرتباً لها وفق تقديره الخاص ، كما اجتهد في أن يلائم بين الأصل الشرقي وبين ذوق عصره قدر الإمكان ، وذلك بنجاح مذهل بل ربما يصعب تصديقه كما هو معروف . وقد نشأت في عشرات السنين التالية ، وذلك في فرنسا وألمانيا عدد لا حصر له من حكايات الجان الشرقية التي أتخذت ترجمة « جالان » لليالي نموذجاً لها في مجموعها »<sup>(78)</sup> .

ويسترعي الانتباه في شاهد فردريش فون ديرلاين تشديده على

( 76 ) كاظم سعد الدين ، السابق ، ص 48 .

( 77 ) عبد الرزاق حميدة ، قصص الحيوانات . طبعة القاهرة 1959 . ص 17 / 18

( 78 ) فردريش فون ديرلاين ، الحكاية الخرافية . ت. نبيلة إبراهيم ، دار الثقافة .

بيروت 1973 ، ص 214 .

ملاءمة جالان بين الأصل الشرقي وذوق العصر من جهة وظهور محاكاة حكايات الجان الشرقية من جهة ثانية ، ولعل هاتين الإشارتين هما ما يكون موضوع أغلب الدراسات العربية التي طبعت بايديولوجية التذكير بدور العرف المفقود ، وهو تذكير يبرر تأثر العرب واحتمال عودة وعيهم الأدبي . ويضيف فريدريش فون ديرلاين معلومات أخرى إلى السابق :

« أما المخطوط العربي الذي اعتمد عليه جالان بصفة أساسية فيرجع إلى القرن الرابع عشر . ونحن نملك ثلاثة أجزاء من هذا المخطوط ، أما الرابع فلا أثر له . ويحتوي هذا الجزء ضمن ما يحتوي عليه ، على حكايتي علاء الدين وعلي بابا الجميلتين على أن الشك يتطرق إلينا من وجهة النظر الموضوعية فيها إذا كان « جالان » قد استمد حكايات الجزء الرابع من مخطوط عربي فالمرجع الفرنسي كان يستمع إلى كثير من الحكايات من مسيحي « سوري هو حنا الماروني »<sup>(79)</sup> .

ولا شك أن حنا الماروني كان مساعداً على ترجمة النصوص لا أقل ولا أكثر ، لهذا لا نجد من يتحدث عنه من الدارسين العرب ، ويكاد يكون مجهولاً .

والملاحظة التي يجمع على إبعادها من حقل الإهتمامات العربية هو إشارة الأصل الهندي والأجنبي لألف ليلة وليلة وهي ملاحظة ركز عليها فريدريش فون ديرلاين في ( الحكاية الخرافية ) ولا ترد الإشارة إلى ذلك في الكتابات العربية التي تبحث عن سلطتها الرمزية فيما يكون قوة التخيل العربي من مدھش وخصب وخلق وقدرة فنية ، كما يرصد ذلك عبد المنعم محمد جاسم في ( ألف ليلة وليلة في الآداب الغربية ) ، حيث يصبح الغرب مديناً للشرق الذي أنقذه من ظلمات فقدان الخيال الحكائي ، إذ يستلذ الدارس في خطاب تداعيات ومرادفات باكتشاف الأبوة المفقودة للغرب المتقدم ، إذ ، تصبح ألف ليلة وليلة المرأة التي أطل منها الغرب على الشرق ، ولولا هذه المرأة لضاع وجهه وتشوه في خضم فقدان الهوية .

( 79 ) فريدريش فون ديرلاين ، السابق ، ص 214 .

والمستغرب حقاً هو هذا الإلتذاذ / الشقي في خطاب عبد المنعم محمد جاسم الذي يعلن في غير ما تخرج :

« إن هذه الدراسات الأوروبية وغيرها مما لا يحصى كثير كان الفكر الشرقي طابعه المميز ، حيث اعترف مشاهير كتاب أوروبا ما شاء لهم أن يغترفوا - من هذا السفر الاجتماعي الشرقي الضخم الخالد الذي أثر في كتاباتهم فجاءت وكأنها تحمل الصورة الواضحة المشرقة التي تميز بها الشرق فأضحى مدعاة لإعجاب الغرب حيث تبين له أخيراً أن الفكر الشرقي يتسم - في أغلبه - بهذا الإبداع المدهش والخيال الخصب . وأن الإنسان الشرقي له القدرة على تكوين وخلق نسج في لا يقوى على الوصول إليه كتاب أوروبا وأدباؤها ، فكان له السمة المميزة .

وليس هناك وصف لألف ليلة وليلة أبدع وأوضح وأشمل من أن نقول : إنه المرأة التي أطل منها الغرب على الشرق ، مما حدا بالأوروبيين إلى جلو الصدا عنها لتظهر أكثر إشراقاً من ذي قبل . فحاكوا على منوال هذا التاج نسيجاً من حكايات أشبهتها في مضمونها وإطارها العام ولكنهم لم يستطيعوا أن يصعدوا بها إلى ذلك الإبداع الفني الذي صاغه لسان شهرزاد عبر ألف ليلة من الزمان لن ينقطع فيها الصوت الشادي إلا عندما تدرك شهرزاد الصباح لتسكت عن الكلام المباح »<sup>(80)</sup> .

ونموذج عبد المنعم محمد جاسم يدخل في الترويج لوعي فاسد لا يلتزم بمقتضيات الدرس المقارن لأننا نعلم من بداية كتابته الفكرة المسبقة التي تسيطر عليه وتحول بينه وبين الحد الأدنى للمقاربة الموضوعية ، فتضيع هذه الأخيرة على حساب أيديولوجية انتصارية ، تمجد الماضي وتفقد رؤيا الحاضر .

---

( 80 ) عبد المنعم محمد جاسم ، ألف ليلة وليلة في الآداب الأوروبية ، التراث الشعبي ع 3 / 4

س 10 ، 1979 ، ص 20 .

أما النموذج التراثي الذي لم يفلت من هدهدة الدارسين فهو المقامات التي قوبلت بروايات البيكارسيك ، لا لتأثيرها المباشر فيها ، بل لأنها تكون حساسية عربية تركت بصماتها على الرواية الاسبانية ، وهي فكرة أثارها الناقد الاسباني انخل فلورس وتلقفها الباحث العربي ليجعل منها مركباً لموازنة غير متكافئة بين المقامة والبيكارسيكا .

« إذا سلمنا جدلاً بأن بطل المقامات يقوم في كل مقامة منفردة برحلة تورطه في شتى الملابسات مع أناس من مختلف الأوساط والطبقات الاجتماعية ، فلا يجب أن ننسى أن هذا التراث القصصي الذي يمثل البطل التجوّل والذي يبدو واضحاً في رواية البيكارسك الاسبانية هو في الواقع سابق لظهور هذه الرواية وسابق لانتقال أدب المقامات من الشرق العربي إلى المغرب وإلى الأندلس الإسلامية . فالتراث القصصي المتمثل في رواية البيكارسك تظهر منه بعض المعالم البارزة في الملحمة الشعرية الاسبانية التي كتبت في القرن الثاني عشر أو حوالي عام 1140 على وجه التقريب وهي ملحمة Cid : 1 أو Poema de mo cid عن البطل الاسباني المعروف بهذا الاسم ، وهو اسم مستعار كما هو واضح من كلمة السيد في اللغة العربية . وفي هذه الملحمة نرى هذا البطل وقد أبعده الملك الاسباني ألفونسو السادس عن بلاطه بسبب وشايات أعدائه وحساده الكثيرين ينتقل من مكان إلى آخر في جميع أرجاء اسبانيا قبل أن يعود إلى مدينة فالنسيا ويسترجعها من أيدي المرابطين . وعلاوة على ذلك يجب أن نذكر بأن هذا البطل الذي يقضي حياته في الحل والترحال له أيضاً نموذج سابق في الأدب الإغريقي والروماني القديم وفي قصص مثل قصة الحمار الذهبي التي كتبها لوسيوس أبولبوس Lucius Apuleius الفيلسوف الروماني الساخر في القرن الثاني بعد الميلاد . ونحن إذا ذهبنا إلى فترة أبعد من ذلك في التاريخ فربما نجد نموذجاً حياً لهذا البطل الذي يجوب الأفاق باستمرار في أوديسية هوميروس التي تصف لنا أسفار أوديسيوس البطل الإغريقي في السنوات العشر التي قضاها بعد حرب طروادة وهو يحاول العودة إلى

جزيرة إيثاكا في اليونان التي كان قد ولد وربى فيها .

وهناك ناحية تفترق بها رواية البيكارسك عن المقامات وهي أن جميع الروايات الاسبانية التي تنطبق عليها كلمة بيكارسك تكاد تكون شبه سيرة ذاتية يروي فيها البطل أحداث وملابس حياته منذ يوم ولادته في ظروف أو في محيط يغلب عليه الفقر وتسود فيه أحابيل الخداع والإحتيال والمكر والسرقة . والمقامة الوحيدة بين مقامات الحريري التي يمكن أن توصف بأنها شبه سيرة ذاتية هي المقامة الثامنة والأربعون التي تعرف بالحرامية ، والتي يعتقد أنها كانت أول مقامة كتبها الحريري .

ففي هذه المقامة نجد أبا زيد السروجي نفسه يفيض في وصف الأحداث التي أناته عن بلده فتطوح في البلاد ، كما يقول ، طريداً مشرداً . أما في المقامات التسع والأربعين الباقية من مقامات الحريري فإن راوي الأحداث هو الخارث ابن همام وليس بطل المقامات أبا زيد السروجي ، وقد تبين للباحثين أن إحدى روايات البيكارسك الاسبانية هي في الواقع سيرة حياة ذاتية <sup>(81)</sup> .

وكالعادة يتجول بنا الدارس عبر منعطفات تاريخية يونانية ورومانية وعربية لينتهي به المطاف على ضفاف المقامة الحرامية للحريري ، والتي تكون شبه سيرة ذاتية من بين باقي المقامات ، مما يجعلها أقرب إلى فن البيكارسيك الذي يطبع بطابع السيرة الذاتية .

وتكاد هذه الخاصية تكون المحور الأساسي الذي تدور عليه الدراسة ، إلا أن الدارس اضطر إلى الإغراق في الجزئيات الخاصة بالنوعين وتقديم الملابس التي أحاطت بمكوناتها التاريخية قبل أن ينتهي إلى هذه الخلاصة .

كما يحتفظ باسم الناقد الاسباني انخل فلورس ليختم به جولته وليدعم به أطروحته كسلطة غربية تمتلك الكلمة الأخيرة . وقبل هذا ينفي التأثير المباشر للمقامات في البيكارسيك ، ويتخذ هذا النفي صبغة رد على أطروحات

( 81 ) عبد المنعم محمد جاسم ، ألف ليلة وليلة في الأدب الأوروبية . ص 20

سابقة ، إلا أنه لا يعلن عنها بل يفصل في موانع التأثير ، مما يدخل المقارنة في مقارنة عكسية تمتلك سلطة التمهيد لفن البيكارسيك ، دون أن تمسه في شكل استنتاج :

« نستطيع التوصل إلى الإستنتاج بأن المقامات ، وخاصة بعد أن غلب الإهتمام بشكلها على الإهتمام بمضمونها وضاع ذلك المضمون وراء حجاب كثيف من المعنيات اللغوية والأحاجي النحوية لا يمكن أن تكون قد تركت أثراً مباشراً على رواية البيكارسك الاسبانية . فقد ابتعد بها الإهتمام بالطلاوة اللفظية عن طرافة ذلك اللون من القصص الشعبي الذي اعتمدته في بداية نشأتها ، كما ابتعد بها ذلك عن الأغراض التي تتفق مع أغراض البيكارسيك بعد أن أصبحت تكتب في المشرق والمغرب في أغراض التصوف والمواعظ والمدائح أو لوصف أي حدث عارض كما رأينا في مقامة النبأ عن الوبا . وقد أشرت أيضاً في سياق هذا البحث إلى قلة انتشار المقامات في الأندلس حسبما نستطيع أن نتبين من المخطوطات المتبقية ، وخاصة مقامات بديع الزمان التي كانت أقرب إلى ذلك النوع من القصص الشعبي الذي يعتقد الباحثون المعاصرون أن المقامات في البداية اعتمدت عليه وانطلقت في نشأتها الأولى منه . وبالإضافة إلى ذلك لا نجد قصصة منفردة بين المقامات يمكن التوسع بها وتطويرها بشكل يجعل منها رواية قصيرة مستقلة بذاتها كما هو الحال بالنسبة لقصص ألف ليلة وليلة أو قصص ديكامرون Decameron الإيطالية .

والمقامات من جهة أخرى كمجموع لا تشكل إطاراً قصصياً عاماً يمكن أن تصهر أو تدمج فيه القصص المتفرقة المستقلة لكي تشكل وحدة متجانسة ومتماسكة يمكن أن تعتبر رواية مستقلة .

والذي أريد أن أقوله في نهاية هذا المطاف حول إمكانية التأثير العربي في الرواية الاسبانية هو أن هذا التيار العميق الغور والبعيد المدى من القصص والنوادر والطرائف الشعبية العربية كان ذا أثر أبعد في التمهيد لظهور رواية البيكارسك الاسبانية من المقامات التي وقف

عندها الباحثون مراراً وتكراراً وحاولوا إعطائها دوراً لم تكن بطبيعتها مؤهلة له .

فالمقامات كانت تكتب للتداول في صفوف الضالعين والمتبحرين في علوم اللغة . وبما إنها كانت عسيرة اللغة وعسيرة الفهم وكثيرة المجهل فإنها لم تترجم إلى اللغة اللاتينية أو اللغة الأسبانية .

وعلى كل حال فأنا لا أحاول في هذا البحث الاستدلال على أية فصول من الأدب الأسباني جاءت منقولة أو واضحة التأثير بأصول عربية لكن القارئ قد يجد فيها عرضته إثباتاً جديداً لوجهة نظر الكاتب والناقد انخل فلورس القائلة بأن الرواية بمظاهرها المختلفة قد ظهرت في إسبانيا قبل أي بلد أوروبي آخر بسبب أثر الحساسية العربية في الآداب الأسبانية <sup>(82)</sup> .

ولا نقصد من خلال اعتمادنا للاستشهادات حول علاقة المقامات بفن البيكارسيك الإلمام بالقضية في أشكالها المتشعبة بقدر ما نتوخى إعطاء نماذج لتصورات وطرق معالجة المقارنين العرب ، إن صح نعتهم بالمقارنين - لإفتقارهم إلى المنظور النظري - لإختزالهم المسافات الفاصلة بين نص وآخر ، فالمقامات لم تستنفذ ما تستحقه في الدراسات العربية الحديثة - بإستثناء رسالة دكتوراة الدولة التي قدمها عبد الفتاح كليطو في الموضوع .

فلو انطلق الدارسون العرب من الأبحاث المستوفية لموضوعات المقامات في إطار الأدب الوطني والقومي لأمكن بحق الوصول إلى نتائج تقابل ما قام به الغربيون فيها يخص فن البيكارسيك .

من ثم ، يتم تعويم الطروحات في إحالات لا متناهية على تاريخ الأدب الذي يستغرق جهود جل الأعمال ، بحيث لا يبلغ معالجة المواضيع الأساسية إلا وهو مجهد ، يكتفي بإسقاط مجموعة من الأحكام الجاهزة في الأعمال الغربية ، مما يحول دون تحقيق تأويلات في المستوى المطلوب .

---

( 82 ) عبد الله محمد حاسم ، السابق ، ص 20 .

فالدارس المقارن للمقامات وفن البيكارسيك - يجد نفسه مدفوعاً لإنزراح مع تعريفات يفترض إلمام القارئ المتوهم بها ، وإلا فكيف نحل هذا الشاهد ضمن الدراسة المقارنة لتقديم رواية البيكارسيك :

« ففي رواية لاثاريو دي تورمس ( Lazarillo de Tormes ) التي تعتبر أول نموذج لروايات البيكارسيك في اسبانيا نجد أن البطل لاثاريو يقرر في مطلع شبابه أن الدجل والمراءاة هما العملة السائدة والمتداولة بين الناس وأن الطريق الوحيدة للنجاح في الحياة هي معاملة الناس بهذه العملة السائدة والمتداولة بينهم . وبدل أن نراء يتوب عند نهاية حياته ، أو بالأحرى عند نهاية الرواية ، نراء ينغمس في الدجل والمراءات دون أن يرف له جفن خوفاً من العقابة أو المغيبة . فهو يتزوج خلية أحد رجال الدين ويقسم على القربان المقدس بأنها سيدة جليلة فرواية البيكارسيك الاسبانية بعنوان « ابنة سلسيتينا » التي نشرت لأول مرة في عام 1612 ثم أعيد طبعها في عام 1614 بعنوان « هيلانة الماكرة » كان لها ولا شك سابقة مهدت الطريق لظهورها وكانت مصدر وحي لكتابها في الرواية التي تعرف عادة بعنوان La Celestina بقلم فرناندو دي روخاس Fernando de Rojas وهذه الرواية ظهرت في عام 1499 ، أي قبل مئة عام بالضبط لظهور أول رواية مكتملة المعالم من روايات البيكارسيك »<sup>(83)</sup> .

ويمكن أن نخلص من خلال استعراضنا لنماذج معالجات الدارسين العرب المصادر العربية للبيكارسيك والقصة الغربية أن جل الدراسات يستهويها الترويج لإرتسامات وإشارات الغربيين والمستشرقين ، لحد أن هذه الظاهرة تسترعي انتباه القارئ المتميز وتدفعه إلى التساؤل عن دلالة الخوض في إعادة - الإنتاج . فهل هو فقر في التخيل العربي ؟ هل وصل العجز إلى حد التكرار التبسيطي للقضايا ؟ هل يكتفي الدارس بدور الوسيط بين المقارن والمؤرخ الغربي ؟ كيف يفترض الدارس أن القارئ المتوهم في

( 83 ) عبد المنعم محمد جاسم ، السابق ، ص 20 .



حاجة إلى تقديم هذه الأطروحات على مستوى الدرجة الثانية والثالثة ؟ .  
 فهل يبحث الدارس المقارن العربي عن دعم لأطروحاته في وسط شعبي  
 يشك في فعالية هذه التأثيرات أم أن الأمر مجرد تأدية وظيفة تاريخية ظرفية ؟ .  
 \ ويعتبر كل جواب عن هذه الأسئلة إختزالاً لا يمكن تبريره على  
 الإطلاق ، لأن ظروف النهضة لا يمكن أن تستمر بهذه الطريقة ، واستمرارها  
 معناه محاولة إبطاء وتعطيل للتطور .

فالوعي الوطني والقومي عليه أن لا يبقى حبيس منظورات ضيقة  
 وترويجية ، بدعوى توسيع الإعلام بالأطروحات التي تظهر متأخرة عن زمن  
 ظهورها بعقود طويلة ، اذ لا بد من مرور فترة طويلة على العرب حتى يتم  
 اكتشاف العرب كما كتب عنهم ، بحيث يعد هذا الاكتشاف جديداً في  
 إخضاعه لتاريخ إكتشافه عند الباحثين العرب ، لا بتاريخ ظهوره في  
 الغرب . وتبقى المسافة الفاصلة دائماً بين ظهور الظواهر الأدبية وتاريخ  
 اكتشافها رهينة بالبحث الجامعي أو الفضول الأكاديمي المتأخر .

إن مجرد إلقاء نظرة على تاريخ الإهتمامات بعلائق البيكارسيك والمقامات  
 يعود إلى عقود قديمة ، كان لا بد من حصول صدفة ما ، حتى تأخذ هذه  
 الظاهرة شكلاً جديداً في معالجة الدارس العربي ، مما يفوت عليه فرصاً  
 عديدة للاكتشاف المباشر ، ويبقيه في درك ثانوي ، يقصر عمله على فرز  
 العناصر الإيجابية في العمل الغربي والرد العنيف تارة على سلبات تمس الهوية  
 العربية ، إذ تظل علاقات القوى بين سلطة الباحث الغربي والبحث عن  
 سلطة الباحث الشرقي فاعلة ، يعسر تجاوزها ، نظراً للمنابر التي يتحدث  
 منها كل من الباحثين وكذا لردود فعل قراء كل من الطرفين .

وقد نفاجيء القارئ العربي بقولنا أن كل ما قيل لا يعني استيفاء  
 القضية حقها ، لأن طرح إشكالية تأثير المقامات في البيكارسيك كانت  
 سطحية ، ولم تلتزم بأذن حدود الدرس المقارن ، من ثم لا يلغي كل ما قيل  
 ما يحتمل أن يقال بشكل منهجي .

## الفهرس

I - إشكالية التيارات الأدبية في العالم العربي	5
1 - مكونات تاريخ الأفكار كقناة أساسية لفهم التيار	7
2 - مكونات تاريخ الأفكار الأدبية الحديثة	19
3 - مكونات تاريخ الأدب العربي الحديث	35
4 - مكونات التيارات الأدبية عند العرب	79
II - إشكالية التأثير والتأثر في المقارنات العربية	119
أ - سيميائية التأثير	121
ب - ما قبل التأثيرات	129
( بيبليوغرافيا تسجيلية لكتب الرحلات العربية الخاصة بالغرب	
ماين (iatique)	135
ج - ولادة الصورولوجية	144
د - التأثيرات المتبادلة	163
1 - التأثيرات الصغرى	164
2 - الغنائية الأسبان - عربية	181
3 - المصادر العربية للكومبيريا الإلهية	192
4 - المصادر العربية للبيكارسيك والقصة الغربية	210



# إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية

في الوطن العربي

(دراسة مقارنة)

DH 25.00